

دراسات في تاريخ الجبرني

# مصر في القرن الثامن عشر

النجز الأول

- ١- عبد الرحمن الجبرني
- ٢- الحياة الفكرية والاجتماعية

تأليف  
محمود الشرقاوي

١٩٥٥

ملتزم الطبع والنشر  
مكتبة الأنجلو المصرية

١٦٥ شارع مرسى فرم (مما والفرم سابقا)

( صبحي وشركاه )



## مقدمة

تاريخ الشيخ عبد الرحمن الجبرتي عن حياة مصر في القرن السابع عشر والثامن عشر ، وشطر من التاسع عشر ، الذي سماه « عجائب الآثار في التراجم والأخبار » ، مرجع من أهم مراجع تاريخنا الحديث ، وأكثرها دقة ، وأوسعها شمولاً وإحاطة .

وقد كان هذا المرجع الفريد ، مهماً في مدى السنين الطويلة الماضية ، لأسباب . منها عنفه في خصومة محمد علي ، والحقائق المؤلمة التي سجلها عن الفترة الأولى من حكمه — وقد اتهم محمد علي بقتل الجبرتي ، أو قتل ابنه علي ما وراء في ترجمته — فلم يكن مما يرضى عنه أحد من أسرة محمد علي أن يُدرس هذا التاريخ ، ويعرف الناس ما سجله عن مؤسس الأسرة . ومنها المشقة البالغة التي يجدها من يطالع هذا الكتاب ، ويريد أن يستخلص منه وقائع التاريخ وحقائقه ، مجردة مما ألقمه عليها من توافه الأخبار ، وصفات الأمور . وفي هذا الأسلوب الذي كتب به الجبرتي خاصة ، والطريق الذي سلكه في التأليف .

ومن مظاهر التوفيق للدراسات التاريخية في هذه السنين الأخيرة ، بدء اهتمامها بهذا المؤرخ الصادق الأمين . الذي سجل من تاريخ مصر فترة لم يكتب فيها أحد سواء . ولا نجد عنها كتاباً باللغة العربية ، إطلاقاً .

ومن دلائل هذه العناية ، أن تصدر الدولة الجبرتي ومؤلفاته ، فيعني بجمعها اللغوي ، عناية خاصة ، بأفضل ما يؤلف عن ذلك من الكتب .

وتاريخ الجبرتي ، كما تقول دائرة المعارف الإسلامية ، أعظم تواريخ مصر في القرنين الثاني عشر والثالث عشر .

ويعتبر تاريخه مكملاً لتاريخ مصر الذي وضعه ابن إياس وسماه « بدائع الزهور في وقائع الدهور » ، فقد وقف هذا بتاريخه عند سنة ٩٢٨ . وتناول الجبرتي ما تلا ذلك من السنين ، إلى نهاية سنة ١٢٣٦ .

ومن الأمور السارة أن نجد مؤرخا مصرية ، هو الجبرتي ، يستأنف ، ويتم ، ما وضعه عن تاريخ مصر ، مؤلف مصري آخر ، وهو ابن عباس . فلا تسقط بذلك حلقة من حلقات هذا التاريخ .

وللجبرتي كتاب آخر ، لم يطبع ، هو « مظهر التقديس بذهاب دولة الفرنسيين » . كتبه في تاريخ الحملة الفرنسية وفترة احتلالها مصر . ونجد حديثاً وافياً عنه في هذا الجزء من كتابنا .

وقد كانت للجبرتي — إلى جانب مواهبه الكثيرة — كما كانت لأبيه من قبله ، مكانة اجتماعية ، وثناء ، مكنتها له من الإحاطة بأسرار الفترة التي أرخ لها أتم إحاطة .

وقد استطعت ، في نحو أربع سنين ، أن أخلص في هذه الدراسات ، التي أقدم أول أجزاءها بهذا الكتاب ، تلخيصاً أميناً ، شاملاً ، دقيقاً ، ما كتبه الجبرتي عن تاريخ مصر ، وتراجم رجالها . وأهم أحداثها . ومظاهر حياتها الاجتماعية والفكرية . بحيث أعتقد أن هذه الدراسات ، تنفي عن مطالعة مؤلفاته وتحمل ما فيها من جهد بالغ ، ومشقة ، وعناء كبير .

وهي ، فوق ذلك ، ترينا صورة جدّ كافية لفهم المظاهر المختلفة لتاريخنا ، والإحاطة بصورة الحياة التي كان يحياها أجدادنا ، وأهل وطننا ، في هذه الفترة من الزمن . وهي فترة لها أهمية خاصة في تاريخنا الحديث .

وقد رأيت أن أقسم هذه الدراسات تقسيماً موضوعياً ، لازمياً ، كما يفعل المؤرخون عادة ، وكما فعل الجبرتي . فجعلت الجزء الأول منها خاصاً بالحياة العسكرية والاجتماعية ، ومعه دراسة دقيقة ، وافية ، لأسرة الجبرتي ، وحياته ، ومؤلفاته ، وهو هذا الجزء . والثاني خاصاً بأيام المماليك ، مظاهر حياتهم وأخلاقهم ، وتراجم كبارهم . كما يتناول الأزهر والعلماء . والجزء الثالث ، يتناول تاريخ الكفاح الذي قام به شعب مصر ضد ظلم حكامه من الأتراك والمماليك ، كما يتناول كفاحه للإحتلال الفرنسي ، والغزو الإنجليزي . ومعه صفحات من سيرة محمد علي .

وتأريخ الحياة الإجتماعية ، التي هي موضوع هذا الجزء ، من الخصائص التي يكاد ينفرد الجبرتي بالعناية بها . وعنايته بها كبيرة ، كما وكيفا ، وهي من الليزات البارزة التي تجعل لتأريخه أهمية خاصة فريدة .

وقد أدرج مؤرخوا الفكر العربي من الأوربيين ، أهمية هذه الناحية التي يكاد ينفرد بها الجبرتي . فقالت دائرة المعارف الإسلامية « إن هذا التأريخ ، له أهمية إجتماعية كبيرة ، لأنه صورة مفصلة عن حياة الشرقيين . وقد أفاد منه لين وهو يعلق على الطبعة التي أخرجها من ألف ليلة وليلة » .

ومع أن تاريخ الجبرتي هو مادة هذا الكتاب ، وأساس هذه الدراسات . فقد استعنت بمصادر أخرى كثيرة ، أكملت بها ما وجدت أن الجبرتي قصر فيه ، أو وقفت بها ما لم يوفه ، أو أضفت منها فائدة جديدة . وترى ثبثاً بهذه المراجع ، في الجزء الأخير من هذا الكتاب .

ويجد القارى لتأريخ الجبرتي ، وللتأريخ العربي على العموم ، قبل عدة قرون من هذه الفترة ، يجد كثيراً من الأسماء والمصطلحات ، كانت معروفة لأهلها ، متداولة بينهم . وهي أثر من آثار غلبة غير العرب على الحكم والسلطان في البلاد الإسلامية ، ولكن هذه الأسماء والمصطلحات ، لا تمكن معرفتها الآن ، إلا بالرجوع لفظان وجودها وتفسيرها . ويجد القارى تفسيراً لها في مواضعها من الكتاب .

واعتقد أننا لن نستطيع فهم حاضرنا ، وإدراك المواقف والعوامل ، التي تسيطر عليه وتوجهه . وكذلك لن نستطيع أن نضع المنهج السليم ، الناجح ، المستقيم ، لمستقبلنا القريب والبعيد ، إلا على أساس من التأمل الدقيق ، والإدراك الشامل ، والفهم العميق ، لهذه الفترة القريبة من تاريخنا ، التي أرجو أن أكون قد وفقت في دراستها إلى شيء .

محمد الشرفاوى

ربيع الثاني ١٣٧٤  
ديسمبر ١٩٥٤

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

## الفصل الأول

عبد الرحمن الجبرني : —

أسرته وحياته ومؤلفاته





## أسرته

ينتسب الجبرتي وأسرته إلى « جبرت » وهي إقليم الزيلع الاسلامي في شمال بلاد الحبشة . وقد كتب الجبرتي ، عند الكلام على وفاة والده ، فصلاً عن وطنه وصفات أهله ، وما فهم من الحنق والقطانة ، ولطافة الطباع ، وصفاء القلوب ، وما عند نسائهم من الصباحة ، والملاحة والفصاحة ، والسباحة ، وذكر في نساء وطنه شعراً لطيفاً<sup>(١)</sup> .

زح الجد السابع للجبرتي ، واسمه عبد الرحمن ، من جبرت إلى جدة في أوائل القرن العاشر ، ثم إلى مكة فجاور بها ، وحج مراراً ، ثم جاور بالمدينة سنتين ، ولقي من بالحرمين من كبار الشيوخ . ثم ارتحل إلى مصر واستقر بها وزوج وولده وكبر شأنه ، واتصل بالعلماء حتى اختير شيخاً لرواق الجبرت . وقد ظلت مشيخة الرواق ثلاثة قرون يتولاها أولاد الشيخ عبد الرحمن هذا حتى انتقلت عنهم ب وفاة الجبرتي . وتزوج الجد الخامس للجبرتي ، الشيخ علي ، زينب بنت الإمام القاضي عبدالرحمن الجوزي ، فلما مات تركت لولدى الشيخ «أما كن جارية» وقفها عليهما .

ومات أبو حسن ، والد الجبرتي ، وعمره ست عشرة سنة ، وعمر ولده شهر واحد ، فكفلته جدته أم أبيه ، وتولت أمه تربيته ، وجعل وصياً عليه الشيخ محمد الفشقي الذي اختاره شيخاً للرواق كأسلافه . وكانت ولادة الشيخ حسن في سنة ١١١٠ هـ ( ١٦٩٨ م ) وللشيخ محمد النشري ، وكان شيخاً للأزهر ، كثير من الفضل في تربية حسن الجبرتي ، وكذلك لجدته لأبيه أكبر الفضل في تهيته سبيله إلى تلك السكينة الممتازة التي بلغ إليها . فقد كانت سيدة ذات ثراء ، لها بيت يشرف على النيل بربع الخرنوب . أقام معها فيه حسن فترة من الزمن يغدو منه ويروح إلى الجامع الأزهر ومعه خادم . ثم احترق هذا المنزل واحترقت معه « أشياء كثيرة من التاع والصيني القديم » .

وانتقلت الجدة إلى مصر ، وكان يذهب معها إلى مكان لها بمصر العتيقة في أيام النيل « بقصد الزهرة » وهي التي أعانتها على طلب العلم ، وأنفقت عليه بسخاء . وكانت لها أملاك وعقارات وقفت عليه منها وكالة بالصادقية وما حوّلها من الحوائث ، وأخرى بالغورية ومرجوش ومنزلاً بجوار المدرسة الاقبائية . ووقفت أيضاً على وجوه البر .

وتزوجت جدته هذه بعد وفاة زوجها ، بالأمر على أغا الطوري ، وكان حاكماً على قلاع الطور والسويس والمويلح ، وكذلك تزوج الشيخ حسن ابنة الأمير على أغا هذا .

ولما مات على أغا نصب الشيخ حسن مكانه في حكم هذه القلاع ، وكان هذا العمل غريباً عليه ، وهو من العلماء ، ولذلك لم يطل شمله له ، فقد أرسل خادماً له يسمى سليماناً الحصافي مشرفاً على قلعة مويلح فقتل هناك ، فشكرو الشيخ وترك هذا العمل وأقبل على الاشتغال بالعلم والتفرغ له . وماتت زوجته ، بنت على أغا ، فتزوج بنت رمضان جلبي بن يوسف المعروف بالحشاب ، « وم بيت مجد وثروة ببولاق ، ولهم أملاك وعقارات وأوقاف » وكان رمضان جلبي هذا ، مع ثروته ، « إنساناً حسناً رقيق الحاشية » يقول الشعر ويقتني الكتب .

ومات رمضان جلبي في سنة ١١٣٩ ، وبقيت ابنته في عصمة الشيخ حسن حتى ماتت سنة ١١٨٢ عن ستين سنة ، وكانت بنت رمضان جلبي هذه زوجاً بارة بوالد الجبرتي مطيعة له ، تشتري له الجوارى الحسان ، من مالها ، وتربهن بالحلي والملايس ، وتقدمهن إليه ، وتعتقد أن في ذلك مشوبة لها ، وكان يتزوج عليها كثيراً من الحرائر ، ويشترى الجوارى ، فلا تتأثر بذلك ، ولا تتحرك عندها الغيرة .

وقد روى الجبرتي عن زوج أبيه هذه قصة غريبة ، خلاستها أن زوجها عند ما حج في سنة ١١٥٦ اجتمع به في مكة شيخ اسمه عمر الحلبي ، وأوصاه بشراء جارية بيضاء دون البلوغ ، وذكر له أوصافاً يرغبها ، فلما جاء الشيخ حسن من الحج ظل يبحث عن طلب صديقه حتى لقيه ، فلما اشترى الجارية وأدخلها عند زوجته وحان موعد رحيلها للشيخ عمر الحلبي ، قالت زوج الشيخ له إني أحببت

هذه الحارية ولا أقدر على مراقبها ، وليس لى أولاد ، وقد جعلتها مثل ابنتى ، وبكت الحارية أبناً ، ثم دفعت الزوج ثمن الحارية ليشتري به أخرى للشيخ الحلبي ثم أعتقت الحارية وعقدت لزوجها عليها ، وجهزتها وفرشت لها مكاناً مستقلاً وكانت لا تقدر على مراقبها ساعة . وولدت الحارية لزوجها أولاداً فزاد حب سيدتها لها . وبقيت هذه الحارية زوجاً للشيخ حسن من سنة ١١٦٥ إلى أن مرضت فى سنة ١١٨٢ فمرضت سيدتها لمصرها ، وتمثل عليهما المرض ، وقامت الحارية تنظر إلى مولاتها وهى فى عيوبة ودعت الله أن تموت قبلها ، واستيقظت السيدة فى آخر الليل ووصت يدها على جسد حاريتها وضررتها الناعمة بحوارها وأخذت تناديهما باسمها زليخا ، زليخا ، فقالوا لها إنها ناعمة ، فقالت إن قلبى يتحدثنى أنها ماتت . فلما تحقق لها ذلك جالت تبكى أحر بكاء . ثم استلقت على فراشها وماتت بعد جارتها بيوم واحد . ويقول الجبرتنى ، « وهذا من أعجب ما شاهدته ورأته ووعيته ، وكان سنى إذ ذاك أربع عشرة سنة »

### والله الجبرتنى :

وكان الشيخ حسن الجبرتنى عالماً من أكرام علماء عصره فى العلوم الشرعية والرياضة تعلم الخط ، فأجاده ، والنقش على قصوص الخاتم ، فأحكمه ، وتعلم اللغة التركية وهى لغة أهل السيادة والحكم واللغة الفارسية فأجادهما ، « حتى أن كثيراً من الأعاجم والأتراك يتمددون أن أصله من بلادهم ، لمصاحبه فى التكلم بلسانهم ولعنتهم » ثم اشتغل بالعلوم الرياضية فأتقن منها الفلك ، والمهندسة ، والحساب ، والجغرافيا ، والساحة ، والأوقاف ، وحل الرموز ، وفتح الكنوز ، و « انتهت إليه الرياسة فى الصناعة ، وأذعنت له أهل المعرفة بالطاعة » وزل القاهرة عالم متضلع فى الرياضة والحكمة والفلسفة ، اسمه الشيخ حسام الدين الهندى واستقر فى مسجد بمصر القديمة ، فقصده الشيخ وأعجب كلامها بصاحبه وإواحيه ، فلم يزل بالشيخ الهندى حتى نقله إلى داره وأفرد له مكاناً وأكرم زله وأنفق عليه . وظل مقيماً عنده حتى رحل إلى بلاده .

وأحد معارف الصوفية ، على الشيخ العارف عبد الخالق بن وفاة ، وكانت له فيها قسم ، وسلك طريق السادة النقشبندية ، وحفظ القرآن في العاشرة .

وقد تلقى الشيخ حسن عن كبار الشيوخ في عصره ، في مصر وغيرها ، فمن شيوخه الشيخ علي الصمدي ، وعلي أفندي الداعستاني ، والشيخ عبد ربه سليمان بن أحمد القشتالي القاسي ، والشيخ عبد اللطيف الشامي ، والشيخ عمر الحلبي ، والشيخ حسين عبد الشكور المكي ، وحسن أفندي قطعة مسكين ، والشيخ مصطفى المبدروسي ، والشيخ محمد البنوفري ، وغيرهم كثير . وكان أول شيوخه وهو في الثالثة عشرة ، الشيخ حسن الشرنمالي الصغير . وكذلك تلقى عن الشيخ كبار العلماء طبقة بعد طبقة . ف منهم الشيخ أحمد الراشدي ، والشيخ إبراهيم الحلبي والشيخ أحمد المروسي . والشيخ محمد الصبان ، والشيخ محمد الأمير . والشيخ محمد النفراوي . وتلقى عنه عدد كبير من أهل الروم والشام والمغرب والجزائر والداغستان . وتلقى عنه بعض أمراء الممالك أيضاً علوم الأدب والفقه ، فقد ذكر الجبرتي في ترجمة عثمان بك ذو الفقار أنه « قرأ على الشيخ الوالد تحفة الملوك في المذهب ، والمقامات الحريية ، وكتبها له بخطه الحسن في حسين حزماء » .

(وكان والد الجبرتي يدرس في الأزهر علوم الحكمة والهيئة والمهندسة والتوقيت) ، وهو آخر من درسها فيه . وكانت له ثلاثة بيوت يتنقل فيها . بيت في الأبرارية ، على شاطئ النيل ، وبيت في بولاق ، وآخر بالصناديقية ، بحوار الأزهر فكان طلابه وتلاميذه يقصدون إليه في بيته لتلقي الدرس ، وكان يفضل أن يكون ذلك بيت الصناديقية كيلا يشق عليهم ، وكان بعض تلامذته هؤلاء يقيم في بيته طامعاً كاسياً ليتعلم ويراجع ما يشاء في مكتبة الشيخ العامرة ، التي حصنها مساحة ميسرة لمن يشاء القراءة والمراجعة والاستفادة . وكان ألحق هؤلاء به الشيخ محمد النفراوي ، والشيخ محمد الصبان ، فقد كانا بمنزلة أولاده لا بعارقاه إلا وقت لقاء دروسهما . وكان إذا أتاه طالب فرح به ، وأقبل عليه ، ورعبه في طلب العلم ، وأكرمه ، وخصوصاً إذا كان عربياً ، وربما دعاه للإقامة عنده . كما فعل مع الشيخ حسام الدين الهندي ، وكما فعل مع الشيخ محمد الغلاني السكتوي الذي قدم إلى

مصر ثم إلى الحجاز ، فلما عاد منه أثر له عنده هو وروجه وعبيده وجواريه . وبقي مقبياً عنده حتى أتم غالب مؤلفاته ، ومات وهو ضيف عليه ، ومن التلاميذ من أقام في بيت الشيخ الجبرتي عشرين عاماً « لا يتكلف إلى شيء من أمر معاشه ، حتى غسل ثيابه ، من غير ملل ولا ضجر » وصار من حملة عيال الشيخ .

وكان الشيخ كذلك كبير القدر ، جليل المسكنة ، واسع الثراء ، طيب العيش . له في كل بيت من بيوته الثلاثة ، الماليك ، والعبيد ، والجواري البيض والسود ، وهو يتنقل بين هذه البيوت ، ومعه تلامذته وأصحابه . لياسط أحصاء منهم وبمازحهم ، فلم يكن ، كعص العلماء ، متمتعاً مترمناً ، يروح عن جلسائه من هؤلاء الخاصة بالناسبات والنوادر والأديبات والشعر والمواليا والجواريات والخطابات اللطيفة والساكنات الظرفية ، ويذهب معهم إلى مواطن الترفه . يشتغلون بالعلم ومطارحة المسائل ، وأحياناً بالباسطة والمفاكية . وكان مع ذلك ، وفوراً محتشماً ، مهيباً محبوباً لا يماذى ولا يخاصم ، ولا يشتغل بأمور الدنيا ، متواضعاً قنوعاً ، مقبلاً على الكبير والصغير على سجيته ، ولا يدعى علماً ولا مشيخة ، ولا يرضى أن تقبل يده ، حتى من تلاميذه . له منزلة كبيرة عند الأمراء والولاة والأعيان ، يزورهم ويرونه ، ويتشفع به إليهم الناس فتقضى حاجاتهم . وكان من أصدقائه من ولاة مصر ، على باشا الحكيم ، وراغب باشا ، وأحمد باشا كور — أى الأعور — ومن أمراء الماليك عثمان بك ذو الفقار ، حج معه ثلاث مرات من ماله الخاص ، ولم يقبل من عثمان بك ، وكان أميراً على الحج ، سوى الهدايا .

وأراد الأمير إبراهيم كتنخدا أن يشتري له داراً واسعة أو يبنها ، بدلاً من داره التي بالمصادقية ، فلم يقبل ، وكذلك عبد الرحمن كتنخدا . ولم يستطع أحدهما أن يجبره على ذلك لمساكنته وفضله . وراسله سلطان تركيا ، السلطان مصطفى ،<sup>(١)</sup> وأرسل إليه الهدايا والصلات والكتب . وكانت لهذا السلطان معرفة وعناية بعلوم الرياضة والنجوم . وكذلك أهديت للشيخ الهدايا من ولاة تونس ، والحجاز ، وأكابر السولة في تركيا . يذكر الجبرتي ، في حوادث شهر شوال من سنة ١١٨٢

(١) تولى اساطرة سنة ١١٧١ ومات في سنة ١١٨٧ [ ١٧٥٧ — ١٧٧٣ م ] .

أن على بك الكبير أرسل هدية حافلة وخيولاً مصرية ، إلى السلطان ورجال الدولة ، وكتب مع هديته رسائل « والتمس من الشيخ الوالد أن يكتب له أيضاً مكاتبات ، لما يستفده من قبول كلامه وإشارته عندهم » وقد طلب على بك في رسائله تلك عزل عثمان بك العظم من ولاية الشام . وكان على بك الكبير صديقاً للشيخ ، كبير الثقة فيه ، كثير المحبة له .

وفي ترجمة الأمير أحمد البارودي — وفيات سنة ١١٨٨ — أنه كان يرور الشيخ حسن الجبرتي في بيته كل يوم جمعة ، وأنه التقى به مرة في الطريق ، وهو راكب في أبيته ، والشيخ راكب على بغلته ، فمداً ما رآه نزل عن جواده ، وقبل يده ، فأكرام الشيخ ذلك واستحى منه واستعظمه . والتمس من الأمير أن يقيد به بعض الطلبة لبقائه شيئاً من الفقه والدين ، فقيد به الشيخ عبد الرحمن العريشي ، الذي تولى مشيخة الأزهر فيما بعد .

وكان الشيخ حسن عملاً للكتب جماعاً لها ، يندل في اقتنائها المال الكبير ، فكافت داره عامرة بالكتب النادرة وبعضها باللغة التركية والفارسية ، مثل الشاهنامه وتواريخ المعجم ،<sup>(١)</sup> وفيها آلات فلكية وهندسية ، وأفراد في بيته مكاناً خاصاً جمع فيه الكتب المتداولة بين علماء عصره في الفقه ، والحديث والتفسير والتوحيد والنطق واللغة وغيرها ، فكان العلماء والطلاب يجيئون هذا المكان ويأخذون ما يشاؤون من الكتب بغير استئذان ، وكان منهم من يأخذ الكتاب ولا يردده ، ومنهم من يأخذ كتاباً ويرد غيره ، والشيخ سمح لا يمنع . وكانت عنده أيضاً « التشاويه والتصاوير البديعة المصنعة ، الغريبة الشكل . وكذلك الآلات الفلكية من الكرات النحاس ، وآلات الإرتفاع والآلات الأرساد والأسطرلابات والأرباع والعدد الهندسية ، وأدوات غالب الصناعات ، مثل النجارين والحراطين والحديد والسمكرية والمجلدين والنقاشين والصاغة والرسمين » ، وكان يجمع الحاذقين من أهل هذه الصناعات عنده ليتعلم منهم ، ويعلمهم ، حتى تعلم خدمة بعض هذه

(١) كان في خزنة كنهه كتب رجب الراصد السمرقندي « اللغة الفارسية ، وكان يقول إنه يس في الدسام هذا الريح سوى ثلاث نسخ ، ولسخته مكتوب عليها بخط رسم شاه أنها شربت لغار سلطنة هراة ثمانى عشر ألف دينار .

الصناعات مصاروا « يقطعون الملائم بالناشير ويمسحونه بالمصاح الحديد والمبارد ، ويهيسون اعتداله بالمسطر والقياسات بالبيا كير ويرسمونه أيضاً » .

ونسا كثر عنده الراعون في تعلم هذه الصناعات حمل لهم معلمين يعلمونهم ، كان الطالب من أساء العرب يتقيد بالشيخ محمد النفراوى ، وإن كان من الأعاجم فقيده محمود أغندى الميش . وانصرف هو بعد ذلك إلى دراسة الفقه والفتوى ، وكان إماماً في مذهب أتى حنيفة ، وقد رسم بنفسه كثيراً من المنحرفات والمزاويل على الرحام والملائم ونصبها في مساجد كثيرة كالأهر ، والامام الشافعى ، وقوسون والأشربة ، والسادات .

وتجاوزت شهرة الجبرنى حدود مصر والبلاد الإسلامية ، فحضر إليه طلاب من الأفرنج في سنة ١١٥٩ — ليتعلموا عنده علم الهندسة ، وأعدوا إليه من صلتهم وآلاتهم أشياء نفيسة ثم « ذهبوا إلى بلادهم ، ونشروا بها ذلك العلم ، وأخرجوه من القوة إلى العمل » وضعوا به طواحين الهواء ، وآلات جر الأثقال واستسباط المياه .

واشتغل الشيخ حسن الجبرنى أيضاً بعلوم الطب ، وكان يضع خبرته في ذلك لخير الناس وسعهم ، كان الشيخ إبراهيم الصيحاتى الغزى ، مفتى الحنفية في غزة ، من تلاميذه في الأهر . فلما عاد إلى بلاده كان يرسل إلى شيخه في كل سنة « جابيا من اللوز المر في عبق ، مقدار عشرين رطلا ، فمخرج منه دهنه ورفعه في الزجاج لنفع الناس في الدهن ومعالجات بعض الأمراض والجروحات » .

وفي سنة ١١٧٢ كان فساد الوارين قد أصبح مشكلة كبرى للناس وللحكام في مصر ، فاشتغل الشيخ بإصلاحها وأحضر الصناع لذلك من الحدادين والسماكين وحرر الثقائل الصنح ورسمها على أصولها وهندستها .

وأنفق في ذلك أموالاً من عنده ، ثم أحضر كبار القباية والورّابين وعرضهم طريق الصواب ، وأصلحوا آلتهم ، واستمر العمل في ذلك أشهراً ، ثم ألف لهم في ذلك كتاباً سماه « الدر الثمين في علم الوارين » .

وكان الشيخ أيضاً بقول الشعر . وقد أورد الجبرنى من شعر أبيه شيئاً غلباً

بعضه في النحو ، وبعضه في ذكر من يدخل الجنة من الحيوان ، كغنافة صالح ، ومجمل إبراهيم ، والحوت والبقرة وغيرها ، ومنه شعر في نظم ساعت النهار ، وبعض نصاب طيبة . وكله شعر نافه ثقيل ، كسعر العقهاء .

أما مؤلفاته ، التي دونها الله عبد الرحمن ، فهي تدل على ثقافته المتنوعة المختلفة ، فمن ذلك كتبه : رهة العين في زكاة المعدنين ، والأقوال المعربة عن أحوال الأسمية ، وكشف اللثام عن وجوه محدرات النصف الأول من دوى الأرحم ، كادخ الآمال في كيفية الاستقبال ، ومؤلفات أخرى في العروض ، وشرح أسرار المختار ، ومناصك الحج ، وتبييدات على المعاصم والحفيد والمطول والموقف والمداية ، وحاشية على شرح قاضي راده على الجعفي ، وبراهين هندسية شتى ، وغير ذلك .

ومع هذه المسكاة المرموقة ، التي ملأها حسن الجبري ، وما كان له من جاه ومجد وعلم ، فقد كان متواضعاً ، « يجلس في آخر المجلس على أي هيئة كان ، بهمة أو بدونها ويلبس أي لباس ، ويتحزم ولو نكنار الجوخ ، أو خرقة أو شال كشميري ، ولا ينام على فراش ممد ، بل كيفما اتفق ، وكان أكثر نومه وهو جالس » ، وكان شجاعاً لا يحب الرياء ، يصوم رجب وشعبان ورمضان ولا يقول إنه صائم . أراد الأمير يوسف الكبير أن يدخل مسجداً في عمارة بيته وسأل الشيخ أن يمتيه بهدمه وبناءه في مكان آخر ، فثمنه من ذلك فامتنع . وكانت له في العلم والفتيا مكانة كبيرة . فاسك عليه الناس يستفتونه ، وتقرر في أدهانهم بحرية الحق . حتى أن القضاة لا يثقون إلا بفتواه . وكان كريماً صريح النفس ، بكرم الضيف ، ويتلقف الواعد ، ويراعى الأقارب والأحباب بشوشاً ، يخدم جلالة نفسه .

قدم مصر الشيخ إبراهيم بن أبي البركات العباسي المشهور بالسويدي ، في سنة ١١٧٥ ، فأنزله الشيخ في بيته ، وصار يتقل معه ومع تلاميذه إلى بولاق وغيرها من المنزهات . ثم حل بالسويدي مرض فأنزله بيته في بولاق على البيل وقيد ، لخدمته جماعة من عبيده . فكان كلما احتل بنفسه ، وهبت عليه نوبات انبيل للنعشة ، أخذ القلم ونقش على حدران البيت وأحشابه قصائد المدح في مصيصة العالم الكريم ، وفي وصف النيل ورياضه وزهوره فكتب من ذلك عشرين قصيدة ، ظلت منقوشة



في أماكنها رمزاً ثم اندوست

وكان الشيخ محمد النفراوى قد بلغ النهاية في العلوم الشرعية ، وأرد أن يتم الحكمة والرياضة ، فأحضره والده للشيخ حسن في سنة ١١٧١ هـ فحسبه واغتبط بما رأى من حسن استمداده ، وأعطاه مفتاح خزانه منزله ليضع فيها كتبه ومناعه واشترى له حماراً ، ورتب له مصروفاً وكسوة . وأرسل الشيخ أحمد الدمنهورى حجة أسئلة إلى علي بك الكبير وقال له : سل فيها العلماء الذين يترددون عليك إن كانوا يزعمون أنهم علماء ، فأعطاه علي بك للشيخ حسن . فكان لقا حكيماً مترفعاً حيث قال إنها وإن كانت من عويصات المسائل يجيب عنها ولذا الشيخ محمد النفراوى . فمكن ، مع لباقتة وحكمته وترفعه ، لتلميذه أن يبال شهرة ومكانة بين العلماء ، وعند علي بك .

وكانت تقال في الشيخ المدائح ، فكان ، تواضعاً منه ، يقبلها ويحجز قائماً ، ثم يمزقها . وكان ، مع ثرائه العريض ، وما بلغ من مكانة في العلم ، وفي الحياة ، يشغل بالتجارة .

وهكذا عاش والد الجبرتي إلى أن حاصت سنة ١١٧٩ فتوفي ابنه . أبو الملاح علي ، أخو الجبرتي لأبيه ، وكانت عمره إثني عشرة سنة ، وكان الشيخ قد أنجب من زواجه وسرايه أكثر من أربعين مولوداً لم يعيش منهم سوى علي هذا . وعبد الرحمن ، فلما مات ابنه علي ثقل عليه الحزن ، وتوالت عليه الآلام والأمراض ، وترك بيوته على النبل ولزم بيت الصناديق ، وقلت حركته ، ولكنه لم يتقطع عن الأملاء والأفادة والتحقيق ، ولم يزل كذلك حتى تملل بالهيفضة الصفراوية إثني عشر يوماً ، ثم مات عن سبع وسبعين سنة في يوم الثلاثاء غرة صفر من سنة ١١٨٨ — أبريل سنة ١٧٧٤ — وصلى عليه في الأزهر بمشهد حفل جداً ، ودفن عند أسلامه بترعة الصحراء ، بجوار الشمس البائلي ، والخطيب الشريبي ، ومات فيه المراتي الكثيرة من كبار شعراء المصر .

ذلك هو ، أبو التداني ، نور الدين حس الجبرتي ، أبو عبد الرحمن

## عبد الرحمن الجبرتي :

أما ابنه ، أبو المزم عبد الرحمن ، صاحب عجائب الآثار ، فقد ولدته إحدى المراري في سنة ١١٦٧ هـ « ١٧٥٤ م » بالقاهرة ، ولم أعرف أن التاريخ ذكر لنا عن هذه الجارية شيئاً ، هل كانت بيضاء أم سوداء ، ومن أي جنس أو بلد هي ، ولكنني أعتقد أنها كانت بيضاء .

أرسله أبوه ، وهو طفل إلى مدرسة السناية ، القرية من منزلهم بالصنادقية ، ليحفظ فيها القرآن . فإذا عاد تلقى على أبيه وعلى بعض الشيوخ الذين يترددون على بيته . بعض العلوم . وأتم حفظ القرآن الكريم في سن الحادية عشرة ، ثم رغب الشيخ عبد الرحمن العريشي إلى أبيه أن يلحقه برواق الشوام ، ليلقنه مذهب الحنفية ، فسلمه إليه .

وبادر أبوه عزوجه ، وهو في الرابعة عشر ، في سنة ١١٨٢ ، ولم يذكر لنا التاريخ أبصاً عن هذه الزوج شيئاً ، وقد سجل شاعر العصر الشيخ عبد الله الأدكاوي هذه الزيجة قصيدة قدمها إلى والد الجبرتي قال في ختامها بيت تاريخها : —

هذا هنا عجبك الـ داعي لكم بسمو قدرك  
والحال قد أرخته شمس البها زفت لبدرك

وشر عبد الرحمن يتردد على حلقات الشيوخ في الأزهر بعد ذلك ، ثم يعضي إلى بيته فيلتقاه أبوه متحدثاً إليه في التاريخ وأحداث عصره ، فقد كان أبوه عباً للقصص ، والأغاني ، ودارساً معه ما يشتغل به الشيخ من علوم الفلك والرياضة والحكمة . وكذلك كان روار الشيخ من كبار العلماء والشعراء والأمرء يلقيهم الجبرتي الصغير يتحدثون إليه ويحدثهم ، ويفيد من علمهم وأدبهم وحسن توجيههم . وتتمكن العلاقات بينه وبين الأمرء منهم خاصة .

وبقي حاله كذلك حتى مات أبوه . وهو في سن الثانية والعشرين ، وورثه ثروة ضخمة ، مادية وأدبية . ترك له من الثروة المادية بيوت في بولاق والصنادقية ومصر القديمة ، وأرضاً له بالقرب من كفر الزيات في بلدة « إبار » وأوقافاً كبيرة على مسجد بن رشيد والأمسكندرية ، على بحيرة إدكو ، تنظر عليها بعد أبيه ، كان

أوقفها جده عليّ في أيام الملك الأشرف قايتباي ، وكان الملك الأشرف يستعدي هذا الجهد اعتقاداً كبيراً . وكذلك كان الجبرتي شيخاً على مقبرة الطحاوي بالقرافة .

وكان هذا الوقف « عدة أما كن وقيمان ، وأنوال حياكة ، وساتين ، وعجين كثيرة » . وكان بيته على النيل يرتفع عن مستوى الماء عشرين درجة ، وذكر الجبرتي أنه أجرى عمارة في بيت الصناديق ، بدأها في سنة ١١٩١ وأتمها في السنة الثانية . وأنشأ الشيخ مصطفى الصاوي في ذلك فسيحة نقشها الجبرتي في مجلسه من البيت .

وقد جعل الجبرتي من بيته ذاك ، بهذه المارة ، قصرأ أنيقاً ، فيه حديقة صغيرة ، وبئر ، ومساكن للخدم والعبيد ، وأخرى للضيوف ، وحجرة متسعة للمذاكرة مع الطلبة ، والتدريس ، وأقام فيه أعمدة من الرخام المختلف الألوان ، نقش جدرانها بالخشب المحفور ، والقيشاني الملون ، ونثر في حجراته الآيات الفاخرة ، والأرائك الثمينة ، وفرش أرضها بالسجاجيد الفالية والطارايخ الحريرية ، ولبس أبوابه بالصدف والنحاس البراق ، وعلق الثريات من البلور ، وحمل فيه حجرة راحة للكتب ، وأنفق في هذه المارة مالا كثيراً .

وسكن الجبرتي ، فترة من الزمن ، في بيت يطل على بركة الرطلي . وكانت ، كما يقول ، « يسكنها أهل الرفاهية من أهل البلد ، لطيب هوائها وانكشاف المريح البحري ، وليس في برها الآخر سوى الأشجار والزرايع ، وتثمرها المراكب والسفائن »

أما الثروة الأدبية التي خلفها له أبوه ، فهي تلك المسكاة المرموقة ، والهبة التي ربطت بينه وبين علماء عصره وأهل الحكم والثراء فيه ، وذلك الجهد الأدبي والعلمي الذي صار إليه اسم الجبرتي ، واسم آبائه وأحداه من قبل ، وتلك السكّنور العظيمة النادرة من الكتب ، التي أنفق أبوه في جمعها مالا عظيماً وجهداً عظيماً .

بق الجبّرى ، بعد وفاة أبيه ، متصلاً بالأزهر وشيوخه ، يحضر دروسهم فيه وزوروه في بيته كما كانوا يزورون أباه من قبل ، باحثين مدارسين ، فلما كبر الجبّرى وأجازته شيوخه أخذ يلقى دروساً في الأزهر وفي بعض المساحد ، وفي بيته .

وقدم مصر ، في السنة التي ولد فيها الجبّرى ، عالم كبير من النحّين ، هو السيد مرتضى الزبيدي ، صاحب تاج المروس ، فلما تعرف إليه الجبّرى فيما بعد ، أعجب به ولارمه وصادقه ، وأصبح من المواظبين على دروسه مع طائفة كبيرة من إخوانه . الذين تنوؤا ، فيما بعد ، مكان الصدادة العلمية والأدبية في مصر ، فدرس لهم الزبيدي «صحيح تملب» ، وفتح اللغة للشمالي ، وأدب الكاتب لابن قتيبة ، وسمعوا كثيراً من شرحه للقاموس ، كما سمعوا في الأمالي والشمائل . ودرس الجبّرى علوم الفقه ، ثم مال ميل أبيه للدراسة الفلك والحساب والهندسة . ومال إلى التصوف ، وكان من مريدي الشيخ محمود الكردي رافقة في ذلك الشيخ عبد الله الشرفاوى . ودرس الطب وألف فيه

وفي أواخر سنة ١١٩٥ تزوج الجبّرى مرة أخرى ، ولم يقل لنا أين ذهب روحه الأولى ، تزوج ربيبة صديقه على عبد الله درويش الرومى ، برغبة منه . وكان الرومى هذا رجلاً يعمل عند المالك ، « حسن السمّت » ، نظيف الثياب ، وجبه الطلعة ، مهيب الشكل ، سليم الطوية ، مقبول الروحانية ، يف على التسمين ولم يسقط له سن ، ويكسر اللوزة بأسنانه « وكان مثقفاً غرير الأملّاح ، وربيبة على الرومى هذه هي التي أنجبت للجبّرى ولده خليلاً ، ومات صهره هذا في سنة ١١٩٩ هـ وظل الجبّرى يفيد ويستفيد ، ويأثر شتونه الخاصة ، ويراجع في مكتبة أبيه الحافلة ، حتى جاءت الحملة الفرنسية إلى مصر ، في صفر من سنة ١٢١٣ هـ ١٧٩٨م فترك القاهرة إلى مزرعته في « إيبار » ثم عاد إليها بعد قليل ، عندما أرسل العلماء ، بأشارة نابليون ، إليه وإلى غيره ممن هاجروا ، ليعودوا . ولما ألف الجبّرى منو ، قائد الجيش الفرنسى بمد بابلون ، الديوان الثالث . اختير الجبّرى عضواً فيه ، وكان أعضاؤه تسعة . ولما دخل العثمانيون القاهرة بقيادة يوسف باشا ، لأخلائها من

الفرنسيين ، وأحد هؤلاء بعض كبار الشيوخ من أعضاء الديوان رهائن ، بقى الجبرتي . والبهكري ، والسرسي والأمير ، أحراراً ، وأمرهم الفرنسيون بأن « يكون نظرم على البلد » أي يكون لهم الإشراف على شئون القاهرة .

وبعد انتهاء الحملة الفرنسية على مصر ، ودحولها مرة أخرى في حكم الدولة العثمانية . دون حوادث هذه الفترة في كتاب سماه « مظهر التقديس بذهاب دولة الفرنسيين » ، وكان له من مكانته إذ ذاك ، وعضويته للديوان ، ومن علاقته الخاصة ، وصداقته الوطنية للشيخ إسماعيل الخشاب ، كاتم أسرار الديوان ، ما يمكنه من معرفة دقائق الأسرار . وقد أهدى كتابه مظهر التقديس هذا إلى الوزير يوسف باشا ، ولما عاد إلى اسطنبول عرضه على السلطان سليم الثالث ، فأمر كبير أطبائه مصطفى بهجت بنقله إلى اللنة التركية ، ففرغ من ذلك سنة ١٢٢٢ - ١٨٠٧ م ورحه بعد ذلك إلى هذه اللنة أحمد أفندي عاصم سنة ١٨١٠ .

ويبدو مما كتبه الجبرتي في الفصول الأخيرة من كتابه ، أنه كان يشكو الأسقام والمرض . يشير إلى ذلك في آخر حديثه عن سنة ١٢٢٥ حيث يذكر « تشويش البال ، وهم العيال ، وتكدس الحال ، وكثرة الأشتغال ، وضعف البدن ، وصيق العطن » .

ويذكر كثير من المؤرخين ، أن الجبرتي اشتغل في أواخر حياته مؤقتاً للصلاة وهلال رمضان وشوال في بلاط محمد علي ، ولم يذكر هوشيتاً من ذلك في تاريخه ، ومعض المؤرخين يقول إن الذي تولى هذا العمل هو ابنه خليل .

وقد أصيب الجبرتي في آخر حياته بمحنة قاسية ، ففي صباح الثامن والعشرين من رمضان سنة ١٢٣٧ - ١٩ يونيو ١٨٢٢ - كان خليل عائد من قصر محمد علي في شبرا ، بعد صلاة الفجر ، فخرج عليه جماعة أخذوا يضربونه حتى قصوا عليه ، وخنقوه . ثم ربطوه برجل حماره . فلما أصبح الصباح عرفه الناس ، ووجدوا على صدره دثار مكتوبة ، وأسطرلاباً لرصد النجوم والكواكب .

وتناقل الناس ، والمؤرخون من بعدهم ، شائعات عن اشتراك سليمان أغا

السلحدار ، ومحمد بك الدفتردار ، صهر محمد علي ، في هذه المؤامرة ، وعن استئذان الدفتردار لمحمد علي في تدبيرها . وهي شائعات يذكرها المؤرخون ليعندها . وقد وردت في دائرة المعارف الإسلامية على أنها صحيحة ، وأن الذي قتل هو الجبerty نفسه<sup>(١)</sup> .

وقد أصيب الجبerty بموت ابنه على هذه الصورة ، وهو بين الارض والكبر والفتق ، بنزلة شديدة حطمت حياته ، فترك الكتابة والتأليف ، وانقطع عن القراءة ، وألج عليه الحزن ، وأكثر من البكاء ، حتى ذهب بصره . وبقي في داره مريضاً ، حزناً ، أعمى ، حتى مات في سنة ١٢٤١هـ — ١٨٢٥م<sup>(٢)</sup> . وأعقب بنتاً ، عاشت مغمورة من بعده ، وولداً ، أو ولدتين ، على خلاف بين المؤرخين .

وبعد وفاته احترق منزله بالصناديق ، واحترقت معه المكتبة المطبعة الحافلة التي تركها له أبوه ؛ والتي راد عليها هو زيادة كبيرة . ويذكر بعض المؤرخين أن جزءاً من تاريخ الجبerty ، احترق أيضاً . وكان يتضمن حوادث ما بعد سنة ١٢٣٦ ودفن الجبerty مع أبيه ، «ستان العلماء»

### صفاته وأخلاقه :

كان الجبerty ، كما رأينا ، ورث عن أبيه وعن أسرته مالا ومجداً ، وهو مع ذلك متواضع . يذكر فيما سجله من مناقشات أعضاء الديوان أيام نابليون ، أشياء يقول إن « بعض الأعضاء » رد بها على الوكيل فورييه ، ولكن لا ينسب ذلك لنفسه

(١) مادة « الجبerty » ص ٢٧٩ من العدد الثامن ، المجلد السادس من الترجمة العربية وفي مقدمة الترجمة الروسية لعنات الآثار أيضاً أن الذي قتل هو الجبerty نفسه .

(٢) اختلف المؤرخون في تحديد تاريخ وفاته . وأكثرهم على أنها كانت يوم ٢٨ رمضان سنة ١٢٣٧ . ولكن الرحوم جورجى ريديان أثبت — في الجزء الرابع من تاريخ أدبه الخفية لعربييه — أنه عاش إلى نصف ربيع الأول من سنة ١٢٤٠ كما حقق الأستاذ خليل شيراز من طريق آخر — في كتابه « عبد الرحمن الجبerty » — أنه مات في هذا التاريخ الذي ذكرته . وذكر تليده ، الساني والحضرائى ، في ترجمة العكر ، أنه عاش إلى سنة ١٨٢٦

ويكتب عن وطنه بروح الاعتزاز والفخر ، وعن أسرته ، ولكنه يحشى أن ينساق إلى التفاخر فيستدرك قائلاً ، إنه يذكر ذلك « بقصد التبريف بالنسبة » وعند ما ذكر أعضاء الديوان عمى في اسمه فقال « وكتبه » . ولعله فعل ذلك عامداً ليحتاط لنفسه من عصب المصريين أو العثمانيين بعد عودتهم للقاهرة ، وهو إلى ذلك رجل خير ، رقيق العاطفة ، نبيل الخلق . ضاقت الحياة بصهره ، على درويش ، وتمطلت أسبابه ، فنقله وأسرته إلى بيته ، وعاش معه حتى مات ، وتولى دفنه ، وأثنى عليه ثناء كبيراً ، وقال إنه أفاد منه في التراجم التي ضمها كتابه .

وكان عبد الرحمن رجلاً ممتحناً يقدر الجلال ، متأنقاً في حياته ، كان أصدقائه الخالص كالشيخ حسن المطار والشيخ إسماعيل الخشاب يدعونه إلى مجالس التناء . حيث يقول ثانيهما :

ياسبدي وسندي      ويا عريق المتمد  
ياراحتي ، وراحتي      وساعدي ، وعضدي  
أدعوك تأتي مسرعاً      ويا لذاك من يد  
نؤم قصرأ جامعاً      كل المعاني الشرذ  
نصني إلى مزهر من      أحصى هريد البلد

وكان هو يدعوهما أيضاً إلى منزله حيث يقطعان الليل في الحديث والسمو والنادمة . فيجولان في كل فن من الفنون ، « تارة ينشأ كيان تغير الزمان ، وتكدر الإخوان ، وأخرى يترنمان بحسنى الغزلان ، وما وقع لها من صد وهجران ، ووصل وإحسان » ويلاحظ هنا أن الجبرتي يقول : « تارة ينشأ كيان » ، « ويترنمان » ولا يقول : تنشأ كي ، ونترنم ، وكان هذان الصديقان كثيراً ما يبيتان عنده .

وعرف الخشاب فتي فرنسياً جميل الطلعة اسمه ربح ، روى الجبرتي شيئاً من غزله فيه .

ويذكر الجبرتي أنه لقي في طنطا شيخاً اسمه أحمد السهاليجي الشافعي ، كانت له امرأة بارعة الجمال ، وله منها ولد اسمه أحمد « كأنما أفرغ في قالب الجمال ، وأودع ( م — ٢ الجبرتي )

بصبيه السحر الحلال » ثم يذكره بإعجاب فيقول إنه « حضر إلى ، وسلم على ،  
وأنسى بحسن ألفاظه ، وجذبني بسحر أحاطه » . ويقول المحرقى فى ترجمة بعض  
أصدقائه إنه « كان يحب الجلال » ثم يتبع ذلك — وكأنه خشى التهمة — بأنه كان  
لا يترك الصلاة ، أينما كان .

ومما يدل على رقة الماطفة أن المحرقى يمدح صديقه هذا بأنه كان يمر فى الطريق  
يفرق الطعام على الفقراء ، والأطفال و « الكلاب » .

وكانت فيه صفات العالم ، كان يسهر الليل يراعى مطالع النجوم . ولما قامت  
ثورة القاهرة على الفرنسيين ، أتلّف العامة فيما أتلّفوا أجهزة علمية وفلكية ،  
فأبدى شديد أسفه على ذلك ، وندد بجهل العامة وسفههم ، وحزن على فقد هذه  
الأدوات التى لا تقدر بقيمة « عند من يعرف صنعتها » . وعرض عليه رجل  
جزائرى أن يشتري كتاب زيج الراصد السمرقندى ، فأبى أن يبيعه بأى ثمن . ولما  
علم أن الفرنسيين لديهم كتب ذات قيمة ، زار الدار التى حصصوها لذلك ، وأبدى  
إعجابه بها ، وذكر النظام الذى وضعوه لفظالمة فيها ، وبعض الكتب التى رآها .  
وأثنى على نشاطهم العلمى ورعيتهم فى البحث والمعرفة وإخلاصهم .

وكانت فيه شجاعة العالم أيضاً ، فكبار المالك أصدقاءه وأصدقاء أبيه ،  
وكذلك كثير من الولاة والسادة الحاكمين ، وكبار الشيوخ إما أساتذته أو  
أصدقائه ، ومع ذلك لم يصف أحداً منهم من النقد والمؤاخذه ، إذا وجد فى صفاته  
أو سلوكه ما يوجب النقد . وقد ذكر فى مقدمة كتابه أنه لم « يقصد بجمعه خدمة  
ذى جاه كبير ، أو طاعة وريز أو أمير ، ولم يداهن فيه دولة بنفاق ، أو مدح أو ذم  
مباين للأخلاق ، ليل نفسانى ، أو عرض جسمانى » . وقد لازمته هذه الشجاعة فعلا  
فى جميع ما دون من حوادث التاريخ الذى سمعها أو شاهدها . كما التزم أيضاً أدق  
شروط الأمانة العلمية . شأن العلماء ، فهو يدون وثائق الحملة الفرنسية ، والشروط  
التي وضعت بين رجالها ورجال الدولة العلية للانسحاب من مصر ، ثم يقول إنه  
نقل ذلك بحروفه « وما فيه من خطأ أو تحريف فهو طبق الأصل المطبوع بالطبعة  
الفرنساوية باللغة العربية » .



وكذلك حديثه عن جماعة من علماء الآثار الإنجليز زاروا الحرم الأكبر وأبا الهول ، وآثار الفراغة في الصيد . ويؤسّر لهم محمد على أن يأخذوا من آثار مصر أشياء ذات قيمة شروها بثمن بخس ، وأخرجوها من مصر .  
وسيجيء هذا وذلك في موضعه من الكتاب .

وللجرتي ملاحظات تدل على سلامة الفطرة . من ذلك إعجابه بنابليون لأنه سافر من القاهرة إلى السويس « فلم يكن معه طبّاخ ، ولا فراش ، ولا فرش ، ولا حيلة » وكان كل ما أخذه معه « ثلاثة طيور دجاج محمرة ، مدفوفة في ورقة » .  
وهي ملاحظة تدل على حبه للساطة ، وهو عني مقتدر ، وبمده عن المظاهر ومعرفته لأقدار الرجال من تصرفاتهم العادية التي قد يمر بها غيره فلا يستنبط منها شيئاً ، ولا تدله على فضيلة أو خصيصة أو محمّدة .

وكذلك ثناءه على الفرنسيين ، لأنهم لم يكونوا يتجاوزون الرسوم التي مرضوها على الأقضية ، أو رسوم التسجيل . ولأنهم لم يبادروا بقتل سليمان الحلبي ، عند ما اعتال الجبال كبير ، بل حاكوه وسألوه وناقشوه وناقشوا الشهود . وأثنى عليهم لأشياء أخرى كثيرة ستجدها في مكانها . وهذا كله دليل على رجحان عقله ، وسداد تفكيره ، وبمده عن التعمص الضيق . كذلك أثنى على الإنجليز ، عند ما وصف صديقه الألفي بأنه عند ما سافر إلى بلادهم « تهذب أخلاقه ، بما أطلع عليه من عمارة بلادهم ، وحسن سياسة حكّامهم ، وكثرة أموالهم ورفاهيتهم وصناعاتهم ، وعظمت في رعيّتهم — مع كفرهم — بحيث لا يوجد فيهم فقير ، ولا مستجد ، ولا ذوق فاقة ولا محتاج » .

ومن سلامة الفطرة إدراكه الفرق بين العقيدة والعمل . فقد ذكر في سياق حديثه عن دقة رجال الحملة الفرنسية في صرف العملة ، ومقارنة ذلك بما كان يحدث في عير عهدهم هذه الجملة « ... لأن جميع معاملة السكفارسالة من الفس والتقص ، يخلاف معاملات المسلمين » .

وهو رقيق العاطفة . ذكر أن محمداً علياً روج بعض أولاده ، فقدمت لأهم

الهدايا من نساء المالك والسادة ، وكان بعضهم في ضيق من العيش ، فاستدق ليخدم من الهدية ، ولكن السيدة زوج محمد على لم يرق في عينها بعض الهدايا ، وعابت على صاحباتها ذلك في المجلس . وردتها ليقدمن خيراً منها . وقد أقاض الجبرتي في ذكر أنه لما أصاب هؤلاء الدسوة من السكر والحجل ، وكسر الخاطر ، وانكشاف البال ، بعد ما أصابهن وأصاب أزواجهن من قسوة محمد على وطله .

ويدو مما كتبه الجبرتي في مواضع كثيرة متفرقة من كتابه ، أنه كان حر الفكر ، سلفي العقيدة . فهو كثير النقد للبدع ، وما يصاحب موالد الأولياء ، ومدعى الولاية من الفسق والفجور ، والمغالاة في مدحهم والتوسل بهم ، ويقول إن في ذلك خروجاً على الدين ، واتباعاً للشهوات ، وأن الفرنسيين لم يبيعوا إقامتها ويحرصوا عليها ، إلا لهذا السب . ويسجل منشوراً أرسله الوهابيون إلى مصر ، بعد دخولهم مكة ، وفيه خلاصة دعوتهم ، ثم يعقب على ذلك بقوله « إن كان كذلك فهذا ما ندين الله به نحن أيضاً ، وهو خلاصة لباب التوحيد » ثم يذكر بعض أمهات الكتب في مذهب السلف . وفي موضع آخر يقول إن الوهابيين شرطوا على الركب الشامي ألا يحىء إلى الحج بالحمل والبطول ، فعاد الشاميون ولم يحجوا « ولم يتركوا ما كبرهم » . فالحمل وطلوله ، في نظره ، منكر . وهو يلتقي رعاء الوهابيين الذين حلوا بمصر أسرى أو مهاجرين ، ويتمتع إليهم ، ويصادقهم ، ويثنى على كبيرهم عبدالعزيز ، ثناء خاصاً . وتبدو فيما كتبه عن ذلك سلامة العقيدة والإخلاص . وقد يكون لموقفه المتين من محمد على ، دخل في هذا الثناء .

وللجبرتي ، في إحدى صفحات الكتاب نفحة صادقة من الفهم السديد لروح الدين ومن الاشتراكية العاقلة معاً . فهو يذكر ما أحذه الوهابيون من الحجرة النبوية الكريمة عند فرارهم ، من التحف الكريمة ، والجواهر النادرة القيمة الغالية الثمن ، وأن بعض الناس عد ذلك من الكناثر . ثم يقول إن هذه التحف والجواهر « وضعها خفاف العقول من الأغنياء ، والملوك والسلطين الأعاجم وغيرهم ؛ إما حرصاً على الدنيا وكراهة أن يأخذها من يأتي بعدهم ، أو لنوائب الزمان ، فتكون مدرحة ومحفوظة لوقت الاحتياج إليها فيستعان بها على

الجهاد ودفع الأعداء» ثم يقول إن أخذ هذه الذخائر ليس خروجاً على الدين ، بل الخروج عليه هو كثر الأموال بحجرته — أى حجرة النبي — وحرمان الفقراء والمساكين وأهل العلم وأبناء السبيل الذين يموتون جوعاً .

وفي هذه الصفحة ينتقد الجبرتي ، انتقاداً مرأً ، بعض الأحكام الذين يسرفون في أموال المسلمين التي ائتمنوا عليها ، وينفقون النفقات الباهظة في التفاخر والرفهية ، ثم يتعابون على تحصيل المال من رعاياهم بزيادة الكوس والصادرات والاستيلاء على الأموال بغير حق ، حتى افتقر الرعايا .

وهذه النفقة الاشتراكية ، الإنسانية ، هي التي جعلت الجبرتي ، في موضع آخر ، ينشئ على الفرنسيين لأنهم لم يسخروا العمال الذين كانوا يستخدمونهم لتجهيد الطرق في القاهرة ، وإقامة المنشآت العامة ، بل كانوا يريدونهم عن أجرهم المعتاد ويريدونهم بعد الظهور ، ويستعينون بالآلات القريبة المأخذ ، السهلة التناول ، التي تريح العامل وتعينه ، وتقلل من مجهوده ، كعربات نقل الأتربة . وكانت السخرة في أشق الأعمال ، شيئاً مألوفاً في ذلك الوقت . وكان موت الفلاحين والعمال من الجهد والإرهاق شيئاً مألوفاً أيضاً . وسجد في موضع من هذا الكتاب أنهم كانوا يدفنون وفيهم رمق الحياة ، لأنهم عجزوا عن مواصلة العمل وسقطوا من الإعياء .

(ويبدو الجبرتي ، في مواضع أخرى متفرقة من كتابه ، رجلاً سادحاً ، مؤمناً بالسكرامات والخرافات فهو يدكر رجلاً كانت الجن تخدمه وتطعمه فيما يأمر ، ثم يقول إن ذلك «لا يستبعد» . ويترجم لرجل أبله كان يزعم أنه يكشف ما في ضمائر الناس ، ولا يستبعد ذلك أيضاً) وعند ما أمر محمد علي ، وواقفه في ذلك القاضي التركي ، بإجراء الحجر الصحي ، وإقامة «السكرتيلة» احتياطاً من الطاعون ، لاهما الجبرتي على ذلك ، وقال إن ذلك «من جهم للدنيا !» . ويدكر من كرامات سيدي علي البيومي أن الخالس إليه كان «يرى وجهه تارة كالوحتس ، وتارة كالعجل ، وتارة كالنزال» . ولا عرابية في ذلك التناقض الظاهري . فإن

الجبرتي ألف كتابه على فترات متباعدة من الزمن . وكان في بعض ما سجل من هذه الروايات ، متأثراً بالبيئة ، والصحبة ، واعتقاد الجماهير .

وللجبرتي في كتابه تعبيرات تدل على لباقة وحسن أدب وتلطف ، من ذلك تعبيره الطريف عن قاض جديد قدم مصر من إسلامبول سنة ١٢١٦ بأنه « كان له مسيس من العلم » .

أما ذوقه الأدبي فستطيع أن نعرفه من اختياره للشعر ، وثأته على ما يختار . فهو يختار مثلاً لشاعر معاصر ، هو ابن الصلاحى <sup>(١)</sup> هذه الأبيات ، ويثنى عليها : —  
جزى الله أنفاس النسيم فإنها

لتعلم سرا في النفوس لطيفا  
أسرت إلى الأغصان ، عند قدومنا ،

حديثاً ، فمدت لسلام كفوفا  
وهزت ، سروراً بالتداني ، معاطفا

وأهدت لنا منها شدا وقطوفا  
وهو يختار لهذا الشاعر نفسه قصيدة جيدة طويلة ، أولها : —  
بشاً على النائي الغريب حلا من الخبر العجيب  
واستوقف الركبان ما بين الأراكمة والكثيب  
واستنشد القلب الذي قد صاع من بين القلوب  
سلبته ، يوم الدوحية ن ، طليعة الرشا الربيب

والأبيات والقصيدة كلتاها شعر جيد . إذا قارناهما شعر ذلك العصر خاصة . وليس كل ما احتاره الجبرتي ، وخاصة من النثر ، جيداً ، يدل على تدوق للشعر والنثر ، بل فيه شيء غير قليل من التافه والتثقل ، الذي كان ذوق العصر يسيفه ويألفه ويقبل عليه .

---

(١) توفي سنة ١١٨٠ في سن الأربعين ، وترجم له بعدني وأورد ما فيه كبيرة من شعره في المصحات ٢٧٠ — ٢٨٦ من الجزء الأول .

ومع إحاطة الجبرتي بكثير من علوم عصره ، واشتغاله بغير ما كانوا يشتغلون به ، من علوم الحكمة والرياضة ، ومهمة مداركه . فإنه يسمى البحر الأبيض المتوسط « البحر المحيط » .

واشتغل الجبرتي ، مثل أبيه ، بالأمور المأمة ، فأفاد الناس من علمه . فلوارثه التي حررها أبوه ، عند ما فشا فسادها ، وألف فيها كتاباً . اشتغل ابنه بإصلاحها مرة أخرى وتحريرها . ومعرفة بعلم الفلك ، جعلته يستخرج الطالع وحساب النجوم .

وقد ذكر في بدء حديثه عن سنة ١٢٢١ — وهي السنة الأولى من حكم محمد علي — حساباً للنجوم ، وانتقالات الشمس ، وأبراجها ، ومقارناتها ، وحساب الأهلة . ثم قال « وفي ذلك دليل على ثبات دولة القائم ، وتعب الزعية » وقد ثنت فعلاً دولة محمد علي ، وصدق حساب الجبرتي وطالعه في كليهما .

ونستطيع ، بعد ذلك ، أن نعرف شيئاً عن صفات الجبرتي وأخلاقه ، من معرفتنا لخامة أصدقائه ، وهم الشيخ إسماعيل الحشاش ، والشيخ حسن المطار ، والشيخ أحمد الطحطاوى . أما الأولان فقد ذكرنا طرفاً من أخبارهم ، وظرفهم ، ومجالسهم في بيت الجبرتي ، تلك المجالس التي تمثل فيها بقول الشاعر :

في إقباض ، وحشمة . فإذا رأيت أهل الوفاء والكرم  
أرسلت نفسي على سجيتهما وقلت ما قلت ، غير محشم

وقد توفي الحشاش في سنة ١٢٣٠ ، أي قبل وفات الجبرتي بأكثر من عشر سنين ، وعاش المطار بعده ، ولكنه لم يشاركه في خصومة محمد علي ، بل صادقته ، وتقرب إليه ، وألف من أجله كتاباً في الرسائل أهداه إليه<sup>(١)</sup> . وتولى مشيخة الأزهر ، وكان شاء آ ، رحالة ، خبيراً بالحياة . وسنترجم له في موضعه .

أما ثالثهم : الطحطاوى ، فقد كان تركي الأصل ، شجاعاً في الحق ، عند ما تألب الأشياخ على السيد عمر مكرم ، وكتبوا فيه ما كتبوا ، امتنع عن مسيرتهم والشهادة

(١) رسائل المطار ، مطبوع في المطبعة الميمنية بالقاهرة سنة ١٣٠٤ هـ ( ص ٣ ) .

معهم ، واعدد بذلك دونهم . ففضبوا منه ، وأكثروا من ذمه والكيد له حتى فصل من مشيخة الحنفية ولكنه لم يتراجع ، وأعاد محمد على مرة أخرى لشيختها . وقد قبلها في المرة الأولى على كره . وكان الطحطاوى هذا من أحب محبة الجبرتي له وأقربهم لقلبه .

### عجائب الآثار

يقول الجبرتي في مقدمة كتابه : — « إني قد سودت أوراقا في حوادث آخر القرن الثاني عشر وما يليه ، وأوائل الثالث عشر الذي نحن فيه ، جمعت فيها بعض الوقائع إجمالية ، وأخرى محققة تفصيلية ، وغالبها عن أدركناها ، وأمور شاهدناها ، وأستطردت في ضمن ذلك سوابق سمعتها ، ومن أفواه الشيخة تلقيتها ، وبعض تراجم الأعيان المشهورين ، من العلماء والأمراء المعتبرين ، وذكر لى من أخبارهم وأحوالهم ، وبعض توارىج مواليدهم ووفياتهم ، فأجبت جمع شملها وتقييد شواردها في أوراق منسقة النظام ، مرتبة على السنين والأعوام » .

ويقول في موضع آخر : « كان يدون الحوادث في « طليارات » ثم يعود إليها بالتفصيل والشرح والإفاضة . فهو يسجل في مذكراته ، الحوادث اليومية . ثم يتوسع فيها . وقد سجل حوادث السنين الأولى رواية عن أبيه وعن شيوخه وأصدقائه الذين شهدوها ، أو سمعوها ، ورجع في ذلك أيضاً إلى سجلات الدولة من دقائر الكتبة وغيرها ، وما نقش على حجارة القبور ، وذلك من أول القرن إلى سبعين سنة منه . ثم يقول إن « ما بعد السبعين إلى التسعين أمور شاهدناها ثم نسيناها وتذكرناها ، ومنها إلى وقتنا أمور تعقدناها وقيدناها وسطرناها » .

وظاهر هذا الكلام أنه شاهد بنفسه ، وسجل ما شاهد ، ابتداء مما بعد السبعين من حوادث القرن الثاني عشر ، وذلك ما اعتقده وأقره أكثر مؤرخيه . مع أن منه إزذاك كانت أربع سنين . وأعتقد من الاضطراب الظاهر في العبارة أنه لا يقصد ذلك ، وربما أراد ما بعد التسعين ، لا السبعين .

وقد ذكر أن الذى دعاه لوضع هذا التاريخ هو السيد مرتضى الزبيدى ، صاحب تاج العروس ، حيث طلب مفتى دمشق ، السيد محمد خليل الراوى ، من الزبيدى وضع هذا التاريخ . فكلف به الخبرتى ، وكان يكتب ما يكتب ويقدمه لزبيدى . فمات هذا بالطاعون فى سنة ١٢٠٥ استولت زوجته على جميع ما خلفه ، بما فى ذلك كتبه ، وفيها ما قدمه له الخبرتى من تاريخه ، ثم تزوجت أرملته واستطاع الخبرتى أن يشتري منها ما خلفه السيد فوجد ضمنه أوراقه . وأرسل له مفتى دمشق بعد ذلك يستحثه على أن يتم كتابه ، فكان ذلك مشجعاً جديداً له .

أما الطريقة التى اتبناها فى تدوين الكتاب ، فلها مع استيعابها ووفائها ، أبعدت بينه وبين أن يكون تاريخاً منسقاً متتابعاً ، بل جعلته أشبه شئاً بجملة يومية أو أسبوعية . تسجل الحوادث الواقعة ، بلا ترايط ولا توحيد أو تأليف ، ترى الرجل ، أو الحادث . يذكر فى مواضع متفرقة متباعدة من الكتاب حسبما تحبى به ، أو بها ، المناسبة ، لأمر وقع ، أو حادث جرى . وذلك نتيجة طبيعية لسرد الجزئيات على الأيام . وهو يخلط بين الجليل والحقيق من الحوادث خلطاً ، قد يكون عجيباً ، ولكنه إحدى نتائج الأمانة والحرص على الاستيعاب .

فهو ، مثلاً ، فى حوادث شهر جمادى الثانية من سنة ١٢٢٢ يذكر حادثة شيخ من بنى يدعو الناس لمقاومة سلطة القاهرة ، ويفعل ما جرى له حتى قتل ، ثم يذكر حمر واقعة بين محمد على وشيخ دسوق ، ثم يجمع إلى ذلك حادثة رجل من الدلانية<sup>(١)</sup> كان يرمى دجاجة بحجر لتقع من سطح دار إلى أخرى ، ليستجوز عليها . . . !

أما ترتيب الكتاب فقد أشار فى مقدمته إلى صفات الحاكم العادل . وذكر الحديث الذى رواه أبو هريرة « عدل ساعة خير من عبادة سبعين سنة ، قيام ليها وصيام نهارها » وقال إن سبب هلاك الحاكم هو « إطراح ذوى الفضائل ، واسطناع ذوى الرذائل » والاستخفاف بمطة الناسح ، والاعتراض بزيكية المادح » . ثم ذكر تاريخاً مختصراً للملوك والدول التى حكمت مصر ، بعد ضعف الخلافة المباسية ، حتى

(١) إحدى طوائف اخنند من أكراد الشام .

الفتح المني . ولخص في صحتين حوادث السنين الخمس الأولى من القرن الثاني عشر . ثم أورد حوادث كل سنة بعد ذلك ، مرتبة بترتيب وفوقها ، على الشهور والأيام . وفي الكتاب إشارة إلى أنه كان يكتبه في سنة ١٢٢١<sup>(١)</sup> .

وقد جعل الجبرتي من كتابه ، عجائب الآثار ، سجلاً حافلاً ، جامعاً ، دقيقاً ، لحوادث السنين التي أرخ لها . لم يترك أمراً جليلاً أو صغيراً رآه أو سمع به ، إلا ذكره . يترجم للماليك ، أمراء مصر ، ولشيوخ الأزهر ، والولاة والأشراف ، والعلماء ، والتجار ، وخفير باب زويلة ، والخطاطين ، والصاقي ، والأولياء ، وخدام العمال بالشهد الحسيني ، والشعراء ، والمجنون الصاحي ، وكان حمالاً في دمياط ، ومدعى النبوة ، والمجانين . ويذكر أسعار العلال واللحم والسمن واللبن والذهب والتمر والبن والحطب والفحم ووقوع الطواعين والأوثى ، وعمارات المساجد والبيوت والقنوت والترع والسدود . ويسجل ، في حوادث سنة ١١٩٠ ، دخول فيل صغير القاهرة ، من الهند ، ويفصل حدث الشيخ صادومة . ولا يترك صغيرة ولا كبيرة . وقال في كل ذلك « إنى لم أخترع شيئاً من تنقاء نفسى ، والله الطمع على أمرى وحدى » و : « لا أكتب حادثة حتى أتحقق صحتها بالتواتر والاشتهار » .

وتبدو في الجزئين الأولين العناية بتراجم الرجال وسير الماليك والعلماء وغيرهم وفي الجزئين الآخرين تبدو العناية أكثر بتسجيل الأحداث والوقائع .

وقد ذكر أنه سيعيد مراجعة كتابه . والظاهر أنه لم يتيسر له أن يعمل . لذلك جاء فيه ذكر بعض الحوادث مكرراً ، وجاء فيه ما يدل على عدم التحرى فهو يقول ، مثلاً ، في ترجمة الشيخ سليمان البجيرمي أنه ولد في سنة ١١٣١ ، ثم يقول إنه تجاوز المائة ، وهو في الوقت نفسه ، يحدد تاريخ وفاته ببليلة الاثنين ١٣ رمضان من سنة ١٢٢١ فهو بذلك لم يتجاوز المائة ، وإنما عمر إلى التسعين . وفي الكتاب أشياء غير قليلة من ذلك . ولو أنه راجع ما كتب ، ومحصه ، لما وقع في ذلك ومثله . ولبس

(١) من ٣٢٩ من الجزء الثالث .



ذلك تنقيحاً لقيمة الكتاب ، فقد أجمع المؤرخون على أنه مصدر من أوثق وأوفى وأهم المصادر التاريخية عن تلك الفترة . وخاصة فيما سجله من حوادث عصره التي شاهدها بنفسه .

ومن أحواد ما كتبه الجبرتي ، وأكثره أهمية ، ما سجل فيه حوادث الطبقة الأخيرة من المماليك ، وفترة احتلال الفرنسيين لمصر ، وطبعي أن يكون ذلك ، فسكبار المماليك أصدقاء والده ، وكبار الشيوخ الذين كانوا أعضاء في ديوان بابليون وكذلك كاتم سر الديوان إسماعيل الحشاش ، أصدقاء له ، وهو نفسه كان من أعيان العلماء إذ ذاك ، وكان عضواً في الديوان الثالث .

ولكن أجود ما كتبه الجبرتي ، وأعظمه قيمة ، تلك الصفحات التي صور فيها حياة المجتمع المصري أصدق صورة وأبرعها وأقواها . وتراجم العلماء والأمرء وكبار الرجال في عصره ، وفي هذا وذاك لا نجد للجبرتي نظيراً ولا خريباً بين المؤرخين في جميع العصور .

أما الفترة التي سجلها من عهد محمد علي ، فتقسم بالاختصار ، وعدم الاستيعاب لأنه لم يكن من رجال محمد علي ، ولا من المتصلين به أو برجاله . وهو نفسه يعتذر عن تقييده في تسجيل حوادث القسم الأخير من كتابه « إذ لا يمكن استيفائها ، للتباعد عن مباشرة الأمور » وهو في تسجيل عهد محمد علي يترك بعض الشهور دون أن يذكر حادثاً ما ، وبعضها بدون فيه سطوراً قليلة ، أو حادثاً قرئاً . ويختاط في الرواية بأن يقول : — على ما بلغنا ، أو على ما قيل ، وأشباه ذلك .

### أسلوب الكتاب

أما أسلوب الجبرتي في كتابه فليس على نسق واحد ، وهذا طبيعي ، ولكنه في عموه يكاد أن يكون مصرياً عامياً ، كثير الأغلاط . والتعبيرات المصرية الشعبية التي لا يزال كثير منها متداولاً إلى الآن ، يجدها القارئ في كثير منه . فهو يصف حريقاً في « خطلتنا بالصادقية » فيقول : إن النار « رعت ووحّت » ، ويقول : « إن

البل « انهبط » ، بمعنى انخفض ماؤه ، وأن سعر القمح « شطح » ، أى ارتفع ، و « واثرت كرشة » أى زحام وندافع ، و « وتمنحل فى مشبه » ، ويدكر كلمة « قشل » و « قشلان » بمعنى مفلس . « وكثر العياط » و « زاد تنطيطهم » و « رزع له فوق السطوح » ، إذا مناه الأمانى الكاذبة ، و « رفرق » لذلك فلان أى مال إليه وتأثر به ، و « الفخة » بمعنى الفرور . ونجد من التناير المصرية ما زال سمعه إلى اليوم مثل « كل الوقايح زلاية » ومثل « قارب شيخة » ، فقد ذكر أنه نزل — فى سنة ١١٧١ — مطر كثير ، سالت منه السيول ، وأعقبه الطاعون المسمى « بقارب شيخة الذى يأخذ الملبح والمليحة » . ونجد يذكّر « السكة » وهو يريد الطاعون كما يفعل العامة إلى الآن . وأمثال ذلك . وهو لا يلتزم السجع ، ولكنه أحياناً يتفصح به فى غير موضعه فيبدو ظريفاً مضحكاً ، كذلك السجع الذى التزمه فى وصف قوم غافم المطروم يسرون مكرهين فى زفة عروس « فاحتل نظامهم ، واثنت ثيابهم . وتكدرت طباعهم ، وانتفضت أوضاعهم ، وزادت وساوسهم ، وتلفت ملابسهم ، وهطل الغيث على الأبرسم والحريير والشالات السكرخانة والسليمي والكشمير ، وكثير من الناس من وقع بعد ما ترحلق ، وصار ثوبه من الوحل ألق ، ومنهم من ترك الزفة ، وولى هارناً فى عطفة ، يحسح يديه فى الحيط ، مما تلطخ بها من الزطريط » .

وهى صورة ، كما ترى ، مع طرافتها ، سادقة ، حية . وقد اعتذر هو عن ضعف أسلوبه ، وتقصيره ، وأخطائه بقوله : — « هذا مع اعتراى بقصور الباع ، وفتور الطباع ، فى قواين المانى العربية ، ودواوين الثانى الأدبية » . وغير بعيد أن يعتمد الجبرتى شيئاً من الالتواء والغموض ، مراعاة لبعض الاعتبارات والظروف .

وهذا لا يمنع أن يجد القارىء صفحات جيدة الأسلوب بين ثنايا الكتاب .

### التاريخ بهو عاطفة

والجبرتى يكتب تاريخه ، ويسجل فيه أحداث مصر العظيمة التى شهدتها ،

أو سمعها ، ولكنه لا يظهر أية عاطفة فيما يكتب ، فهو يلم الشوارد ، ويدون ويقيّد ، ولكنه لا يلوّن بشعور ، ولا يضفي بأحاساس .

يسجل ، بأمانة وإفاضة ، حوادث الحلة الفرنسية ، ومقاومة المصريين لحنود نابليون في صفحات طويلة ، ولكن القارىء لا يسنبين فيها أى لون من ألوان العاطفة . فهو لا يكتب تاريخ هذه الفترة العصبية الحافلة من تاريخ مصر بروح الوطنى المصرى وإحساسه ، ولا روح الرجل المسلم ، حيث كانت العاطفة الثالبة المسيطرة . بل هو فى مواضع كثيرة لا يخفى اللوم والضجر من عنف القاهريين وشغلهم فى مقاومة الفرنسيين ، ويجمل ذلك من سخف العقل . وهو كذلك ، فى ترجمة الألفى ، يطنب فى مدحه ، ويشيد بهضائله ، ويدكر أنه سافر إلى بلاد الإنجليز مع حسة عشر من رجاله . ونقى ضيفاً عليهم رمنا ، بطلب حمايتهم ويمكن لهم من احتلال مصر ، وغاب فى هذه الرحلة ستة وشهراً ونمض أيام ، وعاد من بلادهم يحمل الهدايا الكثيرة ، الثالية ، ثم يقول إن الألفى أيضاً أرسل إلى الإنجليز يستنجدهم أن يمسوه على حرب محمد على وإخراجه من مصر . ومع هذا وذاك لا يجد الجبرى ، فيما أقدم عليه الألفى أى مبرر للومه ، ولا يشعر القارىء أنه أحس أى عاطفة من المواطف فيما أقدم عليه

ويستطيع القارىء ، وهو يعجب ، أن يجد شيئاً غير قليل من شذوذ العاطفة فى تدوين الجبرى لحوادث سنة ١٢٢٢ ودخول الإنجليز الاسكندرية فيها<sup>(١)</sup> فهو يكاد يتعنى لو أنهم استطاعوا أن يملكوا القطر كله ، ليساعدوا صديقهم وحليفهم ، الألفى ، ضد محمد على . وهو يذكر أميراً من المماليك اسمه عثمان بك حسن ، سمى إليه الإنجليز ليعينهم على بسط سلطانهم على مصر ليكنوا له وإخوانه ، فى رعمهم ، من حكمها دون محمد على ، ولكن عثمان بك هذا أجاب الإنجليز بأنه هاجر وجاهد الفرنسيين ، وأنه لا يقبل أن يختم حياته بمساعدة الإفرنج على إخوانه المسلمين . ولعل القارىء يعتقد أن الجبرى أعجب بإخلاص عثمان بك لدينه ، أو لوطنه ،

(١) فى ليلة ٢١ مارس من سنة ١٨٠٢ م

وشكر موقفه هذا ، أو على الأقل ، سجل الحوادث بلا عاطفة ، كما هو غالب شأنه .  
ولكن اسعيب أن الجبرتي يصف عثمان بك في موقفه المشرف هذا بأنه « يدعى  
الورع » ثم يقول بعد ذلك بقديل أنه « كان ما أراداه المولى حل حلاله ، من نعمة  
الإنجليز ، واقطع وأهله » .

فهو بذلك يشي سريره ، ويظهر حزنه المكثوم لحبوط الحملة الإنجليزية  
على مصر .

ولا نستطيع ، على وجه القطع واليقين ، أن نهم الجبرتي ، لهذا أو لغيره ،  
في عاطفته الوطنية أو الدينية . وهي العاطفة الغالبة . التي كان يحسها الناس إذ ذاك  
ويعرفونها .

ولكننا نلاحظ ، إلى جانب حديثه عن عثمان بك حسن ، أن الجبرال منو  
اختاره عسواً في الديوان الأخير الذي ألفه . وكان منو أشد القادة الفرنسيين قسوة .  
وأندم في العنف والحجرات على أهل مصر . ونلاحظ أيضاً أن الفرنسيين قبضوا  
على أربعة من أعضاء هذا الديوان ، عندما قدمت الحملة الإنجليزية التركية ، ولم يقبضوا  
على الباقيين من هؤلاء الأعضاء ، بل تركوهم ليحكموا بهم أهل مصر . وكان الجبرتي  
من هؤلاء الذين تركوهم ، وخصصوا لكل واحد منهم حادماً يقوم على خدمته ،  
كما نلاحظ أيضاً أن الجبرتي ، وهو يتحدث عن الثورات التي قام بها أهل القاهرة  
ضد الفرنسيين ، كان كأنه يلوم زعماءها على عنادهم وصلابتهم ، ويتهم بعضهم بأنه من  
الأغرار الأفاقين . أما سواد الناس من القائمين بالثورة ، فكان يسميهم أحياناً  
« بائع » وأحياناً « بالخرافيش » . ويصفهم بأنهم « حشرات الحسنية ، وزعر  
الحارات الرابية » أي الذين يسكنون خارج أسوار القاهرة وأبوابها .

وقد يكون لطبيعته من الاعتدال ، والبعد عن العنف ، مدخل في شعوره هذا  
وفي حديثه عن الثورة والثائرين . كما كان لها أثر في رأيه وسلوكه مع الفرنسيين .  
وقد يكون حبه للعلم ، وتقديره لما شاهد عند علماء الحملة الفرنسية من الكسب  
والآلات الهندسية والفلكية ، وما رآه المصريون ، لأول مرة ، من مظاهر الحضارة

العلمية ، قد يكون ذلك مما أوجد في نفسه آصرة من التقدير والقرى — ولا أقول المحبة — بينه وبين الفرنسيين .

وقد ذكر الجبرتي أنه كان يكتب تاريخه في سنة ١٢٢٠ ، ذكر ذلك مرة في تدوينه لحوادث سنة ١١٨٦ ومرة أخرى في حوادث سنة ١١٩٠ . وهو لم يكتبه كله في ذلك الوقت طبعاً ، بل كتبه على فترات طويلة متباعدة .

### تراول الكتاب وطبع وزمته

كان تاريخ الجبرتي ، أو جزء منه على الأقل ، متداولاً ، أو معروفاً لبعض الخاصة ، فإنه يذكر في ترجمة الشيخ عبد الله الشرقاوي أنه ألف كتاباً في تراجم فقهاء الشافعية ، فنقل تراجم المتأخرين منهم « من تاريخنا هذا بالحرف الواحد » .

وقد بقي الكتاب محبوباً ، أو ممنوعاً ، حتى أذن الخديوي توفيق بطبعه ، فطبع لأول مرة ، في سنة ١٢٩٧ هـ ، بالمطبعة الأميرية ، وطبع الجزءان الثالث والرابع ، وفيه بعض من تاريخ محمد علي ، أولاً ، ثم الأول والثاني .

وقد ذكر الجبرتي ، في ختام كتابه أنه سيفصل بعض المسائل فيما « سيقبل عليك إن شاء الله تعالى بكال في الجزء الآتي بعد ذلك » ولعل هذه الإشارة هي التي جعلت بعض المؤرخين يعتقد أنه كتب جزءاً خامساً ، « أحرق أو أُعدم ، لاشتماله على أشياء ضد محمد علي وحكمه <sup>(١)</sup> . ولكن الأرجح أن الجبرتي لم يكتب بعد ذلك

(١) ذكر جورجى زيدان في تاريخ آداب اللغة العربية — الجزء الرابع — أنه « يقال إن محتاج الآثار ، بعد طبعه ، صدرته حكومة الخديوي وحذفت منه ما كتبه ضد محمد علي » . ولكني لم أجده ما يؤيد هذه الرواية ، أو يساعد عليها .

وسجد في الفصل الذي عقدناه عن محمد علي ، أن الجبرتي كتب عنه بحرية واسعة ، وتناول شخصه ، وأخلاقه ، وتصرفاته بأشياء كثيرة . وأن هذا الذي كتبه موجود في الطبعات للتداول لذلك ، ولأسباب أخرى ، أستبعد هنا الذي رواه جورجى زيدان بصيغة التصويب .

ونقول ، دائرة المعارف الإسلامية أيضاً أن نسخة سابقة على طبعة المطبعة الأميرية « سنة ١٢٩٧ هـ » ، صودرت وأُعدمت .

شيئاً . ووجدت بعض النسخ بحطه وفيها « أن هذا هو آخر الجزء الرابع » . وبعده توفي الشيخ . ولم يكتب شيئاً ، كما نرى بعد قليل .

ونكرر طبع الكتاب بعد ذلك ، منفرداً ، وعلى هامش التاريخ الكامل ، لابن الأثير . وشعر القسم الذي كتبه الجبرتي عن الحملة الفرنسية مستقلاً بعنوان « تاريخ الفرنسيين في مصر » نشرته جريدة « مصر » بالإسكندرية في سنة ١٨٧٨ . وقام نشره الأديب اللبناني أديب اسحق .

وترجم هذا القسم إلى اللغة الفرنسية ، ترجمه مترجم القنصلية الفرنسية بمصر . المسيو كار دان وطبع في سنة وفاته ١٨٣٨م أي بعد موت الجبرتي بثلاث عشرة سنة . وقد رأينا من قبل أن هذا الجزء نفسه ترجم إلى اللغة التركية ، بأمر السلطان سليم الثالث ، وجعل عنوانه « إلهاذ مصر من الفرنسيات » .

ومما لا شك فيه أن محمداً علياً عرف ما سجله الجبرتي عن سيئاته ، ومساوئ حكمه ، وأنه جزع لذلك واستاء منه أكبر استياء ، وقد أراد أن يرد على الجبرتي ، من طريق غير مباشر ، فطلب إلى شيخ الأزهر ، الشيخ محمد العروسي<sup>(١)</sup> ، أن يكلف أحد العلماء بتأليف كتاب عن تاريخه يعارض فيه الجبرتي . فكلف الشيخ خليل بن أحمد الرجبى الشافعى الذى وضع كتاباً ملأه بمدح محمد على والإشادة بذكوره . وتوجد من هذا الكتاب نسخة خطية في دار الكتب المصرى تحت رقم ٥٨٥ تاريخ .

وترجم « عجائب الآثار » إلى اللغة الفرنسية ، وشعر في تسعة أجزاء ، تضمنتها ثلاثة مجلدات ، وطبع بالمطبعة الأميرية بين سنتي ١٨٨٨ و ١٨٩٦م وهم بمصر المؤرخين أن هذا التراخي كان سببه ما كتبه الجبرتي عن محمد على . وقام بهذه الترجمة أرملة ، هم شقيق بك منصور يكن ، وعدد العزير كميل بك ، وجبرائيل نقولا كميل بك ، واسكندر عمون أفندى .

---

(١) تولى للشيخة سنة ١٢٣٣ بعد الشيخ الشنوانى .

وذكر هؤلاء في مقدمتهم لهذه الترجمة الفرنسية، أن نوبار باشا هو الذى أوحى إليهم بفكرتها ، وأن يعقوب أرتين باشا كان معينا لهم فى القيام بالمشروع .

وللجبرى كتب أخرى ، هى ، « مختصر تذكرة داود الأنطاكي <sup>(١)</sup> » فى الطب ، وكتاب عن ألف ليلة وليلة ، يرجح أنه قد ، وذكر بعض المؤرخين أنه ، عندما قتل ابنه خليل ، كان يشغل بوضع كتاب عن الثورة اليونانية ، ولم يتمه .

وقد ذكر بروكلمان أن الجبرى ترجم كتاب « سلك الدرر ، فى أعيان القرن الثانى عشر » للسيد محمد خليل المرادى . وأعتقد أن هذا خطأ ، منشؤه أن مصحح المطبعة الأميرية التى طبع فيها سلك الدرر <sup>(٢)</sup> قال فى ختام الجزء الثانى أنه قد تم بحمد الله تعالى طبع كتاب سلك الدرر لمحمد خليل المرادى ، « الذى ترجمه الجبرى » . والواقع أنه قصد أن الجبرى ترجم للسيد خليل المرادى ، لا أنه ترجم كتابه . وقد سبقنى إلى تحقيق ذلك الأستاذ خليل شيبوب <sup>(٣)</sup> .

وسنجد فى مواضع أخرى من هذا الكتاب ، ما يزيدنا معرفة بالجبرى وأبيه . ويجعلنا أكثر إحاطة بما كان عندهما من فضائل وأخلاق وصفات . وما كان لهما من مكانة ومنزلة وأثر .

### مخطوطات التاريخ ومظهر التفريس :

يوجد فى دار الكتب المصرية من عجائب الآثار ثلاث عشرة نسخة مخطوطة . منها أربع كاملة ، وباقيا أجزاء وكراسات ناقصة .

وأحدث هذه المخطوطات الكاملة كتب فى سنة ١٢٨٩ يحيط أحمد بن محمد بن أحمد بن موسى الشاهد . وفى الصفحة الأخيرة من الجزء الرابع أنه نقل من خط المؤلف . وأنه لم يكتب بعد ذلك شيئا . وينتهى بنهاية سنة ١٢٣٦ كما تنهى النسخ المطبوعة .

(١) توجد منه نسخة خطية فى دار الكتب المصرية تحت رقم ٤٤٠٤ ملب .

(٢) طبع سلك الدرر فى مطبعة بولاق الأميرية سنة ١٢٩١ هـ .

(٣) هامش ص ٦٠ من كتابه « عبد الرحمن الجبرى » .

وتلى هذه النسخة في القدم نسخة أخرى ، كتب الجزءان الأولان منها بخط محمد أحمد الشافعي ، والثالث بخط أحمد يونس ، أبو التيسير في سنة ١٢٨٧ ، والجزء الرابع كتب في نهايته أنه تم في ربيع الثاني سنة ١٢٨٩ ولم يذكر اسم الكاتب . ثم تلى هذه نسخة أخرى كتبت في سنة ١٢٧٢ بخط الحاج محمد حسين أحمد مصباح الشافعي الأزهرى . وفي آخر الجزء الرابع منها فهرس بأسماء التوفيق من الأعلام . ولكنه لا ينتهى بنهاية ما سجله الجبرتي في تاريخه ( سنة ١٢٣٦ ) بل يمتد بهذه الأسماء وتواريخ وفاة أصحابها إلى سنة ١٢٧٢ ، تاريخ كتابة المخطوط ، ويبدو أن القدي أكمل هذه التواريخ هو الشيخ مصباح ناسخ المخطوط .

وأقدم هذه النسخ المخطوطة تمت كتابتها في سنة ١٢٦٢<sup>(١)</sup> — أى بعد وفاة الجبرتي بإحدى وعشرين سنة . ولم يذكر اسم كاتبها . وكان هذا المخطوط ملكا للرحوم محمود باشا ساي البارودي . مكتوب في الصفحة الأولى لكل جزء منه ما يلي : — « من كتب الفقير إليه تعالى محمود ساي الشهير بالبارودي » وتاريخ سنة ١٢٨٥ ثم ختم باسم « محمود ساي » .

والسطور الأخيرة من هذا المخطوط تتفق تمام الاتفاق مع النسخ المطبوعة . ثم تنتهى بهذه الكلمات : — « تم لسنة ست وثلاثين . ونقل هذا من نسخة بخط الجبرتي في ٢٥ ذى الحجة سنة ١٢٦٢ » .

وهناك جزء ثان فقط ، لم يذكر اسم كاتبه ، وفي نهايته أنه تمت كتابته في ٢٥ ربيع الأول سنة ١٢٦٢ أيضاً . وعلى صفحته الأولى أن الرحوم على فهمي نجل رفاعه بك رافع الطهطاوى طالعه كله سنة ١٢٧٨ .

وقد راجعت صفحات هذه المخطوطات الأربعة الكاملة ، وهذا الجزء الثاني الأخير ، وقابلت كثيراً من صفحاتها مع صفحات الطبعة الأميرية ، فلم أجد سوى قليل جداً من الخلافات اللفظية ، أو من تقديم أو تأخير لبعض كلمات مما لا يزيد معنى أو ينقصه أو يبدله . وعانيت ، بصفة خاصة ، بالجزء الأخير من كل من



المخطوطات الكاملة ، والمفصلات الأخيرة منها بصفة أخص ، لعل أجد ما يفيد وحوود زيادة ليست في النسخ المطبوعة ، فلم أجد .

وفي المكتبة الأزهرية من عجائب الآثار ، مخطوطان: الأول بخط خليل إبراهيم المحوز ، انتهى من نسخه سنة ١٢٨٩ . وهو في ثلاثة مجلدات . والثاني بخط محمد بن أحمد بن موسى الشاهد الحنفي الأزهرى ، ولم يذكر تاريخ الانتهاء من نسخه . وهو في أربعة مجلدات . وكلا المخطوطين منقول عن نسخة بخط الجبرقى . وكلاهما أيضا ينتهى نهاية واحدة هذا نصها — « وهذا آخر الجزء الثالث ، أو الرابع ، وبعده توفى الشيخ . ولم يكتب شيئا » وهو ما حتمت به طبعة المطبعة الأميرية ، وطبعة المطبعة الشرفية التى اعتمدت عليها .

وتنتهى الحوادث التى أرحمها الجبرقى في هذين المخطوطين بنهاية سنة ١٢٣٦ كما فى النسخ المطبوعة . وكما هو الحال فى جميع النسخ الخطية التى ذكرتها .

وقد راجعت ، وقابلت هذين المخطوطين ، كما فعلت بالمخطوطات الخمسة فى دار الكتب ، فكانت النتيجة هنا مثلها هناك .

وهذا كله يؤيد ما ذهب إليه من عدم وجود قسم ، أو جزء ، لم ينشر ، أو نشر ثم سدر ، كما روى جورجى ريدان ، بصيغة التصحيح .

وفي دار الكتب المصرية فهرس مخطوط لمعجائب الآثار من عمل المرحوم أحمد تيمور باشا . يشمل الحوادث ، وأسماء الأعلام ، والنقود . وفهرس آخر من عمل المرحوم توفيق اسكاروس يشمل أسماء العلماء المذكورين فى الكتاب ، مرتبة على الحروف .

وفي المكتبة التيمورية مخطوط لمعجائب الآثار كتب فى سنة ١٢٨١ . ويوجد مخطوط آخر من هذا الكتاب فى مكتبة السيد الكتانى بفاس ، لم أستطع أن أعرف عنه شيئا . ولعل بعض الباحثين ، ممن يمتنون بمثل هذا ، يعرفونه . أما مظهر التقديس . فى دار الكتب المصرية منه مخطوطان — وهو لم يطبع ،

كما أسلفنا . المخطوط الأول منهما كتب في سنة ١٢٢٤<sup>(١)</sup> قبل وفاة الجبرتي بسبع عشرة سنة ، وبعد أن أتم تأليفه بسبع سنين وخمسة أشهر . حيث ذكر أنه أتم تأليفه في شعبان سنة ١٢١٦ .

وفي الصفحة الأولى من هذا المخطوط أسماء خليل رفعت باشا ، وخسر و باشا ، وكان أحد ولاية مصر في فترة من هذا التاريخ [ من ١٣ جمادى الأولى سنة ١٢١٦ إلى ١٤ المحرم سنة ١٢١٨ ] والمخطوط في ١٤٥ ورقة ، أي ٢٩٠ صفحة كبيرة . والمخطوط الثاني من مظهر التقديس كتب في سنة ١٢٩٣ .

وقد طالعت ، بإمعان ، المخطوط الأول ، الأقدم ، من مظهر التقديس ، وقابلته بما كتب الجبرتي في تاريخه عن دخول الفرنسيين مصر ، وإقامتهم فيها ، وخروجهم منها ، وتاريخه للسنوات الثلاث التي أقاموها بها ، فخرجت من هذه المقابلة بالملاحظات التي أخلصها فيما يلي : —

يذكر الجبرتي اسم الشيخ حسن المطار على أنه شريك في تأليف الكتاب ، فهو يقول في أوله ، إنه ألف كتابه وضم إليه ما كتبه الشيخ حسن المطار من النثر والشعر . ثم يقول عند اختياره اسم الكتاب « سمينا » مظهر التقديس وهو عند ما ذكر ذلك عن تاريخه قال « سميت » بحجائب الآثار . وعند ما يورد بعض الشعر يقول أنه « لصاحبنا الآتي ذكره » . أو لصاحبنا السابق ذكره ، بعد أن ذكر اسم الشيخ المطار .

ونحن نعرف أن الجبرتي لم يقل الشعر .

بدأ الكتاب ، بعد حمد الله ، بمدح الدولة العثمانية الخاقانية . ثم ربط بين الظواهر السماوية ، كسوف الشمس وحركات النجوم ، وبين الحوادث الأرضية ، وذكر بعد ذلك قدوم الفرنسيين مصر ودخولهم فيها . مع أن مصر لم يغلبها غالب ، حتى التتار الذين هزموا جند الأرض كله ، كثيراً ما قهرهم جند مصر القاهرة . حتى لم تقم لهم بعد ذلك قائمة .

ثم يلوم المالك على تهاونهم في تحسين الثغور ، والعناية بمدة الحرب ورجالها .  
ويورد شعرا ، أعتقد أنه للشیخ المطار ، هو : —

إنما هذه البلاد لأقوا رمحوها بالصارم المسلول  
وأرى دولة المالك ما لت لضروب اللدات ، بالتحصيل  
وأغتنوا عن تجريد سيف ورمح بقوام لندن ، وطرف كحيل

ويلومهم كذلك على سلوكهم مع أهل مصر ، ومصادرة أموالهم ، والقسوة  
عليهم . ثم يذكر السلطان سليما الثالث وتداركه مصر بتخليصها من الفرنسيين .  
ويذكر صدره الأعظم يوسف باشا بأوصاف لا تكاد تنتهي من الدح والتفخيم  
والإشادة والتعظيم .

وتجيء بعد ذلك مقدمة موجزة في التاريخ ، منذ بدء الخليفة ، ونزول أبي الأنبياء  
آدم ، وتوارد الرسل لهداية الناس . والرسالة المحمدية الخالدة . وملخص في غاية  
الإيجاز للخلفاء الراشدين ، والدول الإسلامية المختلفة التي أعقبهم ، وفوتوحها ،  
وما جرى بعد ذلك من وقائع حتى دخل العثمانيون مصر .

ثم يبدأ بسرد حوادث الحملة الفرنسية من اليوم العاشر من المحرم سنة ١٢١٣  
ومن هنا يبدأ في الاتفاق مع ما كتبه في عجائب الآثار ، ماعدا خلافات يسيرة ،  
وتكرار لبعض الفقرات والجلل .

وبعد أن أورد الكتاب منشور نابليون الذي وجهه إلى المصريين بعد دخوله  
الإسكندرية ، أخذ يناقش هذا المنشور ويعلق عليه ، ويسره . وهذه أشياء  
لا توجد في عجائب الآثار .

وفي هذه المناقشة ، وهذا التفسير يحمل مظهر التقديس حملا قاسية على  
نابليون ، والفرنسيين .

ولا تقتصر خصومة الجرجي للفرنسيين في مظهر التقديس ، وعنفه عليهم على  
هذه المناقشة ، بل نجد الروح التي تسيطر عليها ؛ مختلفة عن تلك التي كتب بها  
في عجائب الآثار . ونجد الطابع الذي يتميز به مظهر التقديس ، من هذه الناحية ،

متأثراً إلى حد بعيد، لذلك العواجب التي نجمت في المعجائب . فهو، في مظهر التقديس ، ينتمى بأوصاف الجمل، والتناق، والخداع، والظلم ، والخروج على جميع الأديان .. ويتمنى زوال دوائهم ، ويظهر التشقى والسرور عند ذكر هزيتهم أمام مراد بك ، في بعض المواقع ، ويسمىهم اللاعين .

ثم هو لا يدكر في مظهر التقديس ، مادكره في عجائب الآثار ، من أنهم كانوا يأجرون العمال على ما يقومون به من إصلاح أو إنشاء في طرقات القاهرة ومراقفها ، وأنهم كانوا يعطونهم أكثر من الأجر المعتاد .

وكذلك يطوى زيارته مقر علماء الحملة الفرنسية ، وإطلاعهم على ما كان فيه من الكتب والصور والرسوم . ومشاهدته عندهم التجارب الطبيعية والكيميائية . وإباحتهم لأهل مصر أن يزوروا مقر هؤلاء العلماء ، وأن يفيدوا منه . وهي قطعة كبيرة مجدها في عجائب الآثار ونفتقدها في مظهر التقديس .

وسقط أيضاً ، من مظهر التقديس ، في ختام شهر شوال من سنة ١٢١٣ قطعة ضمنها ، في المعجائب ، بعض الأعمال والإنشاءات التي قام بها الفرنسيون في القاهرة .

وحذف منه كذلك قطعة من رسالة نابليون ، التي وجهها إلى أهل مصر يمثل فيها عدم استيلائه على عكا . وأثبت قطعة كبيرة من قصيدة السيد على الصيرفي ، نزيل عكا في ذلك الوقت ، لم تذكر في المعجائب .

وقد تضمنت هذه القطعة من القصيدة مطاعن كثيرة في الفرنسيين ، وفي نابليون .

ونجد في مظهر التقديس تعليقاً على هذه القصيدة ، وقد أُلها ، عمله من وضع الشيخ العطار ، تحدث فيه عن العروض ، والترصيع ، والوند ، والزحاف . إلى غير ذلك من مصطلحات هذا الفن . ونجد ، بعد ذلك ، استدراكاً على الشاعر لأنه مدح أحد باشا الجزائر ، حاكم عكا ، على بلائه في صد نابليون عنها ، ولم يمدح الوزير يوسف باشا على جهاده .

ثم يدافع عن العثمانيين عند ما يذكر نابليون في مشورله ، أن دولتهم في مصر قد دالت . ويقسو عليه في ذلك أشد القسوة .

وتحارب العثمانيون والفرنسيون في الإسكندرية ، فهزم الأولون ، وأسر قائدهم مصطفى باشا ، وكبير منهم هو عثمان خوجا . فيذكر ذلك في العجائب ، ولكنه ، في مظهر التقديس ، يزيد عليه عزاءه للعثمانيين ، وتهوين الأمر عليهم . ثم يسقط من مظهر التقديس ، ما يدل على ضعف العثمانيين ، أو فساد تدبيرهم ، بمد عقد الصلح مع الفرنسيين .

ومن الملاحظات الخاصة بالصياغة ، ولكنها ذات دلالة ، أنه عند ما يذكر نابليون ، في عجائب الآثار ، بصفه بأنه « ساري عسكر » الفرنسيين ، أي قائدهم العام . وعند ما يذكره في مظهر التقديس ، يقول « كبير الفرنسيين » وكذلك يقول في عجائب الآثار ، عن معسكر العثمانيين « عرضي الورير » وفي مظهر التقديس « عرضي هميون » أي المعسكر السلطاني .

وفي نص واحد نجده يذكر نابليون في عجائب الآثار باسم « بوابرته » وفي مظهر التقديس بقوله « اللعين » .

ومن لطائف هذه الفروق ، بين عجائب الآثار ، ومظهر التقديس ، أنه يذكر خروج الجيش العثماني إلى الصالحية ، بعد فشل الصلح ، وابتداء الحرب بينهم وبين الفرنسيين ، يذكر ذلك في العجائب ، فيقول إن سببه ضعف هذا الجيش واشتغال حنده بجمع المال من البلاد ، وظلم الناس ومصادرتهم .

ويذكر ذلك ، في مظهر التقديس ، فيقول إن سببه الحرص على شروط الصلح وأنه كان حكمة حربية وبراعة ، وعملا بقول من قال : الحرب خدعة ! .

ومن الزوائد التي تفت النظر ، ما ذكر في مظهر التقديس<sup>(١)</sup> من أن نابليون عند ما دخل عليه الشيخ السادات باستدعاء منه ، « سار — أي نابليون — يقل يده تارة ، وركبته أخرى » .

وقد أسقط الجبرتي من مظهر التقديس ، ما سجله في المعجائب ، من عدوان الجند العثماني على أهل القاهرة ، بعد عودتهم إليها . مع أنه يقول في المعجائب وهو يصف عدوانهم على الناس ، وهم في ثورتهم على الفرنسيين ، إن أهل البلاد « تمنوا ذوالهم ورجوع الفرنسيين على حالتهم التي كانوا عليها »

كما يسقط رسالة عنيفة وجهها الشيخ السادات إلى كشتخدا الدولة ، بزجره فيها على عدوان جنده . ونجدها فيما كتناه عن الأهر والعلماء من كتابنا هذا<sup>(١)</sup> .

كذلك نجد في المعجائب كثيراً من الآيات القرآنية السريعة التي تخوف من عاقبة الظلم ، ثم لا نجدها في مظهر التقديس . كأننا خشى أن يفهم ذكرها على أنه تمريض بالأماني . وكذلك لم يذكر الضرائب والمغارم التي فرضها الفرنسيون على علماء القاهرة وأعيانها ، جزاء اشتراكهم أو تحريضهم على الثورة . ومناقشة كليبر لهم في ذلك .

وعند ذكره لمقتل الجنرال كليبر ، أسقط السجل الذي أئتمته في المعجائب عن مناقشة قائده ، سليمان الحلبي ، ومحاكمته ، وأقوال الشهود ، والأحكام التي صدرت بإعدامه ، وإعدام شركائه الثلاثة ، وأمر القائد العام الجديد ، الجنرال منو ، بتنفيذ هذه الأحكام . ووصف هذا التنفيذ .

ومن الملاحظات الجديدة بالعبارة ، أنه عند ما ذكر إنشاء الديوان الثالث ، الذي كان أمر منو بتشكيله من العلماء وحدهم . أسقط أسماء أعضائه التسعة . وقد ذكرهم في المعجائب ، وأشار إلى نفسه فيهم بقوله « وكتابه » .

وكذلك أسقط من مظهر التقديس ، الوصف الذي أئتمته في المعجائب لجلسة هذا الديوان الأولى .

وكان ديجنت ، كبير الأطباء الفرنسيين ، ألف رسالة في علاج الجدري ، لعله أهداها إلى الجبرتي . فوسفها في المعجائب بأنها « لا بأس بها في بابها » . ولكنه في مظهر التقديس يسقط وصفه لها . وهو لا يذكر أيضاً تخفيف الفرنسيين لبعض

(١) في الجزء الثاني من الكتاب .

الأتاوات التي كان الوالي والمحتسب يفرضانها على أهل القاهرة . ولا يذكر خبر قدوم الإنجليز إلى أبي قير ، وحربهم الفرنسيين .

ونجد عند ذكره أبناء عودة العثمانيين للقاهرة شيئاً غير قليل من الاختلاف والتخبر . وإسقاطا لحوادث اعتدى فيها جندهم على بعض البائمين من أهل القاهرة . غصبوهم بضاعتهم ؛ فلما طلوبوا بشمها ، قتلوهم وقتلوا غيرهم ، حتى رجال الأمن والشرطة .

ثم نجد ، بعد وصفه موكب الصدر الأعظم حين دخل القاهرة ، قطعة ، أعتقد أنها من إنشاء الشيخ المطار ، فيها ذكر لسكر العثمانيين الذين قدموا معه ، وفيها قصيدة للشيخ أيضاً أولها :

إنما المز في متون الجياد مع بيض الفلبا ، وسمير الصماد  
وهي ثلاثة وثلاثون بيتا . وفي هذه القطعة من النثر ، نجد كل اسم من أسماء هؤلاء القادمين ، مسبوقا بطوفان من ألقاب التعميم والمدح والتفخيم .

وعندما استقر الأمر للعثمانيين ، فرضوا على تجار القاهرة منازم ، ذكرها في المجانب ، وطواها في مظهر التقديس . كما طوى أخباراً أخرى عن بعض المالكين ، وعزل القاضي التركي ، وقتل بيت السيد خليل البكري<sup>(١)</sup> ، ومشاجرات وقعت من الجند العثماني على أهل القاهرة . كما أسقط اشتغال هؤلاء الجند بالبيع والشراء ، وتستر قاذنهم عليهم . بل دفاعهم عنهم . لأنهم أنقذوا مصر من الفرنسيين ... !  
وفي الشهور الثلاثة الأخيرة من الكتاب ، نجد كثيراً من الأخبار قد حذفت ، ونجد بدلا منها أبناء قدوم السادة من كبار العثمانيين ، مثل محمد أفندي شريف ، دفتر دار الدولة ، ويذكر في عدومه شمرا ، وقدوم كتحداه - نائبه - -  
عنان أفندي ، وشمس الدين بك ، أمير أخور<sup>(٢)</sup> ، ومرجان آغا ، والقاصي مصطفى أفندي دباغ راده . ولا يذكر ، بعد ذلك ، في حوادث شهر ربيع الثاني سنة ١٢١٦ ، سوى عودة الحمل . ويسقط القرارات والأوامر التي أصدرتها الدولة بشأن الأموال والضرائب

(١) نجد قصتها في آخر الحياة الاجتماعية من هذا الكتاب .

(٢) أمر المذاود ، للوكل بطلب الدواب

ونجد بمصر حوادث هذه الشهور الثلاثة في غير موضعها، ويذكر في هذه الشهور بعض اعتداءات الجند العثماني . وكف الصدر الأعظم لهم عندما علم ذلك . ثم يسجل كتاباً ، نَحْدَه في العجائب ، موجهاً من السلطان إلى عرب البحيرة ، بأن يكفوا عن قطع الطريق ، والمدوان على الناس . وجواباً كتبه الشيخ إسماعيل الخشاب ، على لسان هؤلاء العرب ، بأنهم سيلزمون الطاعة . وهو موجه إلى « الصدر الأعظم يوسف باشا ، بلفه الله ، من المراتد ماشا » . وتاريخ هذا الجواب اليوم الثاني والعشرين من شعبان سنة ١٢١٦ ، وبه تنتهي حوادث مظهر التقديس .

ونجد في مظهر التقديس شيئاً قليلاً من التفسير ، والاختلاف ، عن عجائب الآثار ، ولكنه تفسير واختلاف قليل القدر والأهمية . كما نجد بعض الزيادات القليلة أيضاً ، غير ما سجلنا من قبل ، كزيادته مدح قائد الجيش التركي . مصطفى باشا ، الذي أسره الفرنسيون ، لمناسبة إخراجهم من الأمر ، ثم سفره بعد ذلك إلى دمياط وموته فيها . وزيادته تقبيح الفرنسيين وسبهم في بعض المناسبات ، ووصفه بعض كبارهم بأنه « كلب » . وزيادته قطعة من النثر والشعر للشيخ حسن المطار ، وصف فيها ركة الفيل ، وذكر ما أصابها من التخريب على يد الفرنسيين ، عند الثورة عليهم .

ومع أنه أسقط من سنتي ١٢١٣ و ١٢١٤ التراجم التي سجلها في ختام كل سنة من العجائب ، لمن ماتوا فيها ، فقد ذكر ، في حوادث الشهور ، بعض الوفيات ، كوفاة ولدي الشيخ أحمد الجوهري ، محمد ، وعبد الفتاح . والأمير مراد بك ، والشيخ عبد القادر المغربي . وفي ختام سنة ١٢١٥ يترجم لمن ماتوا فيها ولكنه يسقط تراجم العلماء ، ويسجل تراجم المالك والأمرء .

ونجد كذلك قصيدة للشيخ حسن المطار في مدح الشيخ عبد القادر المغربي .

وما عدا هذه المروق ، نجد مظهر التقديس متفقاً مع عجائب الآثار ، في الحوادث ، والصياغة ، والترتيب .



وفي نهاية مظهر التقديس خاتمة تتلخص في أنه من الأوفق أن يجعل ختامه شهر رمضان ، تبعاً به ، وإشارة إلى أن وجود الصدر الأعظم ، الذي ألف برسمه الكتاب ، في الأيام ، كوجود شهر الصيام في الأهوام ، يزيل الفساد ، ويكثر العبادة ، وتنحصر به القلوب ، وتخلص النيات في كل مرغوب . ولأن فيه ليلة القدر ، والصدر الأعظم شبيه بها في أن الأمة المحمدية تترقب ظهوره من مدد متطاولة . ولأن قدومه مصر كقدوم العيد في نهاية شهر رمضان .

وبعد ذلك شمر في مدحه ، لا بأس به ، وفي تهنيئته بشهر الصوم لا بأس به أيضاً . ويجيء ، بعد الدعاء الكثير ، بيتا التاريخ :

سعد تاريخنا بإقبال صدر بمعالى ثنائه مسطور  
فهذا يقول بشرى ، أرغح بإجتلاء السرور جاء الوزير

وقد تم تأليفه في نهاية شهر شعبان من سنة ١٢١٦ .

وكان الفراغ من تحرير هذه النسخة في غرة المحرم من سنة ١٢٢٤ .

ونستطيع بعد ذلك أن نسجل أن الفروق التي نجدتها في مظهر التقديس ، عن العجائب ، مردها إلى المناسبة التي ألف فيها الكتاب .

فهو عند ما دوّن ما كتب عن الفرنسيين في عجائب الآثار ، كانوا ما يزالون يقيمون في مصر ، وهم أصحاب الحول فيها والسلطان . فهو ، في هذه الحالة ، يتخذ سبيل السلامة ، ويأخذ بالمداراة والتقية ، فلا يتعرض لهم بنم أو ملامة .

وهو ، في الوقت نفسه ، يترجم عما في نفسه من تقدير لهم ، وعطف عليهم ، نفسه في غير موضع من العجائب . ونذكره من صلاته بهم ، ولو أنه حرص على سترها شيئاً ما .

وهو عند ما كتب ، مع صديقه المطار ، مظهر التقديس ، كان الفرنسيون قد تركوا مصر ، ولم يبق لهم فيها حول ولا سلطان ، بل عاد السلطان فيها لخصومهم

العثمانيين . ومظهر التقديس يؤلف لصدر من صدور الدولة . عند ذلك كتب الحبرتى  
والطار ما كتبنا فى مذمة الفرنسيين ونابليون ، ووصفاهم بما وصفنا .  
وما أسقطه من الكتاب أمور لانهم الصدر الأعظم ولانهم الدولة (١) .

---

(١) فى المكتبة الأهلية فى رامبور بالهند ، مخطوط لمظهر التقديس تحت رقم ٣٦٣٤ تاريخ نسخة ١٢١٦ ولم يذكر اسم ناسخه . وهو فى ١٧٥ صفحة . وقد أخذت له الإدارة الثقافية بالحامسة المصرية صورة فتوغرافية مملوطة فى معهد إحياء المخطوطات بها تحت رقم  $\frac{٣٠٢٣}{٢٧٥-٩٨}$  ويقول الأستاذ رشاد عبد العلق خبير المخطوطات بالحامسة المصرية إن هذا للمخطوط « قد يكون نسخة المأول » .  
وتوجد من عجائب الآثار مخطوطات كثيرة فى مكاتب المانيا وفرنسا وانجلترا وروسيا والهند واستانبول .

## الفصل الثاني

الحياة الفكرية والاجتماعية



هذه الحياة الفكرية والاجتماعية ، التي سجلها الجبرتي ، عن غير قصد ، ومن غير ترتيب ولا تبويب ، من أجل ما دونه . ومن أهم ما حفظه لنا من صور هذه الأيام ، التي لم يسجلها سواه . وفي هذه الحياة الاجتماعية خاصة ، نرى من العادات ، والتقاليد ، والأفكار ، والمتفكرات ، ما لا تزال نجد شيئاً منه ، أو هو منه قريب ، في حياة المجتمع المصري الذي نعيش فيه . أو ما كنا نراه إلى وقت قريب ، ثم جاءت الحياة النورية الجديدة تمحو من صفحاته سطرًا فسطرًا ، وتخط فيها سطورا جديدة ، تصور مجتمعاً جديداً ، أو خليطاً من قديم وجديد .

وقد سجل الجبرتي هذه الصفحات من حياة مصر الاجتماعية والأدبية ، في ثديا هذه الحوادث التي دونها يوما فيوما ، أو بين تراجم الذين ترجم لهم في وفياته التي كان يخصص لها غالباً ، الفصول الأخيرة من ختام السنة التي يؤرخ أيامها ، وما كان فيها من حوادث ووقائع . وما حدث فيها من أمور . وقد تكون هذه الحوادث والوقائع والأمور ، التي قصد الجبرتي إلى تسجيلها ، أولاً وباللغات ، أقل شأنًا ، أو هي كذلك الآن على الأقل ، من هذه الصور الحية ، الخلابة ، الصادقة ، التي جاءت تبعاً لهذه الحوادث من صور الحياة الاجتماعية .

وليس من الطبيعي أن نطالب الجبرتي بتسجيل مظاهر الحياة الاجتماعية التي كان يحياها الناس إذ ذاك ، في القاهرة ، أو في الريف . فذلك فن من القول والكتابة جديد ، لم يعرفه الناس في عصره ، ولم يتنبه له كاتب أو مؤلف . والذي يعيش بين الناس ويري عاداتهم ، ويشارك فيها كل يوم وساعة . لا يتنبه إلى ما يحد على حياتهم وحياته من تطور أو تحول بطني ، وما يدخل في هذه الحياة أو ينمحي فيها ، أو يمتزج بها بفعل الزمن ، وتأثير الخلطة والاتصال بين الناس ، بالتجارة ، أو الحرب ، أو السفر . إلى غير ذلك من شؤون الحياة التي لا تأتي عن التطور والتحول والمزج .

وهو لذلك يمتد ، أو يشعر ، بأن هذه الماديات التي اعتادها معاصروه ، والحياة التي يلابسها معهم في كل شأن وأمر ، ستبقى ، كما هي ، لا يمسها تغيير

ولا تبديل . فليس مما يغيد أن يسجلها ، أو يكتب فيها ، على فرض أنه تنبه لأن يكتب أو يسجل من ذلك شيئاً .

ولكن الجبرتي خرج عن هذه القاعدة ، في فترة من هذه السنين التي سجل تاريخها في كتابه . وهي فترة الحملة الفرنسية . فقد سجل ، أولاً وبالذات ، طائفة من الآثار الاجتماعية ، التي حملتها جنود هذه الحملة في القاهرة . وقد وفينا ذلك حقّه فيما كتبناه عن أثر هذه الحملة في ختام هذا الجزء .

وخروج الجبرتي عن القاعدة في هذه الفترة ، أمر طبيعي ، فإن الأثر الذي أو جدته ، وخلفته ، هذه الحملة ، كان من الوضوح والقوة ، بحيث تنبه له الجبرتي ، وأحس بنفسه وقعه في حياة المجتمع القاهري ، الذي كان هو أحد أركانه ، وعمده ، وخاصة في حياة المرأة . ونحن نعرف ، وما نزال نلّس في مجتمعا الحاضر ، ما يحسه المجتمع المصري نحو المرأة ، وما يلاس شؤونها ، ويمس سلوكها ، وأخلاقها ، ومديسها ، وآدابها . والناس في مصر والشرق ، لهم حساسية شديدة ، نحو ما يتصل بالمرأة ، وشأنها كله .

والحياة الفكرية ، في العصر الذي أرخه الجبرتي ، تكاد تكون مقصورة على الأزهر ، فهو محور هذه الحياة ومنبعها ، وبيتها . حتى الذين ليسوا من علمائه ، أو رجاله ، كالسيد مرتضى الزبيدي ، أو كالجبرتي نفسه ، لم يكونوا بعيدين عنه ، ولا عن علمائه ورجاله .

ولم تكن هذه الحياة الفكرية خصبة ولا عميقة ولا قوية . ولكنها كانت حياة مصر الفكرية في ذلك التاريخ . وهي ، بلا شك ، لا بد أن تدون وتدرس بكل ما تستحق من أمانة ودقة وتفصيل . على أنها ، كما ترى بعد قليل ، لم تخل من شيء ، أو أشياء ، ذات قيمة .

#### النثر والشعر

كان النثر سجعاً ، غثاً ثقيلاً ، مردولاً . يمثله ما كتبه الشيخ حسن المطاط احسن ، أو أصدق تمثيل . فما أحب أن يذكر الحسن في هذا المرض .

والشيخ حسن المطار رجل من رجال هذا العصر الذي سجله الجرنى ، وهو حقيق أن نتوسع بمضى الشيء في الحديث عنه . لأنه كان منفرداً عن أهل عصره بأشياء تستحق أن تسجل .

ولد الشيخ حسن بن محمد المطار سنة ١١٨٠ وكان من علماء الأهر ، ثم شيخاً له . ولكنه تميز عنهم تلك الرحلات التي قام بها في كثير من البلاد . كما تميز بروح تجديدية جعلته يدعو دعوة خافتة لأن تنأثر مصر بالحضارة الأوروبية . وهذه الدعوة الخافتة هي بمثابة ثورة إذا رعبنا ظروف البيئة والزمن .

كان أبوه ، الشيخ محمد كثر ، رجلاً فقيراً عطاراً ، ولكنه يشتمل بالعلم . وكان ابنه هذا يمينه في دكانه ، ويستمع إلى شيء من علمه . ولكنه كان يرغب في العلم أكثر مما يرغب في ممارسة البيع والشراء في شؤون العطارة . فكان ينمى من دكان أبيه إلى الأهر فيحضر دروس العلماء فيه . يفعل ذلك خفية من أبيه . فلما عرف أبوه ذلك وعرف أنه حفظ القرآن ، سر به كثيراً وساعده على التقدم في طلب العلم والاطمئنان له .

(ثم جاء الفرنسيون مصر وهو شاب عالم صغير . تخاف على نفسه منهم ، وهرب ، كما هرب كثيرون غيره من العلماء ، فزح إلى الصعيد . ثم عاد إلى القاهرة فاتصل بطائفة من رجال الحملة الفرنسية يتعلم منهم أشياء من معارفهم ، ويعلمهم اللغة العربية . » ويقول إن ناددا لا بد أن تتغير أحوالها ، وتتجدد بها من المعارف ما ليس فيها . ويتمتع مما وصلت إليه تلك الأمة — الفرنسية — من المعارف والعلوم ، وكثرة كتبهم وتحريرها ، وتقريبها لطرق الاستفادة<sup>(١)</sup> .

ثم سافر الشيخ بعد ذلك إلى الشام فأقام فيها زمناً . يتطارح الشعر مع شعرائها ويراسل علماءها ويصف غوطتها ومنازلها .

ورحل بعد ذلك إلى تركيا فأقام فيها زمناً طويلاً . وخاصة في بلدة سكودرة ، حيث تزوج من أهلها وأعقب . ولكن عقبه مات ، ثم عاد بعد ذلك إلى مصر وقد زاد علماً وخبرة ومعرفة . وجلس يدرس التفسير ، فكان العلماء يتركون

(١) م ٣٨ خطه على باشا مبارك جزء ٤ .

حلقات غيره ويتكاثرون على حلقاته يستمعون . وقدم في أيام محمد على رجل من الدروز اسمه بطرس ، وكان ذا علم بالتواريخ والأنساب والأيام وعلوم العربية ، فحرف إليه الشيخ وكانت بينهما صداقة ومحبة ، ومدح بطرس الشيخ بشيء من الشعر .

وللمطار مؤلفات عدة ، في علوم الفقه والنحو والمنطق ، ورسائل في الهندسة والعلب ، والتشريح ، والرمل والزراعة . وكانت أسرته في الأصل من بلاد المغرب . وكان يرسم المزاويل لمعرفة الوقت بالليل والنهار .

كما كان من أصدقاء الجبرتي الحميمين . ولكن المطار تقرب إلى محمد على عند ما استقر له الأمر ، وخدمه . وأنشأ فيه الدأخ وفي ابنه إبراهيم ، وأهدى إليه كتابه في الرسائل . واختاره محمد على محرراً للقائع المصرية ، أول صدورهما . ثم ولاء مشيخة الأزهر ، في الرابع من شوال سنة ١٢٤٦ بعد وفاة الشيخ الدهموي . وبقي في المشيخة إلى أن مات في سنة ١٢٥٠ بعد وفاة صديقه الجبرتي بتسع سنوات . وقد انحاز المطار إلى محمد على ، كما رأينا ، وخاصمه الجبرتي خصومة عنيفة متصلة . ولكن هذا الخلاف في الاتجاه والمنهج لم يبعد ما بين الصديقين ، ولم يوهن ما كان بينهما من محبة وود . حتى أن الجبرتي بعد موته ، تكفل المطار بأسرته وعقبه . وأعانهم على الحياة عونا مخلصاً .

وكان المطار شاعراً ناثراً . ولا أريد أن أفتبس شيئاً من نثره ، فقد طبعت قطعة كبيرة منه يمكن أن يرجع إليها من يشاء<sup>(١)</sup> ولكني أقول فهرس هذا الكتاب الذي جمعت فيه هذه القطعة من النثر . ففيها دلالة على ما تناوله الشيخ من مواضيع . ودلالة أيضاً على ما كان يفكر فيه الناس ، ويتناوله الكتاتيون من شؤون الفكر . وفيها كذلك إشارات إلى شيء من الحياة الاجتماعية في ذلك العصر . وكان الناس يتخذون من هذه الرسائل وأمثالها نماذج ، أو يقتبسون منها في كتبهم . تبدأ رسائل الشيخ ، بعد المقدمة ، بالنوع الأول من الرسائل ، وهي في

---

(١) طبعت رسائل الشيخ المطار في المطبعة العثمانية بالقاهرة سنة ١٣٠٤ هـ وذكر فيها أنها بحسب سأنقاء ، لاسلكه .



مخاطبات الملوك والأمراء ، في الدولة العثمانية . ثم مخاطبات القضاة ، والعلماء والمشايع . ثم في رسائل الإخوان . وتقرىظ ترجمة ألفية ابن مالك للغة التركية ، ثم قطعة من كتاب ألفه في رحلته إلى الشام . وصف بها دمشق ، ومنازلها . وقطعة أخرى في وصف القسطنطينية وخليج البسفور . ثم أورد بعد ذلك أبحاثاً من الشعر يفتتح بها الكاتب رسائله ، أو يضمها إليها ، أو يستشهد بها . ومجموعة من « الطرائف والظرائف » . وهي أمثال « تحاضر بها الكتاب » ، ويحلون الكتاب » . ثم تحتم الرسائل بمجموعة من النماذج لكتابة العقود ، والشروط ، والصكوك . مما يتعلق بحياة الناس ، ومعاشهم ، وتجارتهم . ومنها صيغة لكتابة عقد العتي للرقيق ، والتدبير<sup>(١)</sup> وفي هذه الرسائل صفحات من النثر المرسل . ليس فيها ذلك السجع الثقيل .

وما كتبه المطار في وصف منازل القسطنطينية . ومياه البسفور ، وهي قطعة من كتاب ألفه في رحلة إليها ، خير مثل — في تقديري — لأسلوب الشيخ في نثره<sup>(٢)</sup> .

وللشيخ حسن المطار شعر ، لعله خير من نثره . فمن ذلك هذا الشعر الذي وصف فيه بركة الأركية ، وما كان له فيها من مسرات ، وما كان حولها من قصور :-

بالأزبكية طابت لي مسرات	ولذي ، في بديع الأنس ، أوقات
حيث المياه بها ، والفلك ، سابحة	كأنها الزهر تحويها السموات
وقد أدير بها دور مشيدة	كأنها ، لبدور الحسن ، هالات
والماء ، حين سرى رطب السيمية	وحل فيه من الأدواح زهرات
كسايفات دروع ، فوقها نقط	من فضة ، واجرار الورد طعنات

وللشيخ حسن المطار قصيدة في مدح صديقه الشيخ أبي القاسم المغربي ، شيخ رواق المغاربة . أورد بعضها الجبرتي في مظهر التقدیس<sup>(٣)</sup> وقال إنها طويلة ، وهذا معلومها :-

(١) التدبير هو منح الحرية للقيق ، بعد وفاة سيده ، بتعليق الحرية على الوفاة .

(٢) ص ٧٤ — ٧٦ من الرسائل .

(٣) ظهر الورقة ١١٤ من المخطوط .

انهض ، فقد ولت جيوش الظلام      وأقبل الصبح ، سفير اللثام  
وغنت الورق ، على أيكها      تنبه الشرب لشرب المدام  
والزهر أنقى ، في الزبا ، باسمها      لما سكنت ، بالطل ، عين النعام  
والنصن قد ماس بأزهاره      لما غدت كالدرد في الانتظام  
وعطر الروض مهوور الصبا      على الرياحين ، فأبرى السقام  
كأنما الورد على غصنه      تيجان إبرير على حسن هام  
كأنما الند رائد خلعان أغد      صان النقا ، والنهر مثل الحسام  
كأن منظوم الزراجين<sup>(١)</sup> ياقد      وت غدا ، من نظمه ، في انسجام  
كأنما الآس عذار على      وجنة خشف<sup>(٢)</sup> قد علاها ضرام  
كأنما الوراق ، لما شددت ،      تنلو علينا فضل هذا الأمام

وفي رسائله رسالة من عاشق إلى معشوق .

وله شعر لم يدونه الجبرقي منه هذه القصيدة التي قالها في تهنئة صديق له كان  
قريباً لأشراف القدس ، وأبعد عن النقابة ثم عاد إليها مرة أخرى ، وأولها :

الحمد لله على فضله      قد رجع الحق إلى أهله  
وأض روض الفضل داهجة      من بعد ما أشفق من محله  
قد يطلب الحسنة من لم يكن      كفؤاً لها ، للحمق في عقله  
ومنها :

قد يتساوى اثنان في منصب      وإنما التفريق في سبله  
ومفخر المرء بأفعاله      لا بالتى قد مات من أهله  
وقد يسود الشخص آباءه      ويشرف الفرع على أصله  
وقد نرى هرعين من دوحة      تخالفاً في الحكم ، مع شكله  
فالخل والخمر عصير ، وقد      باين هذا داك في فعله

(١) الزرجون شجر العنب ، بلية أهل الطائفة وفي قصبايه .

(٢) الخشف ، يثيث الخاء ولد العلي ، أول مابولد .

وله هذان البيتان في وصف مدينة أسيوط . وكان قد أقام فيها زمناً هرباً من

الطاعون :

سقياً لأسيوط ، ذات الظل والشجر ومرتع اللهو ، والذات ، والأزهر  
منازل تصنوف العيش عامرة يلهو النديم بها في مشتهى المطر  
والشيخ ، وقد عرفنا أنه تولى مشيخة الأزهر ، هذا الغزل الذي أورده  
الجبerty :

أعن الحب ثنائك عنه وحيه . . . ؟ أم قد دعائك إلى البعاد رقيه . . . ؟  
هجر الكرى ، لما هجرت ، وواصلت . ه شجونه ، وازداد فيك تحيه  
لم يحزن ذنباً ، في هواك ، وإنما قد كان ، بالمهجرات ، منك نصيه  
أفقرته من حسن وصلك ، بعدما جأت عليك جموعه ، ونسبه  
وتركته ، والفكر منك مع النها ر ، صبره ، والسهد منك مديه  
لو لقا عطفتك منه شكايه رقت ، ودعم طافح شؤبه  
لأبت حبا كالخلال ، من الضنا وطيب قلب ، مقتلته تذيبه

أفلا رثيت لما شق لعبت به أبدأ النون ، ونازعت خطوبه  
أنت النعيم له ، ومن عجب تعد به ، وتمرضه ، وأنت طيبه . . . !

وهذه أيضاً ، وقد قالها في مدح إبراهيم بن محمد علي عند عودته منصوراً

من الشام :

سمري يشني ، أم عسن بان . . ؟ أم قوام ، دونه ، صرى بان . ؟  
صان بالصال<sup>(١)</sup> معسول اللمي وتهادي ، هادماً ما أنا بان  
يا مليك الحسن ، رقاً بشجر كلما حاول كتم الشجو ، بان  
مرج البحرين فيضا ، دعمه إذ رأى جفيله لا يلتقيان

(١) العسال الرمح .

جاء ، لما جار سلطان الهوى      طالباً ، من عادل القدر ، الأمان  
رب ساق ، وهو قاس قلبه      عطفه ، منذ أدار الكأس ، لان  
أهيف إن ماس تيهاً ، ورنأ      رحت منه بين سيف و سنان  
كسر القلب ، وما كان التقي      فيه ، من حين هواء ، ساكنان  
... ..

يا نديي قم ، وبأكرها ، وطب      هذه الجنة والحدود الحمان  
وأدر لي بنت كرم عتقت      نورها الباهر يحكي الهرمان<sup>(١)</sup>  
ولا نجد هذا الحديث كله عن المطار عند صديقه الجبرتي . وقد أكلناه من  
سيرة كتبها ابن له . وحفظها على مبارك في الجزء الرابع من خطه .

### الشيخ عبد الله الشرقاوي

وهناك شيخ للأزهر آخر ، هو الشيخ عبد الله الشرقاوي . وكان  
من كبار الرجال في ذلك العصر ، ورئيساً ثلاث مرات للديوان الخاص  
الذي أنشأه نابليون وخلفاؤه . وقد كتب الشيخ رسالة في تاريخ مصر سماها « تحفة  
الناظرين ، هيمن ولي مصر من الولاة والسلاطين<sup>(٢)</sup> » وجعل هذه مقدمتها : « إنه  
لما حل ركاب الصدر الأعظم ، والوزير الأعظم ، والدستور الأكرم ، حضرة مولانا الوزير  
يوسف باشا ، بلغه الله من المرات ما شا ، بمدينة بلبيس في شهر رمضان سنة ١٢١٤  
بعد حصول الصلح بينه وبين طائفة الفرنساوية ، في قلعة العريش ، وذهبت مع  
بعض علماء مصر لملاقاته ، طلب مني بعض الإخوان ، من أتباع ذلك الصدر  
الأعظم ، أن أجمع كتاباً متضمناً لواقعة الحال المذكور . »

(ومن رسالة الشيخ الشرقاوي هذه ، تحفة الناظرين ، نستطيع أن نعرف  
مستواه الذهني ، ومدى فهمه للتاريخ . كما نعرف ، في ثنايا صفحاته ، قيمة إدراكه  
الوطني ، وإحساسه ، أو رأيه ، في أهل مصر .)

(١) الهرمان نوع من الياقوت الأحمر ، وهو فارسي

(٢) طبعت هذه الرسالة في المطبعة الوهبة بالقاهرة سنة ١٢٨١ هـ في ٧٢ صفحة من

أما إدراكه الوطني فقد يبدو في هذه الصفحات ، التي ذكر فيها خصائص أهل مصر ، وصفاتهم الغالبة ، والتي تنقل منها هذه السطور : « ... وإن أهل مصر ، الغالب عليهم الأفراح ، واتباع الشهوات ، والانهماك في اللذات ، وتصديق المحالات . وفي أخلاقهم رفة ، وعندهم بشاشة ، ومثقة ، ومسكر ، وخداع . ولا ينظرون في عواقب الأمور . وعندهم قلة العبر في الشدائد . والقنوط من الفرج . وشدة الخوف من السلطان . ويخبرون بالأمور المستقبلية ، قبل أن تقع » (١)

(وقد يكون هذا الذي سجله الشيخ ، بعضه أو كله ، من صفات أهل مصر الغالبة . ولكنه ليس كل صفاتهم ، على التحقيق . وليس صفة ملازمة لهم على الدوام في كل الأزمان . فهو لم يذكر لهم صفة حسنة طيبة ، في مقابل هذه الصفحات ، الممينة).

وأما مستوى ذهنه ، ومدى فهمه للتاريخ . فنحن مدركوه عندما نراه يقول - وهو يكتب التاريخ - إن أقصر الفراعنة أعماراً ، كانت أسنانهم مائتي سنة . وكان أطولهم عمراً ، سنه ستمائة سنة . وأن فرعون موسى كان قصيراً . طوله ستة أشبار . وطول لحية سبعة . . ! وقبل كان طوله ذراعاً واحداً . وأن هذا الفرعون بقى على عرش مصر خمسمائة سنة .

وأن بعض الفراعنة ، كان من الكهان . وكانت لهم أعمال عجبية . فمن ذلك ، كما يقول الشيخ ، أن الملك الكاهن ، صيلم ، اتخذ مقياساً على النيل ، وأنشأ بركة من النحاس عليها عقابان ، ذكر وأنثى ، وفيها قليل من الماء . فإذا كان أول شهر يزيد فيه النيل ، اجتمعت الكهنة وتكلموا بكلام . فيصفر أحد المقايين . فإن كان هذا الذي صدر منه الصغير ، هو الذكر . جاء النيل عالياً . وإن كانت الأنثى جاء ناقصاً .

ومنها أن الملك الكاهن ، أعشامش ، عمل ميزاناً في هيكل الشمس . وكتب على إحدى كفتيه كلمة « الحق » وعلى الأخرى كلمة « الباطل » ووضع تحت كل منهما فصوصاً . فإذا جاء إليه متخاصمان ، أخذ فصين ، وقرأ عليهما كلاماً . وجعل كل فص منهما في كفة . فتثقل كفة المظلوم . وترتفع كفة الظالم .

ومنها أن فرعوناً من هؤلاء السكهان كانت له امرأة يرى فيها الأقاليم السبعة ، الحصب منها والجذب . وينظر فيها فيرى ما حدث من الحوادث . وأنه أقام في وسط المدينة تمثال امرأة جالسة ، وفي حجرها صبي ، كأنها ترضعه . فإن أساب امرأة مرض في جسمها ، مسحت ما يقابل هذا الوضع من التمثال . فقبراً من ساعتها .

ووضع فرعون آخر من هؤلاء ، شجرة أغصانها من حديد ، ولها خطاطيف . فإذا قرب منها الظالم خطفته ، وتعلقت به . فلا تتركه حتى يعترف بظلمه .

وعمل فرعون آخر شجرة من نحاس . كلما قرب منها وحش لم يستطع الحركة ، حتى يؤخذ . فشبت الناس لحماً ، في أيامه . ووضع على باب المدينة صنمين ، عن يمين ، وعن شمال . فإذا دخل المدينة رجل من أهل الخير ، صحك الصنم الذي عن يمين الباب . وإذا دخل رجل من أهل الشر ، بكى الذي على اليسار . أما الملك السادس ، فقد كان يجلس في السحاب ، في صورة إنسان عظيم .

وقد غلب عن ملكه زمناً ، حتى ظل أهل مصر بلا فرعون . ثم رأوه ، في صورة الشمس في برج الحمل . فكلمهم ، من الشمس ، وأعلمهم أنه لا يعود إليهم . وأن يولوا فلاناً بدمه .

وضرب فرعون آخر درهماً ، إذا وضع في كفة الميزان ، ووضع في كفته الأخرى ما يريد أن يشتريه المشتري . فإن كفة هذا الميزان لا تشيل أبداً ، مهما وضع فيها من هذا الشيء الباع . ثم قال الشيخ ، إن درهماً من هذه الدراهم ، وجد في كنوز مصر ، في أيام بني أمية .

هكذا يكتب الشيخ عبد الله الشرقاوي ، التاريخ . وقد كان شيخاً للأزهر ،

ومقدما بين علماء عصره . ورئيساً مختاراً للدواوين الذى حكم الفرنسيون مصر ، عن طريقها .

وهذه النماذج التى ذكرتها ، وقصدت أن أطيل ، بعض الإطالة ، فى مردها ، لا تدل على مستوى الفهم ، والتفكير ، عند الشيخ وحده . بل هى ذات دلالة ، إلى حد كبير ، على المستوى العسكرى . لعلماء ذلك العصر .

(ومن المفيد أن نعرف أن للشيخ عبد الله الشرفاوى مؤلفات ، وكتب فى فقه الشافعية ، وشروح ، وحواش . تعتبر من أكبر المراجع المتداولة عند أهل الأزهر . والمقررة للتدريس فيه)

وفى كتاب تحفة الناظرين هذا ، أخطاء نحوية ، ولغوية يذكرها من يقرؤه . كما حفظت وثائق الحملة الفرنسية نماذج من توقيعات الشيخ عبد الله الشرفاوى وتقررات بخطه ، ومن إنشائه . كان يكتبها على ما يقدم للدويان من شكاوى ، وهى ركيكة الأسلوب . سوقية العبارة . فيها من الأخطاء اللغوية ما يجعل منه طلبية المدارس الآن<sup>(١)</sup> . وقد رأينا فى فصل « الأزهر والعلماء » أمثلة أخرى من شعر الشعراء منهم ، فى ذلك العصر<sup>(٢)</sup> .

### مصنوع البدرى الحجازى

ومن الشعراء الكبار ، الذين ترجم لهم الجبرى ، الشيخ حسن البدرى الحجازى . كان عالماً ، شاعراً ، ملازماً للقراءة والدرس ، قليل الخطئة بالناس كثير التقدر لأهل عصره . نظم أرجوزة فى التصوف نحو ألف وخمسة مائة بيت ضمنها أمثالاً ، ونوادر ، وقصصاً . وألف ديواناً على حروف المعجم ، سماه « تنبيه الأفكار ، للنافع والضار » تعرض فيه لأخلاق الأشرار من الناس ، وانحراف طائفتهم . وله رسالة فى الأشكال المنطقية . ورسائل أخرى فى الوضع ، والنحو . والمنطق . وقد استشهد الجبرى بكثير من شعره فى مواضع كثيرة من كتابه . وتوفى سنة ١١٣١ هـ

(١) نشر الأستاذ أحمد حافظ عوس صورة فتوغرافية لهذه التوقيعات فى كتابه « فتح مصر الحديث » ص ٣٠٤ — ٣٠٨ نقلها عن وثائق الحملة الفرنسية .  
(٢) فى الجزء الثانى من الكتاب .

وللشيخ حسن البدرى الحجازى شعر يدل على أنه كان غير خاضع لم كان  
يخضع له الناس فى عصره من أفهام وأوهام . ولو أن أسلوبه ردى .  
فإن ذلك هذه القصيدة ، التى يتعرض فيها للجاهلين من مدعى الولاية والصلاح .  
ولصنف من « العلماء » : — وقد قالها فى الشيخ على البكرى .

لبنّا لم نعش الى أن رأينا	كل دى رجّة ، لدى الناس قطنا
علما ، هم به يلودون ، بل قد	نخذوه ، من دون ذى المرش ، ربا
إذ نسوا الله ، قائلين : فلان	، عن جميع الأنام ، يفرج كبرا
وإذا مات يجمّلوه مزارا	وله بهرعون ، عجا وعربا
بعضهم قبل الضريح ، وبعض	عتب الباب قلوبه ، وزبا
هكذا المشركون تفعل مع اس	مامهم ، تتنق بذلك قربا
وألو السلم والقرآن ، عليهم	سب سوط العذاب ، والمقت ، صبا
إذ رموهم بالفسق ، والزور والجو	ر ، وظلم العباد ، سلبا ونها
كل ذا من عمى البصيرة ، والوي	ل لشخصى أعمى له الله قلبا
والحجازى ، من سمى حسا ، يد	طر ماخالف الشريعة ، صعبا
فالخذار ، الخذار من فعل أهل	جهل ، لو عالما يدرس كتبنا
جمل العلم فنجّ صيد لدينا	ه ، فساوى ، فى صنعة السوء ، كلما
لا ، بل الكلب منه خير ، إذ الكا	ب عديم العقاب ، فى يوم عقبي

وله هذان البيتان فى بعض العلماء : —

رب قصير فى الورى ، لحيته طولها الله ، فلا فائدة  
كأنها بعض ليلالى الشتا طويلة ، مظلمة ، باردة  
وكان الشيخ الحجازى كثير التمرض لهذا الصنف من الناس . يذكرهم  
بهذه الأوصاف فى كثير من شعره . كهذه القصيدة القاسية ، فى مدعى الولاية  
والتصوف : —

إحذر أولى التسبيح والسبحة والصوف ، والمكاز ، والشملة  
والدلق ، والأبريق . لا سيما شيوخ إبليس ، أولى الشرعة



حوت أبليس بتعداد ما حوت سمورا ، بل بلا عدّة  
والكر ، فأت الحصر كالبحر ، بل يمدّ فيه البحر كالقطرة  
فصار إبليس لهم تابعا يقول : يا للعون والنجدة  
مما حوّن علموني ، فما لي عنكم ، في الكر ، من غينة  
لكم قيادي ، وانقيادي ، وما مثلكم في الناد والندوة  
بملء لافواه ينادون : يا أهل الوفا ، يا صاحب النوبة  
يا شافعي ، يا قطب ، يا رافعي ، يا بني الرفعة  
يا سيدي أحمد ، يا أوليا ، الكون ، عينونا على الحلة  
ذو كرة ، والمال يبنون ما لهم ، بغير المال ، من نية  
لكنهم ، في الفسق ، أرقى الوري كما ترى ، من غير ما مرية  
اتخذوا الرد مراد لهم سالكوا فيهم على الهلكة  
وهي قصيدة طويلة ، قسا فيها على هؤلاء الدعين قسوة بالغة ، ولكنها  
صادقة مخلصه . ووصفهم وصفاً يثير النفس . وهذه القصيدة نفسها ترسم صورة  
تستحق التأمل ، لناحية من نواحي الحياة الاجتماعية ، والدينية في هذا العصر .  
ونوع آخر من أنواع الشعر ، أكثر منه البدرى الحجازي . وهو شعر  
النصيحة ، كهذه القصيدة التي مطلعها : —

أخى فطنا كن ، واحذر الناس جملة ولا تك مغرور الظنون الكواذب  
وقوله : —

كن جار كلب ، وحار الشرة اجتنب ولو أخاك ، من أم ، برى ، وأب  
و : —

حذار حذار من قرب الأقارب فهم صلّ الأفعى ، والمقارب  
و : —

إذا امرأة ، يوما خطبت ، فلم تجب فدعها ، ولا ترجع لخطبتها ، العمرا  
وغيرها كثير .

وله كذلك شعر يتسم الفارسي حين يقرؤه . لما فيه من دلالة على دونه .

الذى هو سمعة من سمات أهل القاهرة . فهو ، مثلاً ، يقول هذه الأبيات يشكو بها ما يرى من قذارة بعض الأحياء التى يعيش فيها الفقراء من « أولاد العرب » . وهى أبيات تصلح للاستشهاد ، فى بعض هذه الأحياء ، إلى الآن : —

حارات أولاد العرب سبماً حوت ، من السكرب  
بولاً ، وغائطاً ، كذا ترّب ، غباراً ، سو أدب  
وضجة . وأهلها ، مثل عفاريت الترب

وله كذلك ، شعر يسجل فيه كبير الأحداث التى وقعت فى عصره . كهذه القصيدة<sup>(١)</sup> التى أولها :

أيها الإنسان ، دع عمك الدّعش لا تكن ممن عماد الله عش  
وهى قصيدة طريفة ، أرخ فيها وقائع خليل باشا وإيواظ بك الكبير ، ويوسف بك الجزار . وحمل ختامها هذا البيت ، مؤرخاً به : —  
والحجارى حسن قد أرخا يوسف الجزار ، كأس قد قرش  
يريد أنه شرب كأس الموت .

### الأدكاوى

ومن الشعراء الذين ترجم لهم الجبرى ، الشيخ الأدكاوى . وقد عرفه بالمعدة العاضل الكامل ، والأديب الماهر ، الناظم النائر الشيخ عبد الله بن عبد الله بن سلامة الأدكاوى المصرى ، الشهير بالؤذن . ولد بأدكو ، بالقرب من رشيد سنة ١١٠٤ ، ثم قدم القاهرة فحفظ القرآن وحضر دروس العلماء ، وأدرك الطبقة الأولى . كالسيد على برهان زادة ، نقيب الأشراف ، وكبير أدباء عصره . والشيخ الشراوى ، والشيخ الحفنى . وكان ، إلى تميزه فى الشعر والنثر ، جيد الخط ، له فيه قاعدة اشتهرت باسمه ، وتدارسها الناس فى مصر .

وقد صار ، فى الشعر ، والنثر ، والخط ، أوجد زمانه ، حتى توفى شيخه الحفنى ، فتغير حاله ، واعتبرته الأمراض ، ومرض أياماً ثم مات ، فى يوم الخميس ، الخامس من جمادى الأولى سنة ١١٨٤ ، ودفن قريباً من قبر شيخه الحفنى .

(١) مر ١١٣ — ١١٤ ، الجزء الأول من الجرى .

وشعر الأدكاوى هذا ، أرق ، وأحود ، وأصح من شعر البدرى الحجارى  
وهذه نماذج من شعره ، وهو ، كأدب ذلك العصر كله . حافل بالجناس والنثرية  
والاقتباس . وما يشبه ذلك من المحسنات : —

سل الله ، ذا المن العظيم ، ولا تسأل      سواء ، فإن الله يعطيك ما تبغى  
ومهما نزل ما زمته ، يا أخا الحجبى      من الأمل المطلوب ، فأقنع ، ولا تبغى  
وله هذه القطعة اللطيفة من الشعر . وفيها تمبير كان يظن أنه من مبتكرات  
عصرنا . وهو التعبير عن الكتاب والأدباء ، بأنهم أرباب الأقلام أو حملة الأقلام :

وعصبة سوء تجافيتهم      وزهت ففسى عن دأئهم  
لحائى قوم ، على تركهم      وقالوا : ألسن من أ كفاءهم ؟  
قتلت لهم : عذرنا واضح      على ترك ساحة أحيائهم  
فنحن نعيش بأقلامنا      وهم عائشون بأقنائهم ... !

وللأدكاوى مبتكرات فى الشعر ، منها هذا الذى سماه « وسع الاطلاع »  
وقد قسمه أربعة أقسام ، أولها أن يكون أول كل كلمة ، أولا لأختها . ومنه  
يقول :

بهى بدا بالواصل ، برأ بصبه      بزورته بات بلابل باله  
وثانها أن تكون كل كلمة مكونة من حرف منقوطة ، وحرف عاطل ، سوى  
القافية . ومنه يقول :

جميل ، بديع ، جل ذاتا بهية      به زدت حباً ، فأتك بمجاله  
وثالثها أن يكون البيت مركباً من كلمات ، إحداها منقوطة والأخرى عاطلة  
ويسميه الأخيب ومنه يقول :

جنت ولوعاً ، فى هواه شغفت كم      فتت ، عسام يجتنى لكأله  
ورابعها أن تكون جميع الكلمات منقوطة ، ومنه قوله :  
شقيق ، شقيق ، شيق ، شنب ، شفى      بفتح . يجفنر شفى بباله

وله شعر مما لا يستحيل بالانعكاس . أى أنه يقرأ من آخره لأوله كما يقرأ من أوله لآخره ، فلا يتغير . كالشطر الثانى من هذا البيت :

بانعكاس قولنا لم ينمكس ألغ من نم ، فمن نم غلا

وله شعر النزم فيه أن تبدأ الكلمة بالحرف الذى ختمت به سابقتها ، كهذه الشطرة : تأمل لما أبداه هذا المهفف .

وهذا ، كما ترى ، لمب سخي ، وعبث ثقيل . استحال به الشعر إلى كلام معجم مردول .

ومن الغريب أن الأدكاوى ، التى يشتغل بهذا اللون من السخف الرذول ، يدعو معاصريه إلى أن يكونوا غير متعصبين لنوع من الشعر ، ولا لأحد من الشعراء ، أو عصر من العصور . كأنه رجل حر الفكر ، غير مقلد ، فهو يقول :

كن للمعاصر خير ناصر	كم للأواخر من مفاخر
لا تحقرن جديدم	كم فى جديدم جواهر
ودع التعصب ، للأوا	ئل ، يافى ، أو للأواخر
من كان منهم مبدعاً	فاعد عليه من الحناصر

ولعله كان يرى هذا اللعب السخيف ، الذى كان يخترعه ، نوعاً من الإبداع . ولكننا نجد للأدكاوى ، شيئاً غير قليل من شعر لا بأس به كهذين البيتين ، وقد قلما بعد أن شفى من مرض أشرف فيه على الموت .

قد حصل اللطف فى القضاء وقد أزال ربى ما كنت أخشاه  
ولست أشكو لغيره أبداً فالحمد لله ، ليس إلا هو

وهذه الأبيات ، التى قلما فى الراح والساقى الجميل ، الدلل ، وهى تحميس أبيات أخرى لابن منجك .

طاف بالراح مشتهانا الدلال ينفى ، مثل بانه تميم

قلت ، مذكرهم الكؤوس ، وأقبل

تعداك ساقياً ، قد كساك الـ حسن ، من فرقك الأضيء ، لسافك  
في معانيك حار فكري ، ووصفي فلالى الصفات أئدى ، وأخفى  
وعجيب ، من حيث تبدو لطرفي .

تشرق الشمس من يديك ، ومن فيـ لك الثريا ، والندر من أطواقك  
وهذين البيتين :

قالوا : تقربت يا هذا ، فقلت لهم : دعوا ملاي ، فإني غير مستمع  
إذا تقربت ، والدينار يصحبنى ، لم أدر ما غربة الأوطان ، وهو ممل  
وهذه الأبيات ، في النزل :

بقبلة جاد حبي وكان منى يفر  
فقلت : يا قلب أبشر فأول الفيت قطر

و :

نحن قوم إذا رأينا ملجأ جامعاً في جماله كل بهجة  
وأردنا بالاحتضال ، نراه ، نحمل الشرب ، للتفرج ، حجة !

وللأذكاروى بعض من الشعر المالحن . منه ما أحش فيه ، حتى خرج عن الحد  
ولا أستطيع أن أثقله في هذا الكتاب . فهو مما لا تجبر آداب الناس ، ولا يبيع  
القانون ، أن يكتب ويداع . هو مما سميته الآن بالأدب المكشوف .

ولكن ممناً من هذا الشعر ، فيه هزل وليس فيه غش ، أستطيع أن أثقل  
شيئاً منه ، كهذه الأبيات التي قالها في الصداقة الرائقة :

إذا المرء لم ينفعك ، والدرهم مقبل عليه ، ولم تحظر عليه يبال  
فصوره ، في وسط الكنيف ، بفحمة وشرشر عليه ، عند كل مبال  
وقد وضع لها بعد ذلك تخميساً فقال :

إذا المرء لم ينفعك ، والدرهم مقبل عليه ، بما قد كان يرجو ويأمل  
وأخفى ، بثوب التيه والسكبر ، يرفل وصار يرى منك المودة تثقل  
عليه ، ولم تحظر عليه يبال

مصوره ، في وسط السكتيب نفحة وكن ، حالة التصوير ، في وقت ظلمة  
ومر كل مبطون وصاحب تحمة على رأسه يخر . . . ، بزم ، وهمة  
وشرشر عليه ، عند كل مبال

وهذين البيتين : -

هيا بالان موسى خلو تحي النفسا  
قيل : - ما تفعل فيها . ؟ قلت : - أستعمل موسى !..

وقد وددت لو أني أستطيع أن أثقل هذا الشعر الماحن كله . فهو يصور  
هذه الروح القاهرية المصرية الخالصة ، في ذلك العصر . وهو صورة حية من الشعر ،  
ومن حياة الناس ، أو الأدباء ، وأهل الترف ، إذ ذاك . ولكن يستطيع القارى  
أن يجد في صفحات كثيرة من الجبرتي ، وخاصة في تلك التي ترجم له فيها ،  
عند وفاته <sup>(١)</sup> .

وقد ذكر الجبرتي أن له مقامة في المجون ، اسمها المقامة « القمزية » . ولكنه  
لم يدونها ، وليته فعل ، ولم يقل لنا معنى هذه التسمية

وللأذكاوي مقامات أخرى ، أورد الجبرتي واحدة منها ، اسمها المقامة  
السكندرية . وقد ألزم فيها أثقل القيود ، حتى صعب فهمها ، وأصبحت ثقيلة باردة .  
كما ألف كثيراً من الكتب . منها ، غير ديوان شعره ، بصاعة الأريب ، في شعر  
الغريب . وقد تناول فيه تراجم بعض معاصريه من أهل الأدب والعلم ، ومها  
الفوائح الخنانية ، في الدائغ الرضوانية ، كتبه في مدح الأمير رضوان الحلقي ،  
وسجل فيه ما قاله غيره من الدائغ في هذا الأمير . والدر الثمين ، في المحاسن  
والتضمين وتخميس بانت سعاد ، وهداية المهومين ، في كذب المنجمين وغيرها .  
وروى له الجبرتي بعضاً من الشعر ، جعل بعض أشطره جولا فارسية . وقد  
يدل ذلك على معرفته هذه اللغة . وقد لا يدل على ذلك — بل هي كلمات عرفها ،

(١) ص ٣٥٤ - ٣٦٥ من الجزء الأول .

وفهم مدلولها من أصدقائه أو مجالسه . ثم استخدمها في هذا الشعر إظهاراً للصنعة والقدرة .

ولكن ذلك، على أى حال ، يدل، إلى جانب ما أسلفنا من قبل، على أن اللغة الفارسية كانت ، إلى جنب اللغة التركية ، لغة غير مجهولة في المجتمع المصري ، أو في الحياة الأدبية لهذا العصر

وهذه أبيات مما ضمنه الأدكاوى اللغة الفارسية : —

وخود من بنات الفرس ألفت      عجبها لهيبا في حشائي  
وقد مسكتها رقي وحلّت      محل السر ، مني ، والوفاء  
تصامني بما يسبي فؤادي      وتمنحني سرورا باللقاء  
سطا فينا النوى ، فأثبتها كي      أمتع ناظري ، قبل التناي  
وقالت لي ، وقد أدت دموعا ،      على النحد المكمل بالبهاء  
بألفاظ تحاكي عقود در      «جه بودى كرنبودى آشنائي»<sup>(١)</sup>

وكانت بين الأدكاوى والشيخ عبد الرحمن العيدروسي مراسلات شعرية ، نجدها في ديوان هذا الأخير .

### الشاعر الطريف المحجّزى

وقد امتاز النصف الثانى من هذا القرن ، الثانى عشر الهجرى ، بهذا النوع من الشعر الطريف المالح ، الذى رأينا بعضا منه في شعر الشيخ عبد الله الأدكاوى ، في الصفحات السابقة .

فقبل سنتين من وفاة الأدكاوى ، مات شاعر آخر ، يشاركه في هذا الطرف،

(١) يمكن أن يترجم الشعر الفارسي إلى اللغة العربية بهذه الكلمات « ماذا تكون إن لم تكن عارفاً أو خيرا » . . . وهو معنى يتلائم وسباق الشعر ، ويكمل مدلوله .  
( م ه — المحرق )

وهذا المجون . كما يشاركه في صفات أخرى . وكان هذا الشاعر شريفا علويا . حاكما على المدينة .

ترجم له الجبرتي بأنه « وحيد دهره في الفاخر ، وفريد عصره في اللاثر ، نجمة السلالة الهاشمية ، وطراز المصابة المصطفوية . السيد جعفر بن محمد البيهقي السقاف بالعلوي الحسيني . أديب جزيرة الحجاز »

وقد ولد جعفر هذا بمكة ، ودرس على علمائها ، حتى أجاروه في أن يلقى دروسا ، غائبي في مكة دروسا . ثم تنقلت به الأحوال حتى تولى وظيفة الكتابة عند حاكم مدينة ينبع . ثم صار حاكما على المدينة . وتوفي بها ، في سنة ١١٨٢

أنشأ هذا الشاعر العلوي كثيرا من الشعر ، في المدح ، والغزل ، والمراسلات . ولكن الجبرتي لم يحفظ لنا غير طائفة يسيرة من شعره . وقليل من المقامات التي أنشأها .

أما مقاماته ، فليس فيها سوى السجع التكلف ، الثقيل ، المصنوع ، وإن كان بعضها يحتوي قصة ظريفة هازلة . كما يحتوي شعرا ظريفا أيضا . وأما شعره ، فهو سمح ، سهل ، يسير . نستطيع أن نضعه حيث يوصع الشعر الجيد ، أو الحسن ، بالقياس إلى ما نجد من شعر ذلك العصر .

فشعر جعفر السقاف العلوي ، حاكم المدينة ، وأديب جزيرة الحجاز ، من أجود ما نجد من ذلك الشعر الذي سجله الجبرتي ، لمن ترجم لهم ، أو روى لهم شعرا . ويقول الجبرتي إن الناس كانوا يتهاوتون على شعره ، ويبادرون إلى حفظه ، وترديده .

ومن شعره هذه القصيدة : —

حي بكأسك لي ، مع نسمة السحر ، وسلسلي : الراح ، من نحري إلى سحري  
حي براحك ، يا روحى ، على جسدى ، أفديك بالنفس ، يا صمعى ، وبابصرى  
هي بشمسك ، في ظل الشباب ، وفي ظل الغصون ، وفي ظل من الشعر  
هي وشقى « قيص النى » من قبل فالراح شقت قيص الليل من دبر



ووسطى بيننا ، فى الشرب ، واسطة  
حداك ، والروض ، أرهار مضاعفة  
ماهيك من جودة التجنيس بينهما  
صغى قناييك ، حول الكأس ، راكمة  
دنياك معشوقة ، والخمر ريفها .  
ردى عهدك لى ، كى أشتكى حزنى  
وهذا شعر ، كما ترى ، حسن ، إذا راعينا مستوى الشعر ، وطاقة الشعراء ،  
فى ذلك العصر . وهو شعر طلق ، رقيق . فيه كثير من الحرية . وفيه روح الترف  
والنعم ، وما هو حدير أن يصدر عن شريف كان أميرا على المدينة .

ومن شعر جعفر ، أيضا ، هذه القصيدة ، يمدح فيها صديقا : —

تلك رؤيا ، فصصتها لك ، فافطر  
وعرضنا فنزّ حظ عبيط<sup>(١)</sup>  
ولك الأمر فيه ، حلا ، وعقدا  
صحّ قلب العيان فيه ، وأضحى  
ثم قلنا للكيماء سلام  
وفرغنا ننظّم الدر من مه  
واشتغلنا ، مع الحبين تتلوا  
فساقى من تلك كاسا دهاقا  
شيما ، لو تجسمت ، منك كانت

لى ، فيها ، اثأويل ، والتعبيرا  
وأفضنا ، لأياك ، التدبيرا  
ربما عاد ثابتا إكسيرا  
جائر ، قلبه ، به ، مكسورا  
قد كفينا التصعيد ، والتقطيرا  
فى مساميك ، غدوة وبكورا  
لك فرقان مدحة ، وزبورا  
كان ، فينا ، مزاجها كاهورا  
هى ، للناس ، جنة وحريرا

...

وإذا ما رأيت ثم من المح د ، مقاما ، رأيت مذكا كبيرا

(١) من معاني « عط » ، فى الفاموس ، الداهية تعيب الرجل ، من غير استحقاق  
وعبد الذبيحة نحرها من غير علة .

أبدا ، في مواكد الفخر تسته بد كسرى الملوك ، أو سابورا

...

يا لأنسان رضة ، أنت ، فينا يرحم الطرف ، إن رأك ، حسيرا

بيت حبي ما زال فيك مدى الد هر ، دواما ، مشيدا ، معمورا

فتقبل ، إليك ، حور معان قد سكن الألفاظ ، مني ، قصورا

...

وابق ، واسلم ، كما تشاء العالي نبق ذكرى خير ، وتقنى الدهورا

أبدا ، كلما خصصت بمدح وسعى ، نحوك ، القريض ، سفيرا

ونحن نرى في هذه القصيدة شيئا من الثقافة المديية . فهو يذكر ، من مصطلحات الكيمياء ، العنز ، والأكسير ، ومن تجاربها التصعيد ، والتقطير ، ويدكر اسم جابر بن حيان ، الكيمياء الكبير ، ليستخلصه في المقابلة بالكسور .

وللسيد الشريف العلوي شعر ألزم فيه التشبيه ، وانقلب والتبديل ، والكناية ، والترادف ، والأدخال والألفاظ . إلى آخر هذه المحسنات التي كانت تمجيب الذوق ، وتروق لسكثيرين من شعراء ذلك العصر ومتأدييه . ولكن له ، إلى جنب ذلك شعرا مرحا ، لطيفا ، يكاد أن يكون باللغة العامية المصرية . أو هومنها قريب . فمن ذلك هذه القصيدة التي بحث بها إلى صديق له ، يدعوهُ إلى مجلس غناء وشراب :

يا ابن ودّي ؟ وصديق حال ما تقرا البطافة

إلبس العمة ، واحضر لا تكن عندك عافة

واركب الأدم ، واركض واعطه منك الطلاقة

واكتم الأمر ، وبادر غفلة ، دون الرفافة

كل الوفق الثلاثي ولنا ، نحوك ، شافة

فلدينا كنس راح واصطلاح ، واغتباقة

ومليح أخجل الأغصا ن ، لينا ، ورشافة

ومليح يشهى « لبلو من »<sup>(١)</sup> ، إن شئت اعتناقه

(١) « اليوم » الثقيل . « رسي » مرعب .

وقد ذكر الجبرتي أنها طويلة ، وتقل منها ، بعد هذه الأبيات ، أربعة أخرى ، من الأدب المكشوف .

وله أيضاً هذه القصيدة . وفيها من المرح ، والمطعم ، وحفة الروح ، شيء غير قليل . وفيها من السخرية بأهل البحر والصرف والعلة شيء أيضاً :

قد خلىنا أمس ، لكن	بقيت عندي خبيلة
فاسقما ، واشرب إلى أن	بقى ، في المجلس ، مثلة
ما يلد السكر حتى	يمضغ السكران نعله . . !
ويرى البغلة ديبكا	ويظن الفيل مثلة
أسمع القسيس قد د	ق ؟ لشرب الراح ، طيلة
غفلة الواشي اغتنمها	لا تكن عندك غفلة
إن تأخرت ، قليلا ،	كثبت سبعون رلة ... !
خل عي : قام زيد	فعدت هند وعبلة
ضربت ، تضرب ، ضربا	كل ذاك الصرف ، علة
حرت ، في يعقوب ، والزم	لي ، متى أعرف رمله .. ؟

وله هذان البيتان ، في تفضيل بعمة العقل :

فضلك رزق زائد ، فوق ما	ترزقه ، مع سائر الخلق
لأنه لا بد من بلفنة	ثم الحما رزق على رزق

ومن شعره ، في الأصدقاء والناس :

ومن تك قد جربته ، حمدته	فمض عليه ، بالنواخذ أجمدا
ولا تتحول عن أخ قد عرفته	لآخر ، ماجربته ، تندما معا
وما الناس إلا كالدواء ، فبعضه	شفي وكفى ، والبعض آذى ، وأوجما

وقد رأينا أنه كان كاتباً لحاكم يسع ، وله في هذه المدينة قصيدة لطيفة . وصف فيها ما رأى في المدينة من أنواع البعوض ، والبق ، والفيران ، والبرغوث ، والقمل وذكر ما لقيه من هذه الحشرات ، من الأذى . وما كان يشرب ، في ينبع ، من « ماء الزلاخ » الذي هو معجون الملل ، والوباء ، والسقم . وما كان يجده في طعامه من نمل وذباب . حتى أعضاء الفأر . كان يجده منها ، في الطعام ، أذنه وكراعه .

ويدكر أيضاً ما كان يجد من كربة الزائحة ، حتى ودّ لو جدد أنفه . وهذه هي القصيدة ، وقد عارض فيها قصيدة قديمة معروفة ، لفتح الله النحاس :

رأى البق ، في كل الجهات ، فراعهُ  
ولا تسألوني كيف بتّ ، فإنني  
نزلنا بجرمي يبيع البحر ، مرة  
نقارع ، من جند البعوض ، كتائبها  
فلو عاينت عيناك ميدان ركضه  
وجنداً ، من الفيران ، في البيت كامنأ  
ومن حط شيئاً في جراب وبطة  
وسرية<sup>(١)</sup> قل تنبري ، إثر سرية  
ينازعها البرغوث لحي ، فنيته  
فلو يجدد اللسوع ، من عظم ما به  
فرب قيص كان شراً من المرى  
كأنّ وصي للبراعيث ، قائم  
إذا شيع الملمون ، معجّ دماً على  
فما رشنا باللم ، إلا لسانه  
سلوا عن ذي سارى البعوض فإنني  
فله جلد صار ، بالحك ، أجربا  
ونتن « كنيف » كلما هان عرفه  
بخار كنيف ربما جلب المعى  
فلو كان يجدى المرء تجديع أنفه  
ولو كان قطع الأكل والشرب نافماً  
وكم قد أكلنا نملة ، وذباباً

فلا تنكروا إعراضه ، وامتناعه  
لقيت عذاباً ، لا أطيق دفاعه  
على غير رأى ، ما عشنا طباعه  
وفرسان ناموس ، عدمنأ فراعهُ  
رأيت جرى القلب ، فيه ، شجاعه  
متى وجدوا خرقاً ، أحبوا اتساعه  
فما رام ، عند الفأر ، إلا ضياعه  
خفافاً ، إلى مصص الدماء ، سراعهُ  
رضى بتلافى ، واكتفينأ نراعهُ  
من الصرخ درعا ، لاستخار ادراعهُ  
إذا ضمه اللتاع ، زاد التباعهُ  
أقيت له أيتامه ، وجياعهُ  
ثيابي ، فلا أحيا الإله شباعهُ  
ولم تر عيني مكروه وخداعهُ  
علمت ، يقينأ ، أنه قد أضاعهُ  
أخاف عليه ، يا فلان اتشاعهُ  
أحط به واثي الهوى ، فأذاعهُ  
وسبب ، للآقى إليه ، انصراعهُ  
نود ، الذي يأتي الكنيف ، اجتداعهُ  
لآثر ، بين العالمين ، انقطاعهُ  
وفأراً ، بلعنأ أذنه ، وكراعهُ

(١) جماعة : وفي الفاعوس : من معاني السرية ، أنها جماعة الخيل ، ما بين العشرين إلى الثلاثين .

وماء زلاخ ، صار معجون علة  
وباء ، وسقم ، لا محالة ، كله

... ..  
إذ ارتّم التاموس ، حولي ، أعلى  
وإن مص من دمي ومطار ، تبعته  
عدمت غناء ، مثل أنقام سحبه  
وقد فندت في دفعه كل حيلة  
فيا لأصيحابي ، اقتتلوني ومالكا  
وأصبحت ، في دار المشقة والمنا ،

ثم يقول ، من هذه القصيدة ، في وصف بعض هؤلاء الذين كان يخاطبهم من  
الأعراب ، هذه الآيات : -

وكلباً ، من الأعراب ، يموى كانه  
فلو صاح ، فوق الصخر ، خرّ نوقته  
براه إله الخلق ، للناس ، نعمة  
فلا رحم الرحمن أرضاً يحلها  
ومن كل جبار عنيد ، يرى النوري  
شقّ ، عصي الرحمن في كل أمره

ثم يقول في ختام قصيدته هذه : -

سأولنا عن الدنيا ، فكل نعيمها  
وما اعتصت من كوني أديباً ، وفاضلاً  
ومن كان يرجو ، في الأمانة ، منفماً  
وقولوا له : - هذاك ينمع حاضر  
فكم كاتب أفنى اليراع كتابة  
وكم بدوى داسه ، فوق بطنه ،

متاع غرور ، لا يديم متاعه  
لدى الناس ، إلا قوله ، ومماعه  
نفلوا له أوضاعه ، وخراعه ... !  
لمن رام يلو ضيره ، واتقاعه  
وملّ ، وألقى ، في التراب ، يراعه  
ومزق ، ما بين الأنام ، رقاعه

فمن جاءكم منا ، مع الليل ، شاردا      فذاك لهول واقع فيه ، راعه  
ومن يمتنع عن خدمة ، مثل هذه ،      فلا تنكروا إعراضه وامتناعه  
فما يكسب الكيال ، إلا غباره      ولا الكاتب المسكين ، إلا سداعه .. !  
وفي مقامة من مقاماته ، يتخيل أنه صار تاجراً عظيماً ، جزل ربحه ، وكثر ماله .  
فأراد أن يبدل ، من فضل هذا المال ، لأهله ، وأصحابه ، وجيرانه . فطفق يدور  
بين بيوتهم ، ينشد هذا الشعر اللطيف : —

ألا بشرى لجيرانى	مع الأصحاب والأهل
قد جاد لنا الولي	عمل الجود ، والعقل
ولا بد لأصحابى	من الإسماع ، والبذل
لهم منى ، مدى الأيا	م ، فضل الزاد ، والأكل
وكل يكتسب منى	على الهيئة والشكل
من الفرو ، إلى الجو	خة ، للعمة ، والنعل
وأيضاً خلعة ، أعطى	من الرأس إلى الرجل
مسجل ، يا غلام الله	ير ، خيراني ، على الكل
وناد الأهل ، والجيرا	ن ، وابتعث نحوهم رسل
وخطابهم ، إذا اجتمعوا	بدق الزمر ، والطبل
وقل : هذى مضايفنا	وهذى ، بقدرنا ، تغلي
من اللحم إلى الرز	إلى السمن ، إلى البقل
وأنواع من اللشو	ى ، والمغلى ، والمقل
وأجناس ، من الزربا	ج ، بالمشمش ، والنخل
ولا نخرج بأضيافى	إلى الشمس ، من الظل
وأما التقد ، قلحا	ضر ، عامود ، وفندقلى
ومن يطلب ، زنجربا	ه ، إن شاء ، برنجربى
فدعنى ألبس التاج ،	بهذا المجلس الحفل
وإن كنت تنحنحت	أنا ، يا عبد ، نعملى

ت ، لا يمدى ، ولا قبلي	تراني مقصد الحاجا
ن يوم الحرب . من مثلي ؟	تراني أقتل الأقسرا
ب ، هذي الخيل ، ياخلي	فإن كنت تريد الحر
وقبل ما شئت في فعلي	فقل ما شئت في فولي
على قصد الثنا ، صلي	وإن كنت توضأت
وصف سيني ، وصف نصلي	وصف جودي ، وصف عودي
من الأعداء ، كالمثل	فهذا الحبس ملآن
على الطرقات والسبيل	وهذا الخير مطروح
ن ، من وعز إلى سهل	نصيتي ، سارت الركبا
ل ، قد أصبحت درم لي ..!	هيبتي اليوم بالأموا

ثم تخيل ، بمد هذا الثراء والعطاء ، أنه قد ولي أمر البلاد والمالك ، من خراسان إلى عمان ، ومن السودان إلى عبادان ، ومن جزيرة العرب إلى غوطة دمشق ، وحلب . فقام يهب ، لا المال والطعام ، ولا القرو ، والحوحة والتعل . بل يهب الملك والحكم والسلطنة . ويقسم البلاد بين خلانته :

ثم رتب دفتراً للمطايا	وقسمت البلاد ، بين الأخلا
فنت ، ذاك الصديق أعطيه صنعا	في بني حمير ، الكرام ، الأجلا
وعلى فارس صديق ، وأرض الرو	م ثائر ، والهند أوليه خلا
حاصل الأمر أن كل محب	لي ، على قدر حظه ، يتولى
وأنا ، في السحاب ، يتي ، وتحتي	كل يوم ، إلى السما ، يتعملي

ثم ينزل ، ملك الملوكة ، من بيته في السحاب ، يسمى إلى شيء من مال بنحجز به عمله فيقول : —

واقتربنا ، في الحال ، العين دينا	را قضى بها ، هنالك ، شغلا
واشترينا حسين عبدا خصيا	منهم نصف ذاك ، إلا أقللا
واسمعتنا لهم ثلاثين قلوو	قا ، على رأسهم ، وللرجل نعلا





ومن على مذهب الحسبان ملكنا  
 إن كان عندك ، محض الوعد تحسبه  
 فمِدْ بِمَحْظَةِ بُولاق ، وقل : - معها  
 وأقرض بأناك قد قلدتني عملا  
 وولّني ساحل البحرين أجلبه  
 وجدّ يايوان كسرى ، والخورنق ، والقه  
 واعقد لي التاج ونمّا مثلك ، واجملني  
 وقل : وهبتك ما في الأرض من أنعم  
 ولا تكن خشية الإيفاق ، مقتصدا

كنوز قارون ، من مصر إلى عدن  
 أصلا من الجود ، أو فرعا من المن  
 مع ساحل الين ، غابات من اللّبن  
 بالهند ، أجبي صنوف الحز والقطن  
 بسوق سعدك « بازارا » بلا عن  
 ر الشيد ، وملك الشام واليمن  
 على طوائف ذى القربين ، في المدن  
 باللحم ، والجلد ، والأصواب ، واللب  
 مادام كنزك من وعد ، فأنت غني

ثم يقول ، في هذه القصيدة ، مخاطبا صديقه الذي أسرف في وعده باليدل ،  
 حتى أخذ يدعو جيرانه ، وإخوانه ليشاركوه في هذا الخير العميم ، الجزيل ، الذي  
 سيأتيه . كما رأينا في شعر هذه المقامة : -

لله وعدك ، مذ علمين ، أنشدني : -  
 أنا الميدي ، فسمع بي ولا ترى  
 خذ من علوي ، ولا تركن إلى عملي  
 ولا يفرنك ، مني ، خضرة الدمن  
 ققلت أجبري ، عند الله ، أطلبه  
 حولين ، يا وعد ، تسقيني وتطمعني ... ؟  
 من العجائب ، أبدت الشجاعة في  
 وعدي ، وعدت أكلت الحبز بالجبن  
 مبالغات من الأقوال تسمعها  
 لو كنّ في البحر ربحاً طرن بالسفن  
 إذا الذي جاد ، في الأحلام ، لي كرما  
 يهديك إني قد استغنيت ، من أذني ... !  
 فلا تكن تقطع التشریف عني في  
 كتاب ودك لي ، في لفظك الحسن  
 حتى أفوز بملك الأرض ، منك ، ولا  
 أرضي بأنني ، في عمدان ، ذي يزن  
 وخذ ثوابك ، وعداء ، مثل وعدك لي  
 هذا بذاك . ولا عتب على الزمن

وأعتقد أن هذا الشعر ، بما فيه من فكاهة ، ومهكم ، وتحيل ، وسهولة لفظ .  
 وبعد التجاوز عن بعض الهنات التي شابهته . يمكن أن يعد من الشعر الحسن .  
 وقد رأينا في هذا الشعر ، أسماء بعض الأزياء ، والثياب ، التي كان لبسها معروفا

في هذا العصر ، كالتقاووق ، والفرو ، والجوخ . وبعض ما كان يطعمه الناس في ماكلهم . وأسماء أنواع من العملة المتداولة إذ ذاك . مثل الزنجري ، والفندقلي . وقد نجد تفسيراً لها في مكان آخر .

كما نجد أيضاً كلمة « بازار » الفرنسية ، بمعناها الصحيح ، وهو السوق . ولم تكن الحملة الفرنسية قد دخلت مصر ولا الشام ، طبعا ، حتى تنتقل من جنودها إلى ألسنة الناس . وربما عرفها السيد جعفر ، من ميناء يدم ، حيث تسير اللغات وتنتقل . حيثما تسير السفن والتاجر .

ولهذا الشاعر الحجازي الشريف ، الطريف ، شعر من الأراجير ، ضمنه بعض النصائح الطبية وكيف تصنع بعض الأقراص ، والعقاقير ، والمسايق

وله قصيدة لطيفة ، مرحة ، يشكو فيها بعض إخوانه ، لأنهم تواعدوا على مجلس أنيس بهيج ، وتركوه . فهو يصف كيف كان يسألهم ، واحدا ، بعد واحد ، عن وجهتهم . حين لقيهم يوم هذا المجلس ، وكيف كذبوا عليه ، واستحلوا العادير ، واختلقوا أسباب الافتراق حتى لا يصحب واحدا منهم . وكيف سار كل منهم في طريق . وسلك ، إلى هذا المجلس الأنيس البهيج دربا ضيقا ، أو زقا ، وهو يخفي نفسه ، حتى لا يعرفه . ثم يقول لإخوانه هؤلاء : ماذا تظنون في . ؟ أروني عفيفا ؟ ثم يتهم إلى أنهم قوم لا ولاء لهم ، ولا حياة عندهم .

وهذه هي القصيدة :

قل لأشياعي « الذي » محبوبي	ثم راحوا ، من بعد مئة ليلة
ولأنصاري « الذي » حذوني	واستعاضوا ، سوى ، أنصاري
لا تظنوا في عفتي . هي ما هي	أنا قلت مذهب الباحية
أي دس جنيت ؟ .. حتى استرقتم	نفسكم ، للفقيل ، وقت المشية
واحد راح من زقاق القشامي	يتمشي ، في هيئة خفية
ورجال ، من الرايخ جاؤوا ،	ورجال من تحت جدر التكية
واحد حامل كتابا ، ورتي	أه مائر إلى الكتبية

وأخ قال : قد شربت دواء  
وصديق سألته : أين تبغى . ؟  
قد نذرت الصيام شهراً ، ولأد  
لا تحبث نفسى بذكر الكوازي  
أما لا أشهى الكباب ، ولا الرز  
قد زهدنا فى كل ما تشبهه النف  
عفت كل الطعام . قلت : فما المو  
وأتى آخر ، فقلت سلام  
ووراء شخص يمر حروفاً  
قلت : ما الحال ..؟ قال قد شرذ العبد  
قلت : قد مرّ عبدكم بطعام  
قال : عبيد يا قوت ..؟ قلت نعم ، قا  
إسم هذا المامى ، قبحه الله  
ثم ولى عجلان ، قلت انتظرنى  
أنا أولى بالجرى منك ، لأنى  
قال : أقعد بالله ربك ، أقعد  
ما يفوت العبيد ، وهو قريب  
ثم أنى سألت عن واقع الحا  
فيذا أنتم كما قد ذكرنا

وأريد الإسهال ، فى المنبرية  
فلوى رأسه ، وقال : قضية  
وشرطت الإفطار بالعدسية  
واللوازى ، والوزة المحشية  
ولا زرباجة ، ولا اللبنة  
س ، حتى الدجاجة المقلية  
جب . . ؟ قال : اللحوق بالصوفية  
فسمى مسرعاً ، ورد التحية  
حاملاً ، تحسنت كنه ، مطبقة  
د ، بشالى ، والفرو ، والفرحية  
وشراب ، من قبلكم ، من هنية  
ل : لقد بعته ، سهار الضحية  
ه ..... أمه الزنحية  
أطلب العبد معك ، للسريرة  
ما طعمت النداء ، وبطنى خلية  
بالنبي ، باليهود ، بالميسوية . . . !  
حول نخل الإمام والكركية  
ل ، وتلك القضية الخفية  
لاوة ، لاحيا ، ولا عصية ... !

وهذه القصيدة ، كما ترى ، هى قصة من الشعر طريفة عذبة ، فيها خصائص  
القصة من وقائع ، وحوار ، وحسن حيلة .

وقد ترجم الجبرتي لسيد آخر شريف . قدم مصر ، ونال فيها مكاناً ممتازاً .  
ولكنه لم يكن ، كالسيد جعفر الحجازى ، شاعراً ظريفاً . بل كان ، مع هؤلاء الشعراء  
صوفياً . وهو السيد عبد الرحمن الميبدرومى الحسينى التبري .

نشأ عبد الرحمن فى تريم ، بالمين ، وطوّف بالبلاد ، وأقام فى الهند عشر سنين

وقدم مصر ثم تركها مزاراً . وزار حزرية قبرص ، وإسلامبول ، والشام . ثم استقر في مصر وطاف في بلادها كلها . وحج سبع عشرة مرة . وكان أمراء مصر — على ما بينهم من فرقة واختلاف — يخضعون له . ولا يردون له شفاعة .  
 وشعر السيد العيدروسي لا يخرج عن مستوى الشعراء الذين رويناهم مضاً من شعرهم ، في هذا الفصل . وقد جمعه في ديوان سماه « ترويح البال وتهيج البال »<sup>(١)</sup> ودكر الخبر في له مؤلفات أخرى كثيرة معظمها في التصوف .  
 ولد في سنة ١١٣٥ واستقر في مصر سنة ١١٨٥ ومات بها في المحرم سنة ١١٩٢ .

### إسماعيل الظهوري

ومن شعراء هذا العصر ، شاعر اشتغل بالموشحات الأندلسية ، جاء منها شيء ما وهو الشاعر الناصر ، إسماعيل أفندي ابن خليل الظهوري . كان رجلاً قاصداً يتكسب بالكتابة ، جيد الخط ، حسن التوقيع فيه . وكان له متجر يبيع فيه إلى بوكالة البقل ، بالقرب من خان الخليلي . وهو إلى ذلك له معرفة جيدة بعلم الألحان ، والموسيقى ، وضرب العود . ومات سنة ١٢١١ .

ومن شعر الظهوري ، موشحة نظمها علي وزن موشحة ابن الخطيب الأندلسي أولها : —

ليت شعري ، يا أحلاء الهوى	هل أرى بدري ، بحاني ، مؤنسي . ؟
أم أفاسي عن رمان قد قسا	ورى أحشائي ، سهما ، عن قسي ؟
يا سقى الله رمانا قد مضى	في مغاني مصر ، في عيش خصيب
حيث بدري قد قضى لي ما قضى	بالتداني ، إذ غفت عين الرقيب

ومنها : —

يا رياضاً حسنهما راه يشيق	جاد ، في مثواك ، منهل السحاب
كم مضى لي ، إليك ، من معنى أبيق	حين كان اللهو مزهياً الجنباب
هل ترى عيني حياك الرشيق . ؟	لابساً برد الهاني ، والشباب

(١) طبع هذا الديوان في المطبعة الأميرية ببولاق سنة ١٢٨٣ هـ .

وأرى بدرى يساجيني على ذلك البسط الشهى السندى  
وأحلى صبر دهرى بالنى من معان زاهيات الملبس  
وقد ترك الظهورى القاهرة فترة ، إلى بلية أطواب ، فى الصعيد . ولعله ألف  
موشحته تلك فى هذه القرية . فحينئذ فيها إلى مصر ، ليس خيال شاعر .  
ولعل أجود ما أورده الجبرتى من شعر الظهورى ، هذا الذى قاله فى الحنين  
إلى مصر ، وخاصة هذه القصيدة ، التى مطلعها : —

سلام على مصر ، سلام شجر حنا تبلنها أيدى النسيم ، لها ، عنا  
والى يقول فيها ، بمد أن ذكر نيل مصر ، وظلالها ، وخلجانها ، والمقياس :-  
مباين لذات ، وأقصى مكارب ، وغابات آمال ، لمن هام ، أو أتا  
فكم نلت فيها من سرور ، وبنية إذ العيش طلق ، والهوى ضاحك سنا  
وليلتنا فيها ، وطيب حديثنا وجيب الدجى يشق ، عن بدرها ، دجنا  
تكررت ، يا أيام ، من ذا الذى وثى إليك بسوء . ؟ ما الذى قد جرى منا  
لئن كان ذنبى ، عندك ، الفهم والحجا فجعلى أخرى . فارجمى ، لست أستغنى  
إرادة حظى أنعبتنى ، ومن يكن يحاول حظا ، حال من دونه الأذى  
قتلتى مصر ، وهى أهلى ، وشيمتى ودارى ، وشوقى ، والمآلف ، والغنى  
وأزلى طول النوى ، دار غربة بغربى مصر ، أشتكى الهم والحزنا  
أقت بأطواب ثلاثين ليسة أقامى بها الأوصاب ، واخترتها سجنا  
أردد عبنى ، فى خلال ديارها فانظر أهلها ، وقد ملؤا جينا . . !

وللظهورى هذه القطعة من الشعر ، وسواء أكان ما فيها حقا ، أم هو من عى  
الشعر وشيطانه ، فإنها تدلنا على أن الشعراء ، وأهل الفن ، كان لهم ، من حرية  
القول حظ غير قليل : —

هل العيش إلا فى اكتساب مآثم . ؟ أو العمر ، إلا فى اقتناء محارم . . ؟  
أو الغنى ، إلا فى ارتكاب كبيرة . . . ؟ أو السكر ، إلا فى ارتشاف مباسم . ؟  
سقى الله أيام البطالة أدمعا من العين ، تجري كالنيوت السواجم

زمان به كان السرور بخصرى  
إذ العيش طلق ، والرياض بواهم  
وسبرى إلى تلك الساكر ، سحرة  
وجرى ذبول التيه ، فى عرساتها

... ..

لقد طالما نازعت فيها زجاجة  
ممتقة ، صاغ المزاج لرأسها  
إذا ما جلاها خطف الخصر ، فى الدجا  
: — أبحت طريقي ، فى هواه ، وتالدى

وله هذان البيتان : —

خبرانى عن فقهات التنانى  
أرى حكمها ، لبسط الندامى . ؟  
وللظهورى بعض من الشعر يدل على أنه كان على شيء من الثقافة العلمية ،  
استخدم فيه علم الفلك ، على وجه لا بأس به .

### عامر الأبوطل

وهناك شاعر ماجن ظريف ، اسمه الشيخ عامر الأبوطل . كان هجاءً ، كما  
يقول الجبرنى « لطيب شراره محرق . » وكان يحىء من بلده إلى القاهرة فيزور العلماء  
والأعيان . ويتلقى ما يتناولونه من شعر فيصنع ، على وزنه وقافيته ، شعراً آخر  
هازلاً ، يتناول فيه الطعام ، وأصناف المأكولات . وكان الشعراء يكرهون ذلك  
منه ، ويتحامونه ، حتى لا يحيل شعرهم إلى سخرية . وكان الشيخ عبد الله  
الشبراوى يكسوه ، ويكرمه ، ثم يقول له : بالله يا شيخ عامر لا « زمر »  
قصيدتى ، وهذه جازتلك ، ثم يعطيه . وكان الشيخ الحفنى يكرمه أيضاً ، ويفدق  
عليه . ويستعطي الاستماع له . وكان الشاعر الأبوطل شيخاً كبيراً ، صالحاً ،  
يكحل عييه ، ويعنى بهيته ، وهندامه .

صنع الشيخ الأبوطل ألفية فى الطعام ، على وزن ألفية ابن مالك فى النحو ،  
أولها :

يقول عامر ، هو الأنبوطى  
وأستمين الله ، فى ألفية  
فيها صنوف الأكل ، والطعام  
وفيها يقول : -

طعامنا الضانى لذى لنهم  
فإنها نفيسة ، والأكل عم  
والأصل فى الأخباز أن تقمرا  
لحمًا ، وصفًا ، ثم خبزًا ، فالتقم

وألف ، فى الطعام أيضاً ، قصيدة على وزن لامية ابن الوردى ، وهى :  
اجتنب مطعوم عدس ، وبصل  
وعن البيصار ، لا تمن به  
واحتفل بالضأن ، إن كنت حتى  
من كباب وضلوع قد زكت

وأخرى على وزن لامية المعجم لصلاح الدين الصفدى :

أناجر الصان ، تريق من الملل  
أكلى غداء ، وأكلى فى العشاء ، على  
فيم الإقامة بالأدياب ، لا شبعى  
نام عن الأهل ، خالى الجوف ، منقبض  
فلا خليل ، بدفع الجوع يرحنى  
طال التلهف للمطعوم ، واشتعلت  
أريد أكل نفيساً ، أستمين به  
والدهر يفتح قلبى من مطاعمه  
ناديت ، هيا ولا تبغى بفرغك لى

وأحسن الرز ، فيها منتهى أمل  
حد سوى ، إذا اللحم السمين قلى  
فيها ، ولا زهرق فيها ، ولا جذلى  
كعدم مات من جوع ، ومن قشل  
ولا كريم ، بلحم الضأن يسمح لى  
حشاشتى بحمام البيت ، حين قلى  
على العبادات ، والمطلوب من على  
بالمدس والكشك والبصار والبصل  
فإنه خلق الإنسان من عجل

وللأنبوطى ، فى الأطنمة والمآكل أزجال شعبية ، ألها بالغة العامية منها :

أكلك من الضان رطلين  
وابعد من الكشك يازين  
يزيد قلبك نفاسة  
دا الأكل منه تعاسة

ومنها :

أكل المطبق ، مع الفجر      بالشهد ، والسمن ساج  
اللى يجيبه له أجر      فى جنة الخلد راج

ومنها :

يا طابخ الضاني اشتد      واغرف أواني وسيمة  
عمر أنالك ، وله يد      فى الأكل دائماً سريعة  
و : خشاف ، ومشمش ، وعناب      الشرب منهم دوايه  
من بعد ما كل كباب      يارب حقق رجائه  
و : والمدس ، والكشك ، والفول      الأكل منهم شمائه  
بعبجوا الشاب غبول      قطعوا الجميع ، التلاته

### مصطفى اللقيمي الديماطى

وكان مصطفى أسعد اللقيمي الديماطى ، شاعرا من الذين احتفل الجبترى بهم ، وأطنب فى ذكرهم ومدحهم . كان أسعد أفندى هذا ، واحدا من إخوة أربعة ، كلهم شعراء . وقد أورد الجبترى له مقامة طويلة ، سماها « الدامة الأرجوانية » فى المقامة الرضوانية « ألفها فى مدح الأمير رضوان الجلفى ، وضمنها كثيرا من شعره . ووصف فيها قصور هذا الأمير ، وصفا شائقا ، بارعا . ربما يعود إليه عند الكلام عن الحياة الاجتماعية ، وما كان فى بيوت الأمراء من ثروة ومن نعيم .

وشعر السيد مصطفى اللقيمي قريب من ذلك الشعر الذى أوردنا منه قدرا كافيا لشعراء آخرين ، فى هذا الفصل . ويبدو أن هذا الشاعر كان شديد اللصوق بالأمير رضوان ، فإن شعره كله يكاد أن يكون قاصرا على ذكره ومدحه ، وتهنئته . ووصف ما شيد ، على بركة الأزكية ، من قصور ، وعرس من بساتين . وللشاعر الديماطى مزدوجة ، فى مدح هذا الأمير أيضا ، نلها خير ما أورده الجبترى من شعره . ولها ، أيضا ، أجود قليلا من تلك المزدوجات ، والوشحات ، التى أوردها من شعر إسماعيل أفندى الطهورى ، ونقلنا بعضها ، منذ قليل ، وقد استهل هذه المزدوجة بقوله : -



يا سعد عرج بالحلى ، والرند      وطف بأكفاف الرنى ، من نجد  
فهم منى عيني ، وجل قصدى      وحبهم أنار نار وجدى  
واشرح لهم حالى ، وما ألاق      من لاعج الغرام ، والأشواق  
وما جرى من دمي المهرق      واذكر عليلاً بات فى احتراق  
يشكو تباريح الجوى والمهد

حليف شوق ، جسمه نحيل      أليف توق ، شفه الغليل  
ساواته ، والصبر ، مستحيل      يقول : هل لى فى اللقا سبيل  
لأستريح من عفاً ووجد

ومنها : —

فله ما أحلى ظبا ذاك الحى      وما ألد الوصل ، من تلك الذى  
هيجت شوقى ، والسيم ، عندما      ذكرت ، فاسمع بالحديث ، مغرماً  
يشوقه تذكّار داك العهد

وهات لى حديث لازبكية      وما حوت أدواها الزكية  
حسناً زعت أوجاؤها السبية      إدا لاح فى غرتها البهية  
قصور رضوان الملا والمجد

يا حبذا معاهد حسان      يفنيك ، عن وصى لها ، العيان  
قد حل فيها الحور ، والولدان      حصباها الياقوت والمرجان  
فانظر تراها ، جنة كالخلد

فكم بها من دوحة أنيقة      وروسة أغصانها وريقة  
وربوة ، أنهارها غدقة      ومرحة ، أزهارها عبيقة  
من زجس ، وسوسن ، وورد

ولاشك أن انقارىء مدرك ما فى هذا الشعر الذى أوردناه كله من خطأ فى اللغة .  
ولكن الخطأ فى اللغة لم يكن شائعاً عربياً على شعراء هذا العصر وبلغائه . وقد رأينا كيف  
أحفل الشيخ عبد الله الشرفاوى ، شيخ الأزهر ، ورئيس الديوان . وكتاب الجبرقى

نفسه ، وهو واحد من كبار الكتاب في ذلك العصر ، فيه من الخطأ ، والخطأ الفاحش ، شيء كثير .

وقد ترجم الجبرتي لرجل ، ليس من الشعراء ، ولا من الأدباء . ولكنه كان ذالون من المعرفة قريب ، وكان يعلم هذا اللون من المعرفة ويناقش الناس فيه ، حتى أنهموه في عقيدته ، وفي دينه . ولكنهم ، مع ذلك ، لم يتألوه بسوء ، لأنه كان صاحب سطوة وبفوذ ، وكان قريباً من محمد علي ، وصاحب حظوة عنده .

يصف المحرقي هذا الرجل بأنه « النجيب الأريب ، والنادرة المجيب ، أمجوبة الزمان ، وبهجة الخلال ، حسن أفندي ، المعروف بالدرويش الموصلی ، الذكي الأملی ، والسميع اللودعي . كان إنساناً عجيباً في نفسه ، مميّزاً شهيراً في مصره » .

وقد طوف هذا الدرويش بالبلاد ، وعرف كثيراً من اللغات . كما درس هنوياً كثيرة من الرياضيات ، والفلسفة . واشتغل بذلك حتى « أهمل الواجبات الشرعية ، والفرائض القطعية . وربما فلد كلام اللحددين ، وشكوك المارقين » وكان لا يخشى أن يظهر ذلك على الناس . ولا أن يتحدث به إليهم . حتى طعنوا فيه ، وأخرجوه من زمرة المسلمين .

وكان الدرويش ، لدكائه ، ولباقته ، ومعرفته لكثير من اللغات ، وكثرة ممارفه ، مقرباً إلى أصحاب السلطان . فلما أراد محمد علي أن ينشئ مدرسة للهندسة والرياضيات ، اختاره معلماً فيها ، ورئيساً لها . وكان يعلم طلابها على آلات في الهندسة ، والمساحة ، والفلك ، مجلوبة من انجلترا . ونجح في عمله هذا نجاحاً كبيراً .

ومات هذا الرجل في يوم الخميس السابع عشر من جمادى الآخرة سنة ١٢٣١ فتجرك الناس ، بعد موته ، للعلم فيه ، وعبريحه ، حتى قالوا : مات رئيس المالحدين ، وانهمد ركن الزندقة . وأبلغوا نائب محمد علي أن في حرارته كتب المالحدين . والكتاب الذي ألفه ابن الروندي في معارضة القرآن . وفنحت خزائن الدرويش الموصلی ، فلم يكن فيها شيء من ذلك .

ولم يذكر لنا الجبرتي منشأ هذا الرجل ، ولا وطنه . ولعله لم يكن يعرف ذلك لأن الدرويش نفسه لم يكن يريد أن يعرف الناس وطنه ، ولا نشأته . فإن الجبرتي يذكر عنه ، أنه كان ينسب إلى كل قبيل ، فرة ينسب إلى فارس ، وتارة إلى نبي مكاس «

ويبدو أنه كانت هناك صلات من المودة ، بين الدرويش الموصل وبين الجبرتي ، فإن حديثه عنه ليس خالياً من العطف والتقدير ، وقد دفع عنه ، إلى حد ما ، وبكثير من اللباقة ، تهمة الزندقة .

ونجد من رجال هذا العصر شاعراً من شعراء العيب والدعابة والمهجاء ، اسمه الشيخ محمد شبانة . لم يذكر الجبرتي سنة مولده . وذكر أنه مات في سنة ١٢٠٠ . ويقول إن شبانة هذا كان من نوادر وقته . اشتغل بالعلم فأجاد . واشتغل بالشعر فأجاد . وذاعب أهل عصره من الشعراء وغيرهم فاشتهر بينهم وأدعنوا لفضله . ولكن سلبقته في المهجاء والدعابة كانت أجود .

وكانت بين الشيخ شبانة وبين الشيخ قاسم الأديب مساجلات شعرية عابثة . منها هذه القصيدة التي أرسلها شبانة له على وزن قصيدة :

سبحان من قسم الحظوظ      ظ ، فلا عتاب ولا ملامه

منها : —

سبحان من قسم النحو      من لقاسم ، وأدلّ هامه

وكساة ثوب جنابة      يخزي بها يوم القيامة

هو رء من هجم البيو      ت ، وردء من خطب العامه

يحتال في نشل الحرء      ر ، ولو تحسن في دعاه

ويسل لكل العين من      من خوفه ينفي منامه

لو حل في حرم الوزء      ر ، مصاحباً ، ورأى غلامه

— : لمضى به لأخى الهوى      في غفلة يقضى مرامه

بالشال عمم رأسه      ولحيّة تأتي أمامه

خوف الجوال أن را      وفي تستره السلامة

والجوالى هم الذين يأخذون الجزية من المصارى ، يريد أنه يلبس العمامة على رأسه ، ويطلق لحيته أمامه ، يتستر بهما . ولولا ذلك لأخذت منه الجزية . وقد أجاه الشيخ قاسم بقصيدة عاتة أيضا من الوزن والقافية .

### السيد مرتضى الزبيدى

ومن العلماء الذين أرخ لهم الجبرتي . المحدث ، اللغوى ، السيد مرتضى الزبيدى صاحب تاج المروس ، من شرح جواهر القاموس<sup>(١)</sup> وسفه الجبرتي بأنه « علم الأعلام ، والساحر اللاعب بالأههام ، الذى جاب فى اللغة والحديث كل فج ، وغاص ، من العلم كل لجج المدلل له سبيل الكلام . الشاهد له الورق والأقلام . ذو المعرفة والمعروف ، وهو العلم الموصوف . العمدة الفهامة ، والحالة السابعة ، الفقيه . المحدث ، اللغوى ، النحوى ، الأصولى ، الناظم ، الناثر ، الشيخ أبو الفيض السيد محمد بن محمد بن محمد بن عبد الرزاق الشهير بمرتضى الحسينى الزبيدى الحنفى »

هكذا حدث السيد مرتضى ، عن نسبه وعن نفسه . وقال إنه ولد فى سنة ١١٤٥ ولسكنه لم يذكر فى أى البلاد ولد ، ولا فى أيها نشأ وتعلم . فإن الجبرتي يقول إنه نشأ « فى بلاده » وأرتحل فى طلب العلم ، وحج مراراً ، واجتمع بطائفة من كبار العلماء ، فى مكة ، والطائف ، واليمن . ثم قدم مصر فى التاسع من صفر سنة ١١٦٧ ، أى فى سن الثمانية والعشرين ، فحضر على كبار الشيوخ ، وتلقى عليهم ، فأعجبوا به ، وشهدوا له بالعلم ، وجودة الحفظ . وأعانه على الطلب والاشتغال بالعلوم ، أمير من أمراء ذلك العصر ، هو إسماعيل كتنخدا عزبان . حتى أصبح ميسور الحال ، يركب الخيول ، ويلبس فاخر الثياب ، واشتهر أمره بين الناس . ثم سافر إلى الصعيد فأقام فيه زمناً ، مكرماً من كبار أهله . وكذلك تنقل فى بلاد كثيرة من دلتا مصر . وكتب عن رحلاته هذه رسائل . ثم عاد إلى القاهرة فتزوج بها وبني زوجته فى عطفة النسال . وأبني سكنه الذى كان يقيم فيه ، فى وكالة الصاغة . ثم انتقل ، فى سنة ١١٨٩ ، إلى بيت

(١) طبع تاج المروس بالطبعة الوهية بالقاهرة فى سنة ١٢٨٧

بسوقه اللالا ، بالقرب من مسجد الحنفى ، وكانت هذه المنطقة مساكن الأعيان وكبار الناس ، فى ذلك الوقت ، فأحبوه ، وقربوه . بل توددوا إليه . وزادوا فى إكرامه . وهو يظهر لهم التمعف والتقى ، ويمطهم ويفدّم . ويكتب لهم التماسم والرق ، ويميزهم بقراءة الأوراد والأحزاب ، فأقبل عليه الناس إقبالا شديداً وتعلقت قلوبهم به .

ثم شرع ، بعد ذلك ، فى إملاء الحديث على طريقة السلف بذكر الأسانيد والزوائد والمخرجين ، من حفظه ، على طرق مختلفة ، ويكتب هذه الأسانيد ويحير سامعيه بها . وفصده علماء الأزهر يستمعون إليه ، فى جامع شيخون ، بالصديفة ، فشرع يقرأ لهم صحيح البخارى . وشاركهم فى الاستماع إليه ، كثير من الناس . فما تناقل الناس أن كبار العلماء يسعون إليه ، زاد قدره عندهم . ولكن العلماء انقطعوا عن سماعه فاستمضى عنهم بغيرهم ، واقتتح درساً آخر ، فى مسجد الحنفى لارتفع قدره بين الناس ، وتكاثر عليه الراغبون فى درسه ، والمعجبون بعلمه ، وطريقته فى التدريس ، التى لم تكن مألوفة عند علماء مصر ، كما كان زيه على غير زيمهم ، ودعا الأمراء والأعيان إلى بيوتهم ، يقيمون له الولائم الفاخرة . ثم يجلس فى بيوتهم ، مفتتحاً درسه ، يجلس إليه الخاصة من تلاميذه ، وصاحب البيت ، وأسرته ، وأصدقائه ، وأولاده ، ونناته ، وبناته من خلف الستور ، وبين أيديهم محامر البخور ، والعنبر والعود ، يعلأ عميره الزكى مجلس الشيخ ، مادام يلقى درسه . حتى إذا فرغ منه ، كتب الكتائب أسماء الحاضرين ، حتى النساء ، والبنات والصبيان . وكتب اليوم والساعة التى كان فيها المجلس . ثم أمضى عليها الشيخ توقيعيه ، وهذه كانت طريقة الأقدمين من العلماء .

وقد حضر الجورتى كثيراً من هذه المجالس ، واستمع إلى كثير من هذه الدروس ، ودعا السيد المرتضى إلى إلقاء بعضها فى بيته بالسنادقية وبولاق ، وغيرها ، كما سعى كبار الأمراء ، مثل مصطفى بك الأسكدرانى ، وأيوب بك الدهردار ، إلى بيت المرتضى الزبيدى ، وجلسوا إليه مستمعين ، وكلما راد إعجابهم به ، رادت صلاتهم له ، وتصاعف برّهم به ، حتى امتلأت بيوته بالجوارى ، والخيرات .

ولما تولى محمد باشا عزت أمر مصر ، زاد في رفعة شأنه ، وخلع عليه الخلع  
التمينة ، ورتب له ، من مطابخه ، ما يكفيه من اللحم ، والأرز ، والسمن ، والخبز  
والحطب ، والغلال . وكتب إلى الدولة ، في إسلامبول ، بشأنه ، فأمرت له بمرتب  
يومي ، قدره مائة وخمسون نصف فضة . وهو مرتب حزيل في ذلك العصر ، وبهذا  
التسكريم من عزت باشا ، ومن رجال الدولة ، بلغ المرتضى الزبيدي أوج مجده  
فترادت عليه الرسائل ، من جميع الأنظار ، من الحجاز ، واليمن ، والهند ، والعراق  
والشام ، والمغرب ، والسودان ، وأرسل إليه ملوكها وأمراءها الهدايا العظيمة ،  
جاءت له من هزان بالمغرب ، أعنام نادرة ، فأهداها إلى السلطان ، وأهديت إليه  
الجوارى اللبحة ، والميد ، وطيور الببناء ، وطرائف الصناعات ، من الهند ، واليمن ،  
فكان يرسل مما يرد إليه من هذه الهدايا النادرة ، إلى أمراء البلاد ، وملوكها .

ولما قدم مصر حسن باشا الوالي ، لم يذهب السيد لزيارته ، بل زاده الباشا  
وخلع عليه خلمة سبيه ، وأهداه فرساً مسرجاً ، قيمته ألف دينار ، وكانت شفاعة  
الشيخ عنده لا ترد ، إذا حاته منه ورقة ، قبلها ، قبل أن يقرأها ، ثم وضعها  
فوق رأسه ، ونفذ ما فيها ، فور قراءتها .

وكانت للسيد الزبيدي عناية كبيرة باقتناء الكتب النوادر ، فإن صديقه  
الشيخ الزاهد أحمد بن سعيد السوسي التونسي يرسل إليه في كل سنة ، قائمة بما  
يقع عليه منها ، فيطلب إليه الزبيدي أن يشتريه له .

وبلغ من سمو المكانة ، التي وصل إليها المرتضى الزبيدي ، عند أهل المغرب  
خاصة ، أن بعضهم كان يرى أن حجه بيت الله الحرام ، لا يتم إلا إذا زار هذا  
الشيخ ، ووصله بهدية . فمن حج البيت ، ولم ير المرتضى الزبيدي ، ويقدم إليه  
شيئاً ، كان حجه ناقصاً .

ومن فار من الشيخ بقطعة من الورق ، بقدر أعملة الأصبغ ، قبّل الأرض بين  
يديه . وجعل هذه الورقة تيممة .

وأرسلت الدولة في طلبه ، ليزور دار الخلافة ، في سنة ١١٩٤ فأنجب  
ثم امتنع .

وبعد أن بلغ الزيدى هذا المبلغ ، من المجد ، والشهرة ، والثروة . أصيب  
شكبة فادحة ، بوفاة زوجه ، التي كان يحبها حباً عظيماً . فحزن عليها أعظم الحزن ،  
وبنى لها ، عند مشهد السيدة رقية ، قبراً أقام عليه مقصورة ، وعلق عليه الستور ،  
والقناديل . ولازم قبرها هذا أياماً كثيرة . والناس تجتمع إليه فيه ، فيعلمهم ،  
ويستقيمهم القهوة ، والشربات . وكثير من القراء والفقهاء ، يتلون القرآن ،  
ويرتلون الأناشيد ، عند القبر . ثم نى ، إلى جوار قبرها ، بيتاً أسكن فيه أمها ،  
وكان يبيت فيه أحياناً . وقصد إليه كثير من الشعراء برثائهم ، فأجأهم عليه .  
ورثاها هو بكثير من الشعر الحزين الذى يدل على صدق عاطفته نحوها . وعظيم  
رزه فيها ، ولكن ذلك لم يمنعه أن يتزوج أخرى ، غيرها .

تزوج الشيخ ، بعد زوجه هذه ، فبدأ حاله في التغير .

ترك الدرس والقراءة . واعتكف عن الناس ، ولزم حريمه . وغلق باب . ولم يعد  
يقبل ما كان يرسله إليه الأمراء والأعيان من هدية وصلة . ذهب إليه مصطفى بك  
الأسكندراني ، صديقه القديم ، ومن أكبر المعجبين به ، ومعه آخرون من الأمراء ،  
فاحتجب عنهم ، ولم ينقم . وأهدى إليه أيوب بك الدفتردار ، صديقه القديم ،  
أيضاً ، خمسين أردباً من القمح ، وأحلاماً من الأرز ، والسمن ، والمسل ، والزيت .  
وخمسة ريال . وأقشاة هندية ثمينة . وجوخاً . فرد ذلك كله ، ولم يقبله .

وكان السلطان محمد ، سلطان المغرب ، يصله في مواسم كثيرة . فأرسل إليه ،  
بعد زواجه من هذه المرأة ، إحدى صلاته ، في سنة ١٢٠١ فلم يقبلها . ولم تعد إلى  
السلطان . فلما علم ذلك أرسل إليه معاتباً ، مؤنباً وقال له . ليتك رددت الصلة  
التي أرسلناها إليك من بيت مال المسلمين . أوليتك أعطيتها للفقراء والمحتاجين .  
فيكون لنا ولك أجر ذلك

وفي شهر شعبان ، من سنة ١٢٠٥ أصيب السيد بالطاعون ، وكان وبائياً في  
هذه السنة . أصيب يوم الجمعة ، بعد الصلاة ، واعتقل لسائعه ليلاً ، ثم مات يوم  
الأحد . فأخفت هذه الزوجة ، وأهلها ، موته حتى تقاوا من بيته كل شيء . ثم بنى

وكل مال ، ومتاع . حتى السكتب . وأظهروا ، بعد ذلك موته ، يوم الإثنين . ثم دفن في قبره الذي كان أعده إلى جوار زوجة الأولى . ولم يعلم بموته أهل الأزهر ، لانشغال الناس بأمر الطاعون ولم يترك ولداً ولا بنتاً ، ولم يرثه أحد من الشعراء . وكان السيد المرتضى نحيف البدن ، ذهبي اللون . أبقى الثياب . يلبس عمامة أهل مكة ، لها عذبة تنزل على قفاه .

وبعد موته بزمان قليل ، تزوجت امرأته بمملوك من الأجناد ، وأظهرت ما تركه السيد . فكان شيئاً كثيراً جداً . كان منه أكوام من القصبات ، والأقشة الهندية ، والفراء ، والساعات الثمينة . ويسمى الجبرتي « ساعات الذهب » .

وقد بيعت أوراقه وكتبه ، وبمصر أمتعه ، بأكثر من مائة ألف نصف فصة . وقد اشترى الجبرتي قسماً كبيراً من هذه السكتب والأوراق ، ووجد فيها كثيراً من شعره . كما وجد فيها أصول كتابه « عجائب الآثار » التي كان أعطاها للسيد .

أما ما خلفه السيد المرتضى ، من الثروة الأدبية والعلمية ، فإن أبرر ما فيه كتابه « تاج العروس » ، وقد أمضى في تأليفه بيقاً وأربع عشرة سنة ، وأنه في أربعة عشر مجلداً ، وأقام ، عند الفراغ منه ، وليمة حافلة ، سنة ١١٨١ ، جمع فيها كبار العلماء وشيوخهم ، وأطعمهم على طريقته في وضع الكتاب ، فأعجبوا بها وتبارى الشعراء في تقريره ، ومدح صاحبه .

وكان محمد بك أبو الذهب ، قد انتهى ، عند ذلك الوقت ، من بناء مسجده المواجه للجامع الأزهر ، وأنشأ فيه خزانة للسكتب . فتحدث إليه بعض العلماء في شأن تاج العروس فطلبه من السيد الزبيدي وأعطاها ، في نظيره ، مائة ألف درهم فضة . ووضعه في خزانة السكتب التي أنشأها بالمسجد .

ولعل كتاب المرتضى الزبيدي هذا ، هو خير ما ألف العلماء ، واللغويون في هذا العصر الذي أرخه الجبرتي كله . فهو ، وكتاب الجبرتي نفسه ، هما العمل ، الذي يستحق أن يذكر ، ويشاد به ، من إنتاج هذا العصر اللغوي ، أو الأدبي ، أو العلمي



وللسيد ، غير هذا الكتاب ، رسائل في علم الأنساب ، والأسايد ، وتخرج الأحاديث . وشرح لبعض أجزاء من إحياء علوم الدين ، للغزالي . وكتاب أصول الفقه . سماه « الجواهر الميفة » في أصول أدلة مذهب أبي حنيفة « وهدية الإخوان ، في شجرة الدخان » وكتب أخرى في تفسير بعض السور ، أو الآيات ، وفي شرح بعض الأحاديث ، وفي التصوف ، وفي مصطلح الحديث ، وبعض المقامات وأرجوزة في الفقه ، ورسالة في تاريخ بني أيوب

وكان المرتضى الزبيدي يعرف اللغتين ، التركية ، والفارسية ، وسمعا من لغة السكرج ، وزبيد ، التي ينسب إليها ، من بلاد اليمن .

وقد ذكر الجبرتي شعراً مما قاله الزبيدي في رثاء زوجه « زبيدة » التي ماتت قبله فحزن عليها حزناً كثيراً ، وشعره فيها ، كما ستري ، فيه من صدق العاطفة ، ومن حرارة هذا الحزن المضطرم الصادق ، شيء كثير .

فما قاله ، في رثائها ، هذه القصيدة : —

خليلى ، ما للأنس أضفى مقطعاً	وما لقوادى لا يزال مهروعا
أمن غير الدهر المشت ، وحادث	ألم برحلى .. أم تذكرت مصرع .. ؟
وإلا فراق ، من أليفة مهجتي	زبيدة . ذات الحسن والفضل أجمما
مضت ، فمضت عني بها كل لذة	تقر بها عياني . فانقطعا معا
لقد شربت كأساً ، سنشرب كلنا	كما شربت . لم يجد عن داك مدعما
فن مبلنن صبحي ، بمكة ، أننى	بكيت ، فلم أترك لعيني مدعما

ومن شعره فيها أيضاً : —

خليلى ، هل ذكرى الأجابة نافع .. ؟	فقد خائني الصبر الجليل العواقب
وهل لي عود ، في الحى ، أم تراجع	لوصل ، بتلك الأنسات الكواعب
لقد رحلت عني الحبيبة ، غدوة	وسارت إلى بيت ، بأعلى السباب
أقول ، وما يدري أناس غدوا بها	إلى اللحد ، ماذا أدرجوا في السباب
— تأخرت عنها ، في السير ، وليتنى	تقدمت ، لا ألقى على حزن نادب

وفي رثائها ، أيضاً ، يقول :

ريدة شددت للرحيل مطيها      غداة اثلاثا ، في غلائلها الخضر  
وطافت بها الأملاك من كل وجهة      ودقّ لها طبل السماء ، بلا نكر  
تميس ، كما ماست عروس بدلها      وتحظر ، فيها ، في البرانس ، والأزر  
سأبكي عليها ما حيت ، وإن أمت      ستبكي عظامي ، والأضالع ، في القدر  
ولست بها مستقبياً فيض عرة      ولا طالباً ، بالصبر ، عاقبة الصبر  
وفي قصيدة أخرى من هذا الشعر الحزين يعدد صفات روجه تلك . هذا كرم  
من ذلك كرم أخلاقها ، وصدتها لرحمها ، وطاعتها لزوجها ، وعنايتها بطعامه ، ولين  
كلامها ، حين تكلمه . ثم يقول إنها من عنصر كريم ، « عميدة قوم من كرام  
أطايب » .

وقد ذكر الجبرتي أن السيد الزبيدي قال ، في رثاء زوجته ، كثيراً من الشعر .  
وأنه تركه خوف الإطالة . وليته حفظ لنا كل ما جمع من هذا الشعر الصادق ،  
الراقي . الذي يفرده هذا الصديق ، وهذه الحرارة . إلى جوار ما حفظ من شعر  
كادب ، أو غليظ . لا يصور طائفة ، ولا يصدر عن وجدان . كما رأينا في كثير  
من شعر المديح والزئاء ، والمناسبات . التي عنى الجبرتي بتسجيله والذي قلنا بعضنا  
منه ، في كتابنا ، وفي هذا الفصل خاصة .

### قاسم بن عطاء الله

وكذلك ترجم الجبرتي لقاسم بن عطاء الله المصري . وقال إنه كان ، مع ارتحال  
الشعر ، مشهوراً بالتوشيح والزجل ، حتى عرف أول أمره بالزجال . ولكنه روى لنا  
بعضاً من شعره ، لا خير فيه ، ولم يحفظ لنا غير شيء يسير من زجله وتواشيحه .  
وكانت ، كما يقول ، كثيرة جداً ، مشهورة بين أرباب الفن وأهل الغناء ، وليته  
عنّى بتسجيلها وحفظها كلها .

حفظ لنا موشحة من شعره ، يقول إنها كانت مشهورة أيضاً بين « أهل  
الغناء والآلاتية » .

## أولها :

فيك كل ما أرى حسنٌ      مذ رأيت شكلك الحسن  
جلّ من به عليك من      أيها الذي الصدود سن  
من لسيف أدعجيك سن      مذ حرمت مقلتي الوسن  
مدمعي دماً ، تما      عند ما هما  
روى باللسان ،      ظما من تالسا  
إن صبهك النحيل إن      جن ، كلما الظلام جن  
بالشجا ينوح      والش جن

وهذا الشعر قد نراه الآن غريباً شاذاً . ولكنه كان ، هو وغنائه ، مما يروق لأهل ذلك العصر ويعجبون به إعجاباً شديداً . وهذه الموشحة قيلت في مدح الأمير حسن بك رضوان .

وقبل أن أترك الشعر والنثر إلى غيره من بواحي الحياة الفكرية والاجتماعية ، لا أجد بداً من تسجيل شعر لم يدونه الجبرتي . ولكنني سأذكره . لأننا ندرك منه ، ذلك المدى الذي وصل إليه الشعر ، في ذلك العصر ، من الضعف والاعطاش والنشانة والبرود .

فهذه أبيات من الشعر ، نقشت على رخام وعلقت على مسجد السيدة زينب : —  
نور بنت النبي ، زينب يعساو      مسجداً ، فيه قبرها ، والمزار  
قد بناه الوزير ، صدر المعالي      يوسف ، وهو للعلا مختار  
من ملك الملوك ، سلطان كل      في بني عثمان ، إليه يشار  
صاحب النصر ، والفتوح ، سليم      نصر الله جيشه حين ساروا  
وصكذا خسرو ، محمد باشا      من به عز مصر والأقطار  
دام إجلالا ، كما قلت أرخ      مسجد مشرق ، به أسرار<sup>(١)</sup>

ومن بيت التاريخ الأخير ، يعرف أن هذه العمارة في مسجد السيدة زينب ، كانت في سنة ١٢١٦ . وأن الشعر قيل في هذا التاريخ . ولم ينس لقائله . وهذا شعر آخر ، من شعر هذا العصر الذي نؤرخه . ولم يذكر قائله .

(١) الخطط النوفيقية ، لعل باشا مارك . ص ٨ ح • .

وقد كتب هذا الشعر على باب المسجد الذى أنشأه الأمير ذو الفقار بك ، ويعرف بجامعة القسطنطين ، وهو : —

جامعاً جاء لطيفاً ، وبديع الأنشا  
على السمك ، منيعاً ، ووسيع الأحشا  
فى بيوت أذن الله لها أن ترفع  
والعبادات بها ، كل زمان ، تفشى  
دام فيه صلوات ، وأقيمت دعوات  
بنهار متجل ، ونهار ينشى  
دوافق فار بخير ، فقلا تاريخها  
عمر الجامع بالسعد ، بديع الأنشا<sup>(١)</sup>

وبيت التاريخ يعطى سنة ١٠٩١

ومن الشعر ، الذى لم يعرف قائله ، ويدل على مستوى الحياة الأدبية أيضاً ، هذه الأبيات ، التى سجل فيها منشئها عمارة الأمير عبد الرحمن كتحف للأزهر .

تبارك الله ، باب الأزهر انفتحا  
وعاد أحسن مما كان ، واصلحا  
تقر عيناً ، إذا شاهدت بهجته  
بأخلاص نايه للعلماء ، والصلحا  
وادخل ، على أدب ، تلقى الهداة به  
قد فرروا حكماً ، ميزانها رجحا  
بالباب قد بدأ الأكوان ، أرخه  
بمبد رحمن باب الأزهر انفتحا

ولعل هذا الشعر السخيف الركيك ، كان يشبه شعراء مغمورون يتكسبون به . يقصد إليهم الأمراء والأغنياء ليسجلوا لهم نبأ ما أقاموا من عمار ، أو بنوا من مساجد . لأن شعراء العصر لم يكونوا ، لأمر ما ، يشئون لهم ما يريدون من شعر . فكان الأمراء وغيرهم يشتررون هذا الشعر ، لينقشوه على الرخام ، والحجر . يلون به داعى غرورهم ، بوضعه على مساجدهم أو عمارتهم . ثم لا يكتبون أسماء هؤلاء الشعراء . وقد كان فى القاهرة ، إلى عهد غير بعيد ، شعراء يقرضون الشعر لبيعه كل مشتر وراغب .

وفى هذا الفصل من الكتاب ، وفى بعض وصلوه الأخرى أيضاً ، نجد بعضاً من الشعر ، يزيد تلاوته وفهمه ، إدراكنا لهذه الحياة الأدبية فى العصر الذى نورخه .

(١) خط على ياشا مبارك . م ١١٣ ج ٤

## الحياة العقلية

### شعاع من النور

وهناك ناحية من نواحي الحياة الفكرية ، قد يظن الناس ، كما طلفت أول الأمر ، أنها كانت جامدة كل الجمود . لم تنم بحياة ، ولا نشاط ، ولا تجديد . والنشاط والحياة والتجديد فيها أشق ، وأعسر ، وأمعن في المجازفة والمخاطرة من التجديد والنشاط في هذه الناحية من الأدب والشعر . هذه الناحية المسيرة الشاقة ، هي حياة العقل والدين ، أو التقاليد الدينية ، على الأصح ، يحسبها الناس من الدين ، وهي ليست منه في شيء .

وقد سجل الجبرتي قصة سأحرص الحرص كله على استيعابها ، وتلخيصها تلخيصاً وافياً ، أميناً . لأنها تدل على أن هذه الحياة التي يعسر النشاط فيها ، ويشق التجديد ، لم تتمكن بعيدة عن محاولات قام بها بعض العسكريين الأحرار ، لإصلاح بعض نواحي العقيدة . والبعيد بها عما لا يسها من الانحراف ، والميل ، بل الخضوع للبدعة الضارة ، المفسدة . وسأجمل لهذه المحاولة فصلاً خاصاً جعلت عنوانه « واعظ من الزوم » وقبل أن أبدأ هذا الفصل ، أريد أن أbye إلى أشياء مما يحيط بهذه المحاولة .

( فأول هذه الأشياء . أن هذه المحاولة لمحاربة البدعة ، بنت ونمت ، واستوت على ساقها ، ثم زكت ، بعيدة عن الأزهر . صاحب هذه الدعوة ، لم يلق دروسه في الأزهر . ولم يكن يستطيع ، بداهة ، أن يفعل ذلك . بل إن الأزهر هو الذي أحبط هذه المحاولة لإصلاح ناحية من نواحي العقيدة عند أهل مصر . رجال الأزهر ، ورجال العقيدة التقليدية ، كالتقاضى التركى ، هم الذين قضوا على هذه المحاولة البائرة . ولم يقر لهم فرار ، إلا بعد أن أيقنوا أنها وندت ، ولوى تولد مرة أخرى .

والثانى من هذه الأشياء ، أن صاحب هذه الدعوة ، لم يكن مصرياً ، بل كان

تركياً ، ولبت الجبرتي أفصح لنا عن مشته وهويته .

( وثالث هذه الأشياء ، أن هذا الواعظ الروى ، لم يكن مقلداً لصاحب الدعوة الوهابية ، ولا متأثراً بهذه الدعوة ، فقد ولد محمد بن عبد الوهاب ، منشئ المذهب الوهابي ، سنة ١١١٥ هـ ، ومات في سنة ١٢٠٦ ، بينما ظهر هذا الواعظ في القاهرة وألقى دروسه في مسجد المؤيد سنة ١١٢٣ . ففي هذا الوقت ، القى كان يدعو فيه أهل مصر إلى ترك البدعة ، كان محمد بن عبد الوهاب ، في الثامنة من عمره ) وقد نرى ، الآن ، مادعا إليه هذا الواعظ الروى ، أمراً مألوفاً ، لاشيء في الجهر به ، أو الدعوة إليه . ولكننه ، من غير شك ، كان شيئاً خارجاً ، كل الخروج ، عن مألوف الناس وعقيدتهم . وكان القائل به ، بله الداعي إليه يحتاج إلى أعظم قسط من الشجاعة والإيمان .

وإذا رجعنا إلى ما كتبه الجبرتي عن اعتقاد الناس ، في عصره ، في الأولياء ، وما وصف به أعمالهم في الموالد<sup>(١)</sup> فلا بد أن نعجب بشجاعة هذا الواعظ . وهذه هي قصته : —

(١) نجد ذلك ديا يلى من هذا الفصل .

## واعظ من الروم

يروى الجبرتي في حوادث شهر رمضان من سنة ١١٢٣ أن واعظاً رومياً ،  
أى تركيا ، جلس يعظ في جامع المؤيد ، وكثر عليه الناس وازدحم المسجد بهم  
وكان أكثرهم من الأتراك . ثم « انتقل من الوعظ وذكر ما يفعله أهل مصر  
بضرائح الأولياء ، وإيقاد الشموع والقناديل على قبور الأولياء ، وتقبيل أعتابهم  
وفعل ذلك كهم يجب على الناس تركه ، وعلى ولاية الأمور السى في إبطال ذلك .  
وذكر أيضاً قول الشعراء في طبقاته إن بعض الأولياء أطلع على اللوح المحفوظ  
أنه لا يجوز ذلك ، ولا تطلع الأنبياء ، فضلاً عن الأولياء ، على اللوح المحفوظ ،  
وأبه لا يجوز بناء القباب على ضرائح الأولياء ، والتسكيا ، ويجب هدم ذلك .  
وذكر أيضاً وقوف الفقراء بباب زويلة في ليالى رمضان »

(هذه كانت دعوة هذا الواعظ الرومى ، وهى كما ترى دعوة جريئة كل الجراءة ،  
خصوصاً في هذه البيئة وهذا العصر . وقد دعا إليها مفكرون أحرار ، بعد هذا  
الرومى بقرنين من الزمان ، بحجبتهم « العلماء » ورومهم بالكفر والنسكر .

(وقد انتقل الواعظ الرومى من الوعظ ودعوة « ولاية الأمور » لترك  
هذه العقائد والمعادن التى يراها مكفرة لفاعليها ومعتقديها . انتقل الواعظ ورجاله  
من القول إلى العمل ، وأرادوا تقويم الناس بالمصى بعد أن لم يقوّمهم الوعظ  
« نخرجوا بعد صلاة التراويح ووقفوا بالنباتيت والأسلحة على باب زويلة فهرب  
الذين يقفون به . قطعوا الجوخ والأكر المعلقة<sup>(١)</sup> وهم يقولون : - أين الأولياء... »  
عند ذلك أسرع بعض الناس إلى علماء الأزهر ليفتوهم في قول ذلك الواعظ .  
فكتب شيخان من شيوخ الأزهر ، هما الشيخ أحمد النفراوى ، والشيخ أحمد الخليلي

---

(١) كان الناس يعتقدون أن تعليق هذه الأشياء على باب زويلة يقضى حوائجهم ، ولا يزال  
بعض العوام يعتقد ذلك .

يقضان قول الواعظ ، ويطلبان من الحاكم زجره على ما قال . وأخذ بعض هؤلاء الناس هذه الفتوى فقدموها إلى الواعظ في مجلس وعظه . فلما قرأها غضب ، وقال إن العلماء أفتوا بنير ما قلت ، وأنا أريد أن أجادلهم في مجلس القاضي ، فهل منكم من يساعدني على ذلك وينصر الحق ...؟ فقال له أنصاره : نحن معك لا نفارقك ، فنزل عن كرسي وعظه . واجتمع عليه من الناس قريب من ألف ، فسار بهم من وسط القاهرة إلى أن دخل بيت القاضي . فلما رآهم القاضي بهذه الكثرة ارتجع منهم ، ثم سألهم عما يريدون ، فقالوا يريد أن تحضر الدين أصدرنا هذه الفتوى لنباحثهما أمامك ، فقال القاضي : - إصرفوا هؤلاء الجوع ثم نحضرهما ونستمع إلى مجادلتيكم معهم . ولكن أحداً من الجوع لم ينصرف ، بل تكاثروا على القاضي وقالوا له : — ماذا تقول أنت في هذه الفتوى ...؟ قال هي باطلة . ! فطلبوا منه أن يكتب حجة بذلك . فلما رأى القاضي أن الأمر حد ، وأهم لا يريدون أن يتركوه ، أراد أن يعمل فيهم الحيلة ، فقال للواعظ ومن معه ، إن الوقت قد ضاق والشهود قد خرجوا ، فلنترك ذلك إلى غد . فلما سمع الناس من ترجمان القاضي هذا الكلام صربوه ، واختفى القاضي ومعه حريمه ، ولكن الناس لم يتركوا نائب القاضي حتى كتب لهم الحجة بصواب رأى الواعظ الرومي ، وخطأ رأى الشيخين ، المفراوى ، والخليفي .

وقصد الناس بعد ذلك يوماً إلى مسجد المؤيد لسماع واعظهم فلم يجدوه ، ثم قال قائل منهم إن القاضي منعه من الوعظ « فقام رجل منهم وقال : أيها الناس من أراد أن ينصر الحق فليقم معي ، فتبعه الجمع الغفير ، ففضي بهم إلى مجلس القاضي . فلما رآهم القاضي ومن في المحكمة ، طارت عقولهم من الخوف ، وفر من بها من اليهود ، ولم يبق إلا القاضي ، فدخلوا عليه وقالوا له : — أين شيخنا ...؟ فقال : لا أدري ، فقالوا له : قم واركب معنا إلى الديوان ونكلم الباشا في هذا الأمر ، ونسأله أن يحضر لنا أخصامنا الذين أفتوا بقتل شيخنا وتباحث معهم ، فإن أثبتوا دعواهم نجوا من أيدينا ، وإلا قتلناهم . فركب القاضي معهم ، مكرها ، وتبعوه من خلفه وأمامه ، إلى أن طلوعوا إلى الديوان ، فسأله الباشا عن سبب



حضوره في غير وقته ، فقال : — إظنر إلى هؤلاء الذين ملؤا الديوان والحوش ،  
فهم الذين أتوا بي ، وعرفه عن قصتهم »

فلما عرف الباشا قصة القوم والواعظ ، أعطاهم أمراً بأن يحضر الشيخان النفاوى  
والخليقى لمجادلة الواعظ ، فذهب القوم إلى جامع المؤيد وأتوا بواعظهم وأسعدوه على  
كرسيه ، واتفق معهم على أن يجتمعوا بالمؤيد في اليوم التالى ثم يذهبوا إلى القاضى  
لينجز ما أمر به الباشا من إحضار الشيخين .

ولكن أمر الباشا هذا كان كفتوى نائب القاضى ، كتب كما كتبت ،  
لتسكين الفتنة ، وصرف الناس . فإنه ، بعد أن أخذت جماعة الواعظ من الباشا  
ما يريدون من أمر ، أصدر الباشا أمراً آخر « إلى إبراهيم بك ، وقيطاس بك  
بمرفهم ما حصل ، وما فعله العامة من سوء الأدب ، وقصدهم تحريك الفق  
وتحقيرنا نحن والقاضى . وقد عزمت ، أما والقاضى على السفر من البلد » .

فلما قرأ إبراهيم بك وقيطاس بك وبقية الماليك ذلك ، لم يقر لهم قرار حتى  
بني الواعظ من البلد وتفرق الناس من حوله . « وأمرؤا الأغا أن يركب ، ومن  
رآه منهم قبض عليه ، وأن يدخل جامع المؤيد ويطرده من يسكنه من السقط »<sup>(١)</sup> ،  
أى من العوام .

(وهكذا أخرج من القاهرة<sup>(٢)</sup> هذا الواعظ الرومى ، الذى أراد أن يخرج  
الناس عن ماؤوفهم ، وأن يخالف ما يعنى به العلماء في الأزهر ، وما يعتقده العامة  
ويحرمون على فعله)

وقد أرخ الشيخ حسن الحجازى ظهور هذا الواعظ ونفيه في قصيدة أولها :

مصر قد حل بها واعظ عن منهج صدق قد أعرض  
أبدى ، جهلا ، فيها قولاً منه الحيلى ، حالا ، تجهض !

(١) ص ٤٩ — ٥١ من الجزء الأول .

(٢) يروى أمين باشا سامى ، نقلا عن همّز ، أن هذا الواعظ نفى سرا إلى الشام . ونقل  
عنه أيضاً أنه دعا لهدم الزككيا . وقال إن الدراويش أولى بهم أن ينصرفوا لطلب العلم بدل  
عكوفهم على الرقص . وذكر أن الناس تأثروا كثيراً بدعوه فلما نفى عاد الناس شيئاً فشيئاً  
فذكروا فيه .

فأساء الظن سادات أحكام الدين ، بهم ، تنهض  
وهي قصيدة ، كما ترى ، على وزن القصيدة التي كان يتغنى بها الشحاذون  
على أبواب المساجد ، والتي أولها : الحمد لله ربِّ مقتدر .

ومن هذه القصة ، نرى أنه ، على رغم الظلم والظلام الذي كانت تعيش مصر  
تحت سطوته ، في ذلك الوقت ، نرى أن حركة تحريرية مثل هذه وحدث لها مكانا  
في عقول الناس ، حتى تبع هذا الواعظ ألف من رواد المساجد ، يقتحمون بيت  
القاضي وديوان الحاكم . وكان من الممكن أن تشر هذه الحركة التحريرية ثمرتها ،  
لو لم يقض عليها العلماء ، والقاضي ، والباشا .

ومن هذه القصة أيضاً . ومن تصرفات القاضي ، ونائبه ، والباشا ، يستطيع  
أن نحكم على مستوى الأخلاق عند أصحاب السلطة ، الدينية والزمنية ،  
إذ ذاك .

وقد رأينا ، في ترجمة الشيخ حسن المطار ، أنه كانت عنده زعة لطيفة  
للتحرر ، ودعوة هادئة لاجراء مصر من قيود التقليد ، يمكن أن يذكرها عند  
ذكر هذا الواعظ الرومي ودعوته .

(أما الحياة العلمية ، فكانت ستمتها الغالبة ، الاتجاه إلى الحفظ . ولذلك كان  
يكثّر نظم المأموح المتداوله شعراً ، ليسهل حفظه . وهذه السمة إستمرار لطريقة  
سادت الحياة العلمية عند تأخر العقلية الإسلامية ، وجفاف مواردها . ومجد كثيراً  
من الأمثلة على ذلك في صفحات مختلفة من الجبرتي .)

### بيت الشرايبي

ولا يكون الحديث عن الشعر والنثر ، والحياة الفكرية والعقلية لهذا العصر  
كاملاً ولا وافياً ، إلا بذكر قوم ، ليسوا من الشعراء ، ولا من النثرين ، ولا من  
أهل الفكر . بل كانوا تجاراً . ولكن لهم ، في هذه الحياة الفكرية ، أثر كبير  
وهم بيت الشرايبي .

كان آل الشرايبي من كبار التجار ، وكان بينهم من بيوت المجد والمز  
والمخر . مماليكهم ، وأبناء مماليكهم ، من أعيان مصر وأمرائها . وكانوا ذوى  
ثراء فاحش . ورفاهية . وكانت بيوتهم ، فى الأزبكية ، تشتمل على إثني عشر  
مسكناً ، وكل مسكن ييب مستقل ، فسيح . يتردد عليهم فيها الأمراء ، من غير  
موعد ، ولا دعوة . ويقصدهم فيها الشعراء ، والملاحون .

وكانت فى بيوتهم مكتبة عامرة . فيها أفندر الكتب ، وأغلاها ثمناً ، يرغبون  
فى شرائها ، ويدفعون فيها نفيس المال . ثم يضعونها فى هذه المكتبة ، ويبسجون  
لن شاء من العلماء ، وأهل الأدب ، أن يطالع فيها ، وقتها يشاء . وكيفما يريد ،  
هى موضوعة على الرفوف ، والحرائن . لا يكتبون عليها وقفية . ولا يدخلونها  
فى إبتوارثونه من مال ، وهى مال جسيم .

وكان من رغب ، من روار بينهم من العلماء وأهل الأدب ، فى أن يطالع كتاباً  
فى أى علم ، أو فن . وجد ما يتفنى ميسوراً مباحاً . فإذا أراد أن يأخذ ما يشاء  
من كتب إلى بيته ، أو مسجده ، أو بلده ، أخذه . ولولم يعرفه أحد من أصحاب  
البيت . فهم لا يمنعون رغباً عن كتاب ، مهما يكن الحال . وكان بعض من يأخذ  
الكتب من بيت الشرايبي ، لا يردها . بل يبيعها ، فلا يسأل عنها . وقد يبيعها  
ثم تعود إليهم مرة أخرى ، فيعودون إلى شرائها . معتذرين عن أخذها فباعها  
أنه قد يكون محتاجاً ، وقد يخرج الكتاب من خزائهم ، فيباع عليهم مرة بعد  
مرة . وهم يشيرونه راضين . ويصعوبه ، فى كل مرة ، حينما كان ، ميسوراً مباحاً ،  
لن يقرأ ، ميدولاً لمن يأخذ .

وكان بينهم بفتح دائماً لكل طارق . ولا ينقطع منه العصف . ولا يرد  
عن طعامه سائل ، ولا جائع ، ولا محتاج .

وقد مات كبير بيت الشرايبي هذا ، الخواجه الحاج أحمد بن محمد الشرايبي ،  
حوالى سنة ١١٧٠ .

وكان آخر هذه الطبقة من بيت الشرايبي ، شقيقه إبراهيم ، المشهور بابن  
المادة ، صديقاً حميماً للجبرتي . ومات في سنة ١٢٠٥ .

وكان لهذه الأسرة نظام عائلي فريد . يختارون منهم كبيراً ، يكون إليه أمر  
أموالهم ، ينميها ويستثمرها ، ويقوم على حسابها العام كله . فإذا تجمع لديه ، آخر  
العام ، ربح هذه الأموال ، قام بدفع ما عليهم جميعاً من الضرائب . ثم أعطى كل  
فرد من أفراد الأسرة ، رجلاً أو امرأة ، ما يلزمه لكسوة الصيف ، ثم لكسوة  
الشتاء . وخصص لكل منهم ، في كل شهر ، قدرًا من المال ينفق منه على حاجته .  
وهو يعطى هذه النفقات الشهرية لكلٍّ منهم حسب ما يرى أنه يكفيه ويستحقه .  
وهم لا يترضون . وعند ما تبقى فصلة من المال في نهاية العام ، يفرقها عليهم ،  
حسب حاجتهم ، واستحقاقهم .

ويقول الجبرتي إن هذا النظام ، الاشتراكي ، بقى سائداً في بيت الشرايبي  
زمنًا طويلاً .

وكان من تقاليد هذه الأسرة ، أن يتزوج أفرادها فيما بينهم . فشبابهم يتزوج  
من فتيات الأسرة . ولا يتزوج من غيرها . وكذلك فتياتها .

وفي خطط علي باشا مبارك أن بيت أسرة الشرايبي كان في ميدان العتبة  
الخضراء . وكان يعرف ببيت « الثلاثة ولية » . وأن السيد محمد الشرايبي بنى فيه  
مسجداً عرف باسمه ، ثم عرف فيما بعد باسم جامع البكري . وبيت الشرايبي هذا ،  
اشتراه الأمير رضوان كتنخدا فيما بعد . وجعل منه قصوراً مادية . تحدثنا عنها  
في مواضع أخرى من الكتاب . وبنى حزه من هذا البيت كانت فيه ، إلى سنين  
غير بعيدة ، الحركة المختلطة القديمة .

## حياة الناس

### في القاهرة

نرى في هذا السجل الحافل ، الذى سجل به الجبرتي كل صغيرة وكبيرة من تاريخ عصره ، هذه الحياة المصرية العظيمة حية تفيض بالحياة والقوة .

فهو يسجل هذه الحياة الاجتماعية التى كان الناس يحيونها في القاهرة والريف . وكيف كانت هذه الحياة تسير بهم ، أو يسرون فيها ، يوما بعد يوم . وعاما بعد عام . ويذكر ما كان في القاهرة من قصور مشيدة ، وحدائق . وما كان يفيض بين أيدي أهلها من الأمراء والتجار والعلماء أيضا ، من الثروة . وما كانوا يعمون به من رغد العيش وطلب الحياة . ويذكر ما كان ينال الناس من شقاء ومن مرض وقفر . حتى لا يجدوا ما يطعمون ، فيأكلون الخيفة ، والحجير ، والقطط . ويجدون أنفسهم سعداء ، إذا وجدوها ، بعد سعى ، وجهد ، وطول معاناة .

وهو يصف ، أيضا ، ما كان بين الناس من مودة ، وتماطف ، وبر . وما كان عند أغنيائهم من أريحية . وعند فقرائهم من أمانة . ويذكر أيام القاهرة ، ومواسمها . التى يحفل بها الناس ، ويتهمجون فيها . ويذكر شيئاً قليلاً يشير به إلى حياة الفن والفناء ، وإلى ملاحهم وأفراح السادة منهم .

### الثروة والتعيم

أما ثروة الأمراء ، المالك ، وما كان في قصورهم من التعيم والترف ، فقد كان يسيراً على الجبرتي أن يصفه ، حيث كان صديقا لكبارهم ، يزورهم في هذه القصور ،

ويشاركهم في بعض هذه الحياة المترفة التي كانوا يجيئونها ، ويحرصون على أن يلبسوا بها غاية ما يستطيع من رفاة ومن رغد<sup>(١)</sup> .

كان للسيدة زليخا ، زوجة إبراهيم بك ، ناج من الجوهر . ولم يكن كل ما تملك من الجواهر والذهب .

« وعندما زار فولى مصر ، في أواخر القرن الثامن عشر ، قدر عدد المالكين بنحو ٨٥٠٠ مملوك ، من الرؤساء ، الذين ينفق الواحد منهم ، على سلاحه وملبسه ، وزوجته ، وسراريه ، نحو ألفين وخمسمائة جنيه في العام . وهذا تقدير شاهد عيان<sup>(٢)</sup> » .

وكان من عادة هؤلاء المالك ، إذا أعتقوا واحداً من ممالكهم الصغار ، أن يحملوا عليه الخلع الثمينة ، والثياب الغالية ، من صناعة الهند ، وحرير الشام . ويقدموا له البيوت ، بل القصور ، المؤثثة بالرياش الفاخر ، والجواري والخدم . ويهدون له أسائل الخيل ، وقد يزوجه .

وكذلك كانوا يصلونهم ، في الأعياد والمواسم ، بالهدايا الكثيرة ، الكبيرة القيمة .

وحين هرب على بك ، بعد أن خدله أنصاره ، إلى الشام . التجأ إلى صديقه الشيخ ظاهر في عكا ، وأخذ معه ، من الأموال ، ثمانمائة ألف محبوب ذهب ، على خمسة وعشرين حلاً . ونقل معه أيضاً ، من المصوغ والخلى ، ما قدرت قيمته بمبلغ ثلاثة ملايين محبوب ذهب . أى ما قيمته الآن حوالى ستة وتسعين ألف جنيه .

وقد وصف فولى ، في رحلته إلى الشام<sup>(٣)</sup> ملابس جنود على بك وصفا دقيقا ، فقال إن ملابسهم تتكون من أرصة ، أو خمسة ، أردية وطيلسانات ، تتدلى على

(١) انظر ما وجد في قصر مراد بك ، بعد فراره . في الجزء الثالث من الكتاب

(٢) ص ١٥٠ من كتاب « الممالك في مصر » للاستاذ أنور زقفة .

(٣) قام فولى برحلته إلى مصر وسوريا سنوات ١٧٨٣ و ١٧٨٤ و ١٧٨٥ . وهو

كان هراي .

أرجلهم . وكان قميص الفارس منهم من القطن الناعم الأبيض ، والثوب المتدلى فوق القميص ، من القماش الهندى الخفيف . وفوق ذلك القفطان من حرير مرزكش ، تمتد أكمه حتى أطراف الأصابع . ثم « الكرك » بأكمام قصيرة . ويطوف حول الرقبة ، وراء من السمر . ولكل واحد منهم طيلسان يلبسه فى الحفلات ، يلبس به جسمه جميعه . وكان عدد هذا الجيش أربعين ألف مقاتل (١) .

وكان مقص الخنجر الذى يحمله على كتفه ، يقدر ثمنه بمائتى ألف جنيه (٢) .

وسمى حسن كاشف لنفسه قصرآ من أجل القصور . أُنفق عليه ، كما يقول الجبرتى ، أموالا عظيمة . وقيل أن يتم بياضه دخل الفرنسيون القاهرة ، فخصه بابلون لإقامة أعضاء المجمع العلمى ، الذى كان يرافقه ، وقد كتب أحد أعضاء المجمع يصف هذا القصر ، وقصر قاسم بك ، الذى كان يجاوره ، وخصص لأعضاء المجمع الفرنسى أيضا ، كتب يقول : — « إن فى هذه القصور ، من أسباب الضخامة ، ما لا يقل عن اللوفر . وإنما لنجد فيها ، من أسباب الراحة ، أكثر مما فى اللوفر . ومجوارها حديقة فسيحة ، تبلغ مساحتها نحو خمسة وثلاثين فدانا . جيدة الفراش . أما قاعة جلسات المجمع فإنها مزودة بأجل ما فى قصور الممالك من الأثاث (٣) » .

وكان قصر حسن كاشف هذا فى الناصرية . ومكانه الآن المدرسة السنية .

وكانت الأمير عبد الرحمن كتنخدا ، صاحب المائر الكثيرة ، الضخمة ، دار بحارة عابدين ، نقشت مجالسها بالذهب الموه ، واللازورد . وصبغت جدرانها بالأصباغ البهيجة ، البديعة الصنع . وزخرفت بالرخام والتيشانى وغرس إلى حوارها بستانا عظيما ، أقام فى داخله محاسا تتوسطه أحواض المياه المغروشة بالرخام ، وأقيمت قاعة المجلس نفسها على أعمدة من الرخام الأبيض .

(١) من ١٥٠ — ١٥١ من كتاب « الممالك فى مصر » لأبور رقعة .

(٢) من ٢٧ من كتاب « تاريخ مصر من عهد المماليك إلى نهاية حكم إسماعيل » تأليف جورج يانغ . الترجمة العربية .

(٣) ١٢٢ ج ١ — من كتاب « تاريخ الحركة القومية » لعبد الرحمن الرافعى .

وبنى الأمير يوسف بك داراً على بركة الصيل ، تحاه جامع الناس ، ظلت عمارتها مستمرة خمس سنين . وجاءه يوما ، من أراضيه في الصيد ، ثمانون ألف أردب من القمح ، فصرفها كلها أجورا على البتائين ، وثمنا للأحجار ، والحديد ، والخشب ، والجلس ، والجير . الذي كان يحتاجه لبناء هذه الدار .

وكان لمحمد بك الأتني بيت متنقل ، يل قصر مصنوع من الخشب . محزؤ إلى قطع متفرقة . تحمل على الجمال عندما يريد السفر . ثم ترك ويضم بعضها إلى بعض ، ويربط بأربطة من الحديد . فيشكل منها بيت لطيف مرتفع عن الأرض بثلاث درجات . ويفرش بالطنافس النالية ، والوسائد الحريرية والأصرة . وله سقف مرفوع . ونوافذ تفتح وتغلق ، حسبما يشاء .

وقد بنى الأتني ، في سنة ١٢١١ قسرا من قصوره ، على بركة الأزكية ، وبعد أن تم منه الطابق الأول ، لم يعجبه ، فأمر به هدم ثم أمر ببنائه من حديد ، على وضع آخر . واختار أربعة من أمرائه بقمون للإشراف على البناء .

وطلب له الصناع ، والأخشاب ، والمؤن . حتى أوشك الناس ألا يجدوها . وأنشأ طواحين خاصة لطحن الجلص لقصره هذا . ولما أنه جعل على نوافذه شرايح الزجاج الملون . والبلور الصافي البق . حتى قدرت الشريحة الواحدة من البلور بحجمائة درهم . ثم فرش القصر بالطنافس النالية ، وعلقت فيه الستائر ، والوسائد المزركشة المصنوعة . وبنى فيه حمامين ، في كل طابق حمام . وعلق في حجراته النحف ووضع فيها أشياء ثمينة أهديت إليه عندما سافر إلى إنجلترا . وأنشأ في طابقه الأول قاعة كبيرة لجلوسه فيها حوض كبير الماء ، فيه سلسبيل من الرخام مركب من قطعة واحدة . وله نافورة كبيرة يتدفق فيها الماء . ومن حولها نافورات أخرى صغيرة على هيئة أسماك تنج الماء من أفواهها . وغرس إلى جوار هذا القصر بستانا عظيما .

(وقد أقام الأتني في قصره هذا نحو عشرين يوما من شهر شعبان سنة ١٢١٢ ثم دخل الفرنسيون مصر . فالتجده بابلون سكنا له . ثم سكنه من بعده الجنرال



كليب ، بعد سفر نابليون من مصر . ثم الجنرال عبد الله منو بعد قتل كليب .  
ثم سكنه محمد علي بعد ذلك .

وكان للأمير رضوان كتنخدا الجلفي بيت عظيم « ليس له نظير في عمارته  
وزخرفته ، وكلفته . وسقوفه من أغرب ما صنعته أيدي بني آدم ، في الدقة والصنعة  
وكله منقوش بالذهب ، واللازورد ، والأصباغ . وعلى مجالسه العليا قباب مصنعة ،  
وأرضه كلها بالرخام الملون » .

وقد أنشئت ، في وصف هذا القصر ، ومدح صاحبه ، قصائد كثيرة . منها  
قصيدة الشيخ مصطفى أسعد الليمي المياطي . رأينا طرفاً منها من قبل ، وقد عهد  
أيضاً في موضع آخر من هذا الفصل ، شيئاً من مظاهر الثروة والنعيم عند المماليك .

وقد ذكر الجبرتي خبر هدية أرسلها الأمير اسماعيل بك كبير المماليك ، إلى  
السلطان مصطفى الثالث<sup>(١)</sup> فكان منها ستة سروج للسلطان وأولاده . وكانت مع  
السروج عبائات ، هي وقصاعها وقربوسها ، مرصعة جميعاً بالجواهر والذهب .  
والركابات واللجامات والشمابخ والسلاسل كلها أيضاً من الذهب الخالص . والرأس  
والرشفة من الحرير المنسوج بسلك الذهب وشمابخ المرجان والزمرد ، وجميع  
« الشراريب » من القصب والمرحان .

وقد صنعت هذه السروج أدق صناعة وأجملها في بيت محمد آغا البارودي .  
وأرسل مع هذه الهدية كثيراً من القدور والأواني الصينية الجليلة . مملوءة بأنواع  
مختلفة من الشرابات ، كالورد والبنفسج ، ومن العطور كالصندل الممزوج بالسك ،  
والعنبر ، وماء الورد المسكور ، ومن المرببات الهندية مثل القرنفل والزنجبيل .  
وأرسل معها عدداً من أجمل الحياض ، وأقمشة هندية رقيقة ، وعودا وعنرا ، وطرائف  
كثيرة . وقدر ثمن القدر الواحدة التي وضعت فيها هذه الأشرطة أو العطور - وهي  
فارغة - بمائة دينار أو أكثر .

ووصف هذه الهدية لا يدل فقط على الثروة التي كانت تسيل بين يدي المماليك.

(١) تولى من ١٦ صفر ١١٧١ إلى ٨ ربيع الأول ١١٨٧ [ ١٧٥٧ - ١٧٧٣ م ]

بل يدل أيضاً على أن القاهرة لم تخل من الصناعة الدقيقة الجليسة ، ولامن القوق  
الرفيع الأنيق . رغم ما فعل بها السلطان سليم بعد فتحها ، مما سجلناه في موضعه .  
وقد أقام اسماعيل بك الدالي حفلاً لزواج ابنه ، دعا إليه عثمان باشا الحلبي .  
عما انتهى الحفل وضع بين يدي عثمان باشا منديلاً فيه ألف دينار . ورجا منه أن  
يعرقها « بقشيشاً على الخدم وأرباب الملاعب » .

أما ثروة التجار ، وأمواهم ، فيكفيك ، لتقديرها ، أن تذكر ماوراء الخبرتي .  
بعد حديثه عن إحدى الفتن التي وقعت بين الحكام في القاهرة . من أن بعض  
الجند لحى بالسيد أحمد المحروقي ، كبير تجار مصر ، وكان طرفاً في هذه الفتنة .  
فسلبه عشرين ألف دينار اسلامبولي ، كانت في ثيابه .

وفي سنة ١٢٠٢ أعار الأعراب على قافلة للحجاج والتجار ، قادمة من السويس  
فنهبوا منها ، للتجار وحدهم ، ستة آلاف جل تحمل البضائع ، من الأقمشة ،  
والن ، والحرير .

وقد ذكر الخبرتي ، في حوادث سنة ١١٣٥ ، أن جماعة من الجند سطوا ،  
وهم سكارى ، على نسوة من « نساء الأكابر » كن يتنزهن في غيط الأعاجم ،  
بعد قنطرة الدكة بالأزبكية ، فسلبوهن ثيابهن وحليهن ، ثم جاء آخرون ومعهم  
كبير منهم ، فأكلوا سلبهن ، وعروهن من ثيابهن جميعاً .

ويذكر الخبرتي شيئاً كثيراً من الذهب والجوهر ، كن يتحلين به ويصعنه  
في ثيابهن التي نهبت . وكان مع إحداهن غلام سلبت من على رأسه طاقية فيها  
حواهر وذهب . وساب منها سروال شبكية من الحرير الأصفر والقص . وفي كل  
عين من الشبكية لؤلؤة ، وفي نكة السروال أيضاً .

وقد سمعت النساء من الزهرة وركوب الخبرتي غيط الأعاجم بعد هذه الحادثة .  
ولما مات الخوجا محمد الدادة ، وكان تاجراً ، ترك ألباً وأربعمائة وثمانين كيساً .  
وكان يملك خان الحزاوي ، وغيره من الوكائل ، والجمامات ، والجامكية ، أي  
المخصصات ، والأراضي وثلاث سفن تسير في البحر الأحمر .

وقد رأينا فيما كتبناه عن « الأزهر والعلماء » ما كان يشغل بعضهم من أمر الدنيا ، وكيف كانت لهم القصور ، والصياغ الواسعة ، ورأينا ، فيما كتبنا عن الحملة الفرنسية ، أن غرامة فرضت على أهل القاهرة . فكان ما طلب ، من الشيخ محمد السادات ، خمسون ألف فرنك . ومن الشيخ مصطفى الصاوي خمسون ألف أيضاً . كما فرضت خمسون ألفاً أخرى على الشيخ محمد الجوهري وأخيه .

وعندما مات الشيخ محمد شنن ، شيخ الأزهر ، سنة ١١٣٣ ترك لابنه موسى أربعين ألفاً من الذهب البندق . إلى جانب ثروة أخرى من النقود والفضة . والأملاك والضياع ، والوظائف والجاه . ويذكر الجبرتي في ذلك ما يدل على ما كان يسود الناس ، في ذلك الوقت ، من الإخلاص ، والثقة ، والأمانة ، فيقول إن هذه الثروة العظيمة ، تركها الشيخ شنن أمانة عند الشيخ محمد الحداوي ، حتى يكبر ابنه موسى . فلما مات ، أداها الشيخ الحداوي كالة إلى موسى هذا . بعد أن حفظها سنين ، . وبدد موسى هذه الثروة كلها .

وكذلك كانت لمن يتصلون بالحكم والحاكين ثروات طائلة . يذكر الجبرتي أن محمداً علياً غضب ، أو تصنع الغضب ، على المعلم غالى ، كبير الماشرين ، وأمر بتفتيش بيته . فوجدت عنده يعب وستون حارية بيضاء ، وسوداء ، وحشية ، وخامه محمد على من وظيفته . فصالح المعلم غالى على نفسه . ودفع له أربعة وعشرين ألف كيس ، فأعاده إليها .

ومن مظاهر الثروة والتعظيم ما ذكر عن حفلة المولد النبوي ، التي أقامها السيد خليل البكري في بيته . وحضرها نابليون . فقد بسط خمسين مائدة ، على كل واحدة منها خمسة أو ستة يجلسون على الوسائد . وكانت الأطباق على المائدة التي جلس عليها نابليون والبكري ، من الفضة .

### حياة الفوم

هذا الثراء ، وهذه الحياة الرغدة . كان لا بد لأصحابها من حياة اجتماعية بهيجة ومن ثقافة فنية . ولكن الجبرتي لم يوف هذه الناحية حقها من التسجيل ، إما لأنه

شيخ أرهرى . وإن كان من أهل الثراء ، وسادة المجتمع . وإمالاته لم يكن يتمدد أن هذه الناحية مما يستحق أن يحفل بتسجيله . وقد يكون كلا الأمرين سبباً لهذا القصور .

وقد ذكرنا في تراجم بعض أهل الفكر أنهم كانوا يجيدون العزف على العود وبعض الآلات الموسيقية . كما ذكرنا أن بعض شيوخ الأهر كان ينظم الأغاني والمزيات والتواشيح . بل رأينا قسمته على العلماء خاصة ، لأسرافهم في السماع واللهو .

ودكر الجبرتي أسماء بعض الفنانين . والمازمين على العود ، والقانون ، والناى والكنجة . وهم ، إبراهيم الوراق ، والحبابى ، وقشوء ، وقال إنه كان لهم مرافقون يصحبونهم . ولكمه لم يترجم لأحد منهم . وكان ورود أسمائهم فى سياق ترجمة أحمد باشا طوسون ، ابن محمد على ، حيث قال إنه أخذ أهل الفن هؤلاء مرافقين له فى معسكره الذى كان ينتقل به بين القاهرة والإسكندرية ورشيد .

كما ذكر ، فى تراجم كثير من المماليك ، والأعيان ، والعلماء ، أنهم كانوا يقيمون مجالس الفناء .

ولكن مباهج الحياة ، والاستمتاع بالفناء ، والموسيقى . لم يكن قاصراً على هذه الطبقة المترفة من أهل الثراء والجاه . بل كان للقاهريين عامة نصيب كبير من هذه المباحج وهذا المتاع .

وفى وصف الجبرتي لحفلات كسر الخليلج ، أى وفاء انبيل ، ما يدل على أن أهل القاهرة كانوا يتناولون فيها من المرح ، والبهجة ، شيئاً كثيراً . حتى أنهم كانوا ، فى بعض السنين يسرفون فى هذا المرح . ويخرجون به عن الحد . وكثيراً ما سلبت عليهم الباشا ، أو الحاكم ، جنداً شداداً ، ليحول دونهم ودون الخروج بهذه البهجة ، وهذا المرح ، إلى الاستهتار . وسرى شيئاً من ذلك بعد قليل .

وكانت بركة الأرنكية ، مثانة أهل السرور ، ومكان التفره ، وترويح النفس لمن يشاء . كانت ، فى أيام الفيضان ، يملأها ماء النيل . وتملأ على صفحة هذا الماء بالزواجر تعد للزهوة شهراً وليلة . وفى المساء توفد القناديل على دائرة البركة ،

في تلك القصور الزاهرة التي تحيط بها . كما توقد الزوارق التي تسبح على سطحها .  
فيأثلف من هذه وتلك منظر بهيج يسر النفس ، ويشرح الصدر . وخاصة في تلك  
الليالي القمرية من صيف القاهرة الساحر . فيختلط ، كما يقول الخبزي ، « نحيك  
الماء ، في وجه البدور والقناديل ، وانعكاس خيالها كأنها أسفل الماء أيضاً ، وصدى  
أسوات القبان والأغانى ، في ليال لا تعد من الأعمار » .

وقد أظن الشيخ حسن العطار ، وغيره ، من أدباء ذلك العصر وشعرائه ، في بركة  
الأربكية ، وجعلها ، وما كان يحيط بها من القصور . وما كان لأهل القاهرة  
فيها ، وحولها ، من مباهج واعم . وقد رأينا بعضاً من ذلك أول هذا الفصل .  
وكذلك كانت من أما كن الزهرة والراحة ، بركة الفيل . وكانت تنبى على  
جوانبها القصور الواسعة ، وتنشأ الحدائق الجميلة في داخلها وخارجها ومن الشعر  
الذي قيل فيها : —

أظن إلى بركة الفيل التي اكتفت بها الماسطر ، كالأهداب للبصر  
كأنما هي ، والأبصار ترمقها . كواكب ، قد أداروها على القمر

وكانت منازله الخليج أيضاً ، والماء ينساب فيه رفيقاً يسيراً ، في ليالي الصيف ،  
بهجة لأهل القاهرة ومراحا ، ومكاناً للهووم وعبتهم ومتاعهم . حتى قيل فيه :  
لا تركن في خليج مصر إلا إذا يسدل الظلام  
يا سيدي ، لا تسر إليه إلا إذا هووم النيام  
والليل ستر على التصابي عليه ، من فضله ، لثام  
وهذا الشعر لم يذكره الخبزي . بل هو سابق على عصره الذي أرخه . ولكنه  
كان صادقاً في وصف هذه المازة ومباهجها في العصر الذي يؤرخه .

وقد أنشأ الأمير قاسم بك أبو سيف ، وكان يعرف بقاسم كاشف ، في أحد  
فصوره على بركة الناصرية ، حديقة واسعة ، وكان هذا الأمير عارفاً بالهندسة ،  
فأحرى في هذه الحديقة مياه النيل بطريقة ابتكرها . وشق فيها طرقاً ممهدة مستطيلة  
ومعاري للماء ، وعرس فيها الأشجار الباسقة ، والنخيل . وجعل هذه الحديقة  
طقات ، تعلو بعضها بعضاً ، والمياه تصعد إلى أعلاها عن طريق أنابيب خاصة .

وعند كل معصب لهذه المياه أقام مكانا للجلوس ، وعليه أشجار مطلة . وأباح الأمير دخول هذه الحديقة لمن يشاء . وسماها « حديقة الصفصاف والآس » لمن يريد الحظ والإقتناس » وتتش ذلك الاسم على لوحة من الرخام ، رفعها على حدع شجرة ، على مدخل الحديقة .

وقد نكأثر الناس ، على حديقة الحظ هذه ، للزهة والجلوس ، وأقيمت فيها المجالس ، والقهاوى . يجلس إليها المغنون والطيرون ، والناس من حولهم ، يرى بعضهم بعضا ، ويقصدون إليها من جميع الأطراف . وبعضهم كان يقضى فيها الليل كله ساهرا ، لاهيا .

كما كان يقصد إلى حديقة هذا الأمير كثير من الأعيان والكبراء ، يبيتون ليالى ، فى داخل القصر . بعد أن ينعموا سهارم فيها . وكان يبيع لهم ذلك ، وبجى . فهم طعاهم من بيوتهم . ويقول الجبرى إن هذه الحديقة « زاد بها الحال ، حتى امتنع من الدخول إليها أهل الحياء والحشمة » .

وقد سمع الجبرى من الأمير قاسم ، الذى أنشأ هذه الحديقة ، أنه أنشأ ، فى الصعيد ، أعجب منها وأعرب .

وكذلك أنشأ فقيه من فقهاء الحنفية هو السيد سمودى اسكندر بيتا عظيما ، على بركة الأربكية ، وغرس فيه حديقة عظيمة ، فيها قناطر وبوائك . وأباح دخولها للناس . فكان يجتمع فيها « عالم من أجناس الناس ، وأولاد البلد ، شىء كثير . وبها قهاوى ، وبياعون ، وفسكهانية ، ومعانى ، وغير ذلك . وتقف عندها مراكب وفوارب ، بها من تلك الأجناس . فكان يقع بها ، والجلسر المقابل لها ، من عصر النهار إلى آخر الليل ، من الحظ والزاهة ما لا يوصف <sup>(١)</sup> .

(١) قصر هذا الفقيه ، هو الذى اشتراه ، فيما بعد ، محمد بك الألفى وأساف إليه عبره فكان من هذه القصور . بيتة الذى سكنه نابليون كما ذكرنا من قبل .

## أيام أهل القاهرة

مصر الصعيد ما لها من مثل فيها ثلاثة في الهنا والسور  
مواكب السلطان ، ويحر الوفا وحمل الهادي ، نهراً ، يدور  
في هذين البتين ، جمع الشاعر أم أيام أهل القاهرة ، التي يتجهجون بمقدمها ،  
ويحتفلون بها ، ويظهرون فيها زينتهم : ويعلمون سرورهم .

أما مواكب السلطان ، فهي التقاليد التي كانت مصر تقوم بها لاستقبال  
« الباشا » الذي يحتره السلطان . في اسطنبول ، لحكم البلاد . ويسمى الوالي .  
وكانت العادة تجري بأن يبلغ الوالي الجديد نبأ قدومه إلى الديوان في القاهرة ،  
عندما يصل إلى الإسكندرية ، أو رشيد ، أو السويس . فيختار شيخ البلد ، وهو  
كبير المالك ، وفداً منهم لاستقباله . وقد يحملون له معهم الهدايا ، فإذا كان طريقه  
إلى القاهرة على النيل ، ركب سفينة نفحة ، مزينة ، تحيط بها السفن الأخرى محلاة  
بالأعلام والبيارق . وفيها الطبول تدق ، والزور تعزف . وكلما صادفهم سفينة  
في النيل ، انحدرت معهم إلى القاهرة . فيكون من هذا الأسطول النهري مهرجان  
بحري رائع . وعندما تصل سفينة الوالي إلى ساحل بولاق ، يذهب لاستقباله  
كبار المالك ، والصناعي ، وتطلق المدافع . وقد يذهب شيخ البلد بنفسه  
لاستقباله في بولاق . وبعد أن يرحب به مستقبليه ، يسلمون إليه مفتاح القلعة ،  
مقر الحكم والسلطان .

وقد وصف الرحالة الفرنسي سافاري أحد هذه المواكب ، كما شاهدها  
في المدة التي قضاها في مصر من سنة ١٧٧٧ إلى نهاية سنة ١٧٧٩ ، وهي من  
المصر التي نورد ، فقال : « شاهدت ، بعيني ، وصول الباشا ، ودخوله المدينة ،  
في موكب وزينه ، رأيت الموكب تتقدمه فصائل من الجنود المشاة ، يسرون سفين ،  
وموسيقاهم أمامهم . وأعلامهم تحف فوق رؤوسهم . يلهم الفرسان ، وعددهم نحو  
خمسة آلاف إلى ستة آلاف فارس . يسرون بنظام حسن . ويحملون الرماح الطويلة  
( ٨٠ - الجري )

تزينهم ملابسهم الفضفاضة اللامعة ، وشواربهم الكبيرة . فكان لهم منظر حربي يبعث الروعة في النفوس . ويلي هؤلاء « البسكوات » مرتدين الملابس البديعة ، وحولهم حشيتهم من المالك ، يمتطون صهوات الحيات العربية الأصيلة ، وعليها عواش موشاة بالذهب والفضة . رأيت أعنة خيول الأمراء مرصعة بالؤلؤ والأحجار الكريمة . وعلى خيولهم السروج ، تتلألأ بالذهب . وكل بيك يسير في موكب ، على هذه الصفة . فكانت مواكبهم ، مجتمعة ، غاية في الرونق والفخامة ، يزينها جمال الفرسان ، وشكل ملابسهم ، وحسن استوائهم على متون جيادهم . ويلهم الباشا ، يسير الهويناء وتتقدمه كوكبة من مائتي فارس ، وفرقة من الموسيقى . وأمامه أربعة من الحيات ، يقودها أربعة من السواس ، وعليها غواشها ، موشاة بالذهب ، مرصعة بالأحجار الكريمة . وكان الباشا ممتطياً جواداً كريماً ، وقد وضع على عمامته ريشة من قطع الماس الكبيرة ، يتوهج سناها في أشعة الشمس<sup>(١)</sup> .

ويذكر الحرقى استئصال الوالى هذا بقوله إنه جرى على العادة ، أو خرج الأمراء لللاقاة . وأشياء ذلك .

وأما بحر الوفا ، فهو احتفال أهل القاهرة بوفاء النيل . وكانوا يسموه ، أول الأمر ، كسر البحر . لأن السد يكسر لتجرى مياه النيل في الخليج . ثم نفر المصريون ، بذوقهم المزهف ، من كلمة « كسر » في هذه المناسبة ، فسموه « جبر البحر »

وكان بلوغ النيل ، في المقياس ، ستة عشر ذراعاً ، إيذاناً بأفراح القاهرة بوفاء النيل . فيبلغ قاضي المقياس ولى الأمر أن النيل بلغ وفاءه . وينطلق النادون في شوارع القاهرة يرفون لأهلها اشبرى . وفي اليوم الذى يحدد ، بعد ذلك ، يقام الاحتفال ، فترين السفينة « العقبة » . كما ترين غيرها من السفن . وقد ترسل الدعوات لحضور هذا الحفل . حيث يجتمع الوالى ونائبه . وشيخ البلد ،

(١) تاريخ الحركة القومية لعبد الرحمن الراحمي . ص ٢٥ — ٢٦ ، جزء ١ .



كبير المليك ، وقاضى القضاة . وكبار العلماء والأعيان . ويكسر الوالى أو نائبه سد الحسر . فإذا جرى الماء فى الخليج ، يشق القاهرة ، وتفيض منه بركة الأربكية وغيرها من منازل القاهرة ورياضها . خرج أهلها فى مباحجهم إلى المقياس والروضة وغيرها يتزهون . وتطلق المدافع ، وتقام الزينات على البيوت ، وتضاء القناديل فيها . وعلى حببات البركة . وتسير فى الخليج الزوارق المزينة تصيئها القناديل أيضاً وتصدح الموسيقى . ويفنى المنون .

ويتضى أهل القاهرة بهارهم هذا وليلهم فى سرور ، وبهجة ومرح شامل . فإذا كانت القاهرة فى حرب ، أو مجاعة ، أو وباء . لم يكن يقام هذا المهرجان ، وقد يكسر الحسر ليلاً ، فيرى الناس ماء النيل فى الخليج صباحاً ، ولم يقيموا له زينة ولا مهرجانه .

وأما خروج الحمل ، فكان يجرى الاحتفال به ، عادة فى المصف الأخير من شهر شوال ، فى كل سنة . يجتمع لذلك ، فى ميدان القلعة ، الوالى ، أو نائبه ، وكبار المليك ، وأمير الحج ، والعلماء ، والأعيان . ثم يمر الجمل ، الذى يحمل الحمل ، فى شوارع القاهرة الكبرى . وتسير الجمال تحمل روابى الماء والقرب ، ثم طوائف الجند ، على رؤوسهم الطرايطر السود ، والقلايق . وخلفهم أمير الحج ، ثم أبواب الأتشار ، من رجال الطرق الصوفية ، يحملون البيارق ، والخرق ، واطبول ، والزمور ، ومن خلفهم الحمل . والاس على جواس الطريق ، أوساثرون حصه ، يتركون به .

وكان يحتفل بمودة الحمل أيضاً ، عندما يتيسر للحجاج ، وأميرهم ، أن يعود . ومن الأيام التى كان ينتهج فيها أهل القاهرة ، ويحتفلون بها ، ويشاركون فى ذلك أهل المدن الأخرى ، يوم الرؤية . أى رؤية هلال رمضان . حيث كانوا يربون بيوتهم بالأعلام ، ويضيئونها ، ليلاً ، بالقناديل .

وكانت تقام ، فى القاهرة ، وفى غيرها من بلاد مصر ، فى بعض المناسبات ، مواكب تشبه المهرجانات ، التى تقام فى مدن أوروبا المختلفة . مثل مهرجان الزهور ، والربيع ، والورد ، والقمح ، والنفاح ، وغيرها .

وكانت تقام في أيام عامة ، معروفة ، وفي مناسبات يختارها الشعب ، ليطهر فيها ابتهاجه بما يحرك عاطفته . ويزر شعوره ، نحو حادثة ، أو إنسان .

كان السيد عمر مكرم ، دعي مصر . وكانت له مكانة تجعل أهل مصر كلها يرون في أفراحه وأيامه ، ومواسمه الخاصة ، أفراحاً ومواسم للشعب كله . وفي يوم الإثنين السادس عشر من ربيع الأول سنة ١٢٢٤ ( أغسطس ١٧٩٩ ) احتفل السيد عمر بختان ابن بنته . فأقام أهل القاهرة مهرجاناتهم الشعبي هذا . وسار فيه أرباب الحرف المختلفة ، يقودون عرباتهم وهي تمثل الحرفة ، أو العمل ، التي يقوم به كل طائفة منهم . فيجيء أصحاب كل حرفة بعرية ، على هيئة مخصوصة يختارونها ويتسابقون في رخصتها وتزينها بأنواع القصب ، والحرير الملون ، ويضعون على ظهرها أدوات صنعتهم ، أو تجارتهم . ومع هذه الأدوات ، الصانع . أو البائع ، كأنها حانوت متنقل . فتسير عربة ، مثلاً ، عليها صانع حلوى ، ناوانيه ، وأكوابه ، وأدواته ، من الدقيق والسكر ، وغيره ، وهو يقوم بصناعته فوق العربة ، وهي تسير . ثم أخرى على ظهرها خياط يقص أثواباً ، ويحيطها . وأخرى عليها حبار ، بفرته . وعجيبة . يصنع الخبز . وأخرى عليها بناء ، أو حداد ، بكوره ، ومطرقته ، وحديدته ، الذي يطرقه ، ويطويه ، ويدينه . أو ريات ، أو عقاد يعقد الحرير . وكان الصيادون يصنعون عرباتهم على شكل قارب له شراع أو أكثر ، يسير على عجل ، وهكذا . وأمام كل عربة يسير أهل الحرفة التي تمثلها ويخرج أهل القاهرة ليشاهدوا هذه المواكب الشعبية الجميلة ، ويروا فيها صورة مشرقة ، منسقة ، حسنة العرض ، من حياتهم العامة والخاصة . وكانوا يتساقون ، من الصباح الباكر ، للجلوس في الأماكن التي تمر بها هذه المواكب ، كما يفعلون الآن . ويدهمون ، في الجلوس بها ، أجوراً غالية . ويلبس الناس ، من المتفرجين ، والسائرين في المواكب ، أحسن ثيابهم ، ويظهرون في أبهى ريتهم ، فقد كانوا يسمونه « يوم الزينة »<sup>(١)</sup> .

(١) بقيت هذه المواكب إلى وقت قريب . وقد رأيناها ، في طفولتنا . في مدينة قرية من الإسكندرية ، تدير على هذه الصورة ، في شوارعها .

وكانت هذه المواكب تمشي شوارع القاهرة ، وميادينها ، بين فرح الناس وابتهاجهم .

وفي يوم الخميس السابع من المحرم سنة ١٢٢٩ ( ٣٠ ديسمبر ١٨١٣ ) احتفل محمد علي بقران الله اسماعيل ، بانه عارف بك ، ابن خليل باشا ، وزفاف ابنته إلى محمد بك الدفتردار ، فأمر أرباب الحرف بإقامة هذا المهرجان . وقضوا أياما عدة في تنظيمة وترتيبه ، وترتيب سيره . وكانت العربات التي اشتركت فيه ، ممثلة للحرف المختلفة ، إحدى وتسعون عربة . وقد اختار هذا اليوم ، لبشرك الأوربيون في هذه الأفراح باشتراكهم في عيد رأس السنة .

وبقيت هذه المواكب الشعبية ، من شروق الشمس إلى غروبها ، تشق القاهرة ، من الموسيقى إلى باب الحديد ، إلى بولاق . وشاء الله ، أن ينزل مطر غزير في ذلك اليوم ، والمواكب سير في وسط المدينة . وباهيك بطر غزير في شوارع القاهرة الضيقة ، المتربة ، فاختل النظام ، وابتلت العربات ، وما زينت به ، وأطفيء ما كان موقدا فوقعها من أفران ، وأكوار . وسكت الفنانون والماعزون ، وتزلت الرافصات ، والمغنيات ، من فوق العربات ، ولقي الناس من ذلك عناء شديداً ، تسكدر به صفوهم في المهرجان وتلفت ثيابهم ، ووقع كثير منهم في الماء والطين .

وهذه المهرجانات ، ليست لهواً ولعباً ، بل هي « معرض » متنقل ، يمثل الحياة الصناعية ، والإنتاجية في البلاد . وهي منافسة في العمل على تقدم هذه الحياة ، وازدهارها . وتدكير للناس بما في وطنهم من صناعة ، حتى يعرفوها ، ويقبلوا عليها ، ويفكروا فيها . وهي منافسة ، أيضاً ، في الإخراج ، والتنسيق وإبراز الرينة ، وتذوق الجمال ، وعرضه على حماهير الناس ، وتعويدهم إدراكه ، وحببه ، لتهدب حسهم . وهي مواسم للتجارة ، والانتقال ، والسفر ، وكلها مظاهر للنشاط المفيد ، المنتج .

وهي ، بعد ذلك ، مباحة عامة للشعب ، تمكن ما بين أفرادها من وشائج ، ونمى ما بين نفوسهم من روابط المحبة ، والتعاون ، والعمل . وتعودم النظام .

وتدخل في حياتهم السكادحة ، كثير من السرور ، والسعادة والبهجة .  
ولكن أهل القاهرة ، لم يكونوا ، في هذه الأيام التي ذكرها الشاعر ، ولا  
في غيرها من هذه الأيام التي ذكرناها ، يكتفون بإظهار السرور ، والبهجة ،  
والفرح المرى ، المقتصد .

بل كانوا يتجاوزون ذلك إلى نوع من الحرية والتطرف والشطط . لا يراعون فيه  
تقاليدهم الطيبة . ولا يلتزمون أوامر دينهم ، وما مكارم أخلاقهم . ولا حدود آدابهم ،  
في التحفظ ، والتجمل ، والبعد عما يسقط المروءة ، ويستحي منه كرام الناس .  
وكان أكثر ما يكون ذلك ، في أيام جبر الخليج ، أو وفاء النيل ، كما أشرنا  
إلى ذلك ، منذ قريب . وكما نرى في صفحات غير قليلة من الجرائد . ملأها سحطا ،  
ومرارة ، والمأ . لما كان يفعل الناس بأنفسهم ، وأخلاقهم ، وآدابهم . وما كان  
في حياة معاصريه ، من أهل القاهرة خاصة ، وغيرهم على العموم ، من الانحراف  
والتطرف ، الذين خرجا بهم عن الحد .

## أخلاق الناس وآدابهم

في صفحات غير قليلة ، وفي سنين متقاربة أو متباعدة . رى مثل هذه السكيات التى يصور فيها الجبرقى مظاهر الحياة الأخلاقية فى عصره : — « كانت أيام هذا الشهر ، من أسوأ ما رأى الناس . بحيث لا يحلو يوم من زهجات ورجفات وكراشات . فى غالب الجهات . لأحل امرأة ، أو أمرد<sup>(١)</sup> » .

أما تفصيل هذا الذى يحمله الجبرقى فى مثل هذه السكيات ، فهو شيء كبير ، وعجيب حقا .

وكان أعجب ما يجترأ عليه من ذلك أهل عصره ، يقتطفه جند الدولة . وقوادها ، وأمرأؤها أيضا . بل وبعض ولائها كذلك

يقول الجبرقى ، عند حديثه عن حروب محمد على فى الجحاز ، إن زوجة أحد المحاربين ، أسرت فى إحدى المواقع . فلما طلبها زوجها ممن وقعت فى يده . قال له : — سأودها إليك غدا ، بعد أن تبيت عندى هذه الليلة .

ويقول إن هذا الجند كانت معه ، عند سفره للجحاز ، صناديق المسكرات . وكان لا يسمع فى معسكراتهم أذان . ولا تقام فيه صلاة . وأن كثيرين من قتلى جند مصر فى هذه الحرب ، وجدوا علقا ، غير محتنين . ثم روى عن بعض كبار هؤلاء الجند قوله « إن أكثر عساكرنا على غير الملة ، وفيهم من لا يتدين بدين . ولا يلتحق مذهبا » .

وفى رمضان ، من سنة ١٢٣٠ . كان أكثر أتباع الدولة ، وكبار الجند ، مفطرين . يجهرون بذلك من خير احتشام ، ولا مبالاة . ويجلسون على الخوانيت ، واللصاطب ، يأكلون ، ويدخنون . ويأثى أحدهم ، ويبد « الشبك » فى دنى مجمرته من أنف مسلم صائم . وينفخ فيه دخانه ، على حين غفلة . ساخرا منه ،

هازناً به . وحدث أن أدخل رجل من الجند امرأة في مسجد الأشرعية ، وفعل بها الفاحشة فيه ، بعد صلاة الظهر ، في رمضان ، من هذه السنة .

ويذكر الجبرتي قصة أخرى عن هؤلاء الناس من جند الدولة ، تلخص في أن واحدا منهم تعلق بفلام من أهل القاهرة . وصار ينعمه في الطرقات ، حتى لقيه ليلة في مكان قريب من جامع الناس . فأمسك به ، يريد أن يقتضيه ، في الطريق ، فتودد إليه الفلام حتى دخل به درب حاب المروفي بدرب الحمام ، وكانت فيه بيوت حرة . ثم لحاه الفلام بموسى ، كان يخفيها ، فقطع بها عضوه . وتركه بين الحياة والموت . حتى جاء بعض رفقاته من الجند فحملوه . وكان ذلك في رمضان .

وكانوا عرون شوارع القاهرة في نهار رمضان . والقهاوي مقفلة . فيطلبون أصحابها ليعتجوها ، وليصنعوا لهم القهوة ليشربوها . فإذا أبى صاحبها ، أو اختفى منهم كسروها ، وعبثوا بما فيها من الآنية والأدوات . حتى يجيء لهم قهرا .

وكان يجتمع في معسكراتهم الكثير من النساء المحترقات للنفاء . فيمصبوا لهن الخيام . ويجيء بعد ذلك البائعون ، وفيهم بائعوا الحشيش . والقواري والراقصون . وكثير من أهل الأهواء ، والفساق ، و«العبياق» من أولاد البلد . فيصرفون جميعاً إلى شرب المسكر ، وأكل الحشيش ، والاحتجاج بالنساء ، والتلفان . ولعب القمار ، جهاراً . في نهار رمضان ولياليه .

ويختلط أهل البلد ، العاسقون منهم . هؤلاء الجند ، بإشار كونهم ذلك كله . وكان كبار الجند يفعلون ذلك ، أمام جندهم ، وأمام الناس . ويجهرون بذلك الإثم كله

يقول الجبرتي ، في حوادث شهر رمضان سنة ١٢٢٤ ، إنه وصلت إلى القاهرة طائفة من جند الدلائية<sup>(١)</sup> من ناحية الشام . وكانوا يصحبون معهم جماعة « من الخنثيين المروعين » بالخلوات . الذين يتكلمون بالكلام المؤنث . ومعهم « دقوف

(١) الدلاء . أو الدلائية ، جند من أكراد سوريا . ونجد وصفهم وأصلهم في صفحة ٢٤١ من الجبرتي ، الجزء الرابع .

وطناير . ويقول عنهم ، في موضع آخر ، من حوادث سنة ١٢٢٠ إنهم كانوا « يحطفون النساء والأولاد . بل يلوطنون في الرجال الاختيارية » أي كبار السن . وفي شهر دى الحجة من سنة ١٢١٧ اغتصب أربعة من الجند غلاما لحلاق ، في حط بين السورين . فتصدى لهم هذا الحلاق ، فقتلوه . وذهبوا بالغلام إلى بيت لهم . وتكاثر الناس عليهم يريدون إخراج الغلام . وحصر كبير من الجند ليخرجه أيضا فصرخوا رجاله بالرصاص حتى قتلوا منهم ثمانية . ولم يستطيعوا إخراج الغلام . أو أخذهم إلى الباشا . وفي اليوم التالي جاء الباشا بجندة إلى هذا البيت . فأخرجهم ، بعد معركة أخرى ، وقتلهم شنقاً . ولكنهم وجدوا في بيئهم أكثر من ستين امرأة مقتولة . وفيهن من وجدوها وطفلهن مذبح منها ، في حضنها .

(ويقول الجبرتي إن شر هؤلاء الجند ، كان لا يقف عند حد ، وقد وقع بالناس ، من ذلك ، بلاء عظيم . حتى حضروا من أطراف القاهرة ، ومن مصر القديمة ، إلى الأزهر يشكون ويستغيثون . ويدكر الجبرتي أن جند الدلاء ذهبوا ، في عهد ولاية أحمد باشا خورشيد سنة ١٢٢٠ ، إلى قديوب . فنبهوها ، وأخذوا نساءها وبناتها وصبياتها وباعوهم فيما بينهم . وحاربهم الفلاحون من أهلها حتى قتل منهم — من الفلاحين — أكثر من مئة )

(ونستطيع أن ندرك الآن . ما كان يلقاه أهل القاهرة ، خاصة ، من بلاء ، على يد هؤلاء الجند ، وما كانوا يشيرون فيها من فساد ، وإثم ، وشر . إذا عرفنا أن عددهم كان ، قبيل قدوم الحملة الفرنسية ، إثني عشر ألفاً . وكان سكان القاهرة إذ ذاك ثلاثمائة ألف )

وكان بمصر الحكام ، من المماليك ، يدفع الناس دوماً إلى مقارفة هذه الرذائل . فهو يقول عند حديثه عن الأمير رسوان كنتخدا الجلي ، الذي مات سنة ١١٦٨ ، إن النساء تبرجن في عهده ، وتظاهر الناس بالمعاصي حتى خرجوا عن الحد . وكان تمنع أصحاب الشرطة من التعرض لهم فيما يفعلون « فكأت مصر ، في تلك الأيام .

مراتب غزلان ، ومواطن حور وولدان ، كأنما أهلها خلصوا من الحسام ورفع  
فهم التكليف والخطاب .

أما أن بعض الولاة كان على هذا الحال ، فإننا نجد خبر ذلك في حديثه  
عن مقتل على باشا الجزائر ، أو الطرابلسي . فقد تولى هذا الرجل ولاية طرابلس  
ثم خرج منها ، أو أخرج ، بالحرب . فلما ترك طرابلس أخذ معه عشرين جيلين  
من أنشاء الأعيان ، رهينة وقدم إلى مصر فتعرف إلى مراد بك وكسب صداقته .  
وأثرله مراد في أحد قصوره بالحيزة . ثم ذهب على باشا إلى الحج ، في سنة ١٢٠٧  
وهناك التقى ببعض الحجاج من أهل طرابلس ، وهم يكرهونه ، وكان قد أخذ  
الغلامين معه إلى الحج ، فمرقهما الطرابلسيون ، وأسكروا ذلك إنكاراً شديداً ،  
وكرع عليهم . فذهبوا إلى أمير الحج ، وأبلغوه ذلك . وطلبوا إليه أن يخلص الغلامين  
من هذا الفاسق . فأرسل معهم أمير الحج بعض رجاله ، إلى على باشا ، على حين غفلة .  
فوجدوه نائماً ، ومعه أحد الغلامين . فسبوه ولعنوه . وقصوا لحيته ، وكانت ضخمة .  
وضربوه بالسلاح حتى جرح جرحاً بالفاً . وأخذوا منه الغلامين . ثم عاد إلى مصر  
فأقام فيها .

وقد اختارت الدولة هذا الرجل ، وهو مغربي ، من الجزائر ، والياً على مصر ،  
بعد ذلك بمصر سنين . فقتل في بلدة القرين ، بالشرقية ، ودفن بها ، بعد أن تولى  
حكم مصر فترة قصيرة . وكان هذا الرجل ، إذا دخل عليه المراء مد رجله  
في وجوههم وتعمد تحقيرهم .

وكانت للجند ، وللدلاة والأثراك منهم خاصة ، شتمات أخرى ، وغبائح كثيرة ،  
شقى منهم بسببها أهل القاهرة وغيرهم شقوة عظيمة . فن قبايحهم أنهم كانوا  
يقسمون مع أصحاب المتاحر والدكاكين أرباحهم ، يزعمون أنهم يدخلونهم  
في حمايتهم فلا يمتدى عليهم أحد . فيصع الجندي منهم شارة على طائفة من المتاحر  
والدكاكين ثم يقاسم أصحابها أرباحهم ، لأن هذه الشارة حمايتهم ، وكانوا يقسمون  
ذلك حتى على القهاوى ، وسالونات الخلقة . كما كانوا يقفون على مداحل القاهرة ،  
فيشترون الفاكهة ، واللبن والجبن والخطب ، وغيرها ، من الفلاحين القادمين لبيعها .



فيشترونها منهم بأبخس الأثمان ، أو يأخذونها غصباً . ثم يبيعونها للناس في داخل القاهرة بأعلى ثمن . وقد يأخذون منهم أموالاً قبل أن يدخلوهم .

وكثيراً ما كانت تتأخر مرتبات الجند ومحصلاتهم . فكانوا يأخذون بأيديهم ما يشاءون من أموال الناس وأقواتهم . يذكر الجبرتي من حوادث حمادى الأولى سنة ١٢١٦ ، أى بعد خروج الفرنسيين ، ودخول الجند العثماني ، يذكر أن طوائف المسكر عربت بأسواق القاهرة ، وحطفوا أمتعة الناس . وما يبيعه السائمون من الشواء ، والفطير ، والبطيخ ، والبدج . وسبوا ذلك بأن « علائقهم » تأخرت . وكان هذا الأمر كثير الحدوث في أوقات مختلفة .

وكان بعض الجنود يجلس في بعض الحوايت ، ثم يقوم ويعود بعد ذلك يدهي ضياع نقوده أو شيء منه . ولا يترك الحانوت حتى يأخذ من صاحبه شيئاً .

وقد يدخل الحانوت فيختلس ما يستطيع اختلاسه . وبعضهم كان يشتمل باستبدال النقود الزائفة ، بالفضة ، أو بالقهر واقوة . وكانوا يعترضون النساء في الأسواق والشوارع من غير حياء

وقد فشى في وقت من الأوقات ، أمر حماية الجند لأصحاب المتاجر والحوايت ، كما أشرنا منذ قليل ، واستطاعوا ، بفضل هذه الحماية ، أن يتمتعوا عن دفع الضرائب . وتأثرت بذلك أموال الدولة ، حتى عجز الوالي عن صرف مرتبات الحرمين والأوقاف والعلماء والأشراف والأرامل والأيتام . ولم يجد الوالي على باشا بداً من التدخل في سنة ١١٠٢ ، لأبطال هذه الحماية . ولكنها كانت تمود أشنع وأحش مما كانت

وكان بعض الجند يبيع أصناف المأكولات ، والخضار . أو يفرض نفسه رئيساً على حرفة ، فيأخذ من طائفتها ما يشاء من الضرائب ، وعليهم أن يزيدوها في عن البيع

وكان بعضهم يشتري الخراف ويدبجها ويبيع لحومها بالثمن الذي يفرضه ويريد

فيه ما يشاء . ويتنقص في انور ، ولا يستطيع أحد أن يعترض عليه أو يراجعه .  
وفي سنة من حكم محمد علي ، قل وجود الخطب الرومي في القاهرة حتى ندر ، وغلا  
عنه . فكان الجنود القادمون من الصعيد يحملونه معهم إليها فيبيعونه لأهلها  
بأغلى ثمن .

وكانت لهذه الطوائف من الجنود ، ويسمى الجبرتي دائماً « العسكر » ، عوائد  
يتفننون فيها لا بترال أموال الناس ، وخاصة في الريف ، منها « الوجبة » .  
والوجبة هي حروف ، أو قطيرة ، وقد تكون مالا ، يفرضه المثلث على الفلاحين  
ويتقاضاه منهم عند حصوره لجمع المال ، أو استيفاء الضرائب .

ومنها « حق الطريق » وهو مال يفرضونه على الفلاحين ، أجراً لهم على الانتقال  
إلى بلادهم وقراهم لأي أمر من الأمور . ولو كان انتقاهم لجمع المال ، أولاً هذا الضريبة .  
وهم يقدرون حق الطريق هذا كما يحلو لهم ، وقد يأخذونه أكثر من مرة

ومن عوائدهم « كراء الأستان » وكانوا يسمونه « دينش كراسي »<sup>(١)</sup> وكراء  
الأستان معناه أن أتباع الأمير ، أو الحاكم ، إذا كانوا معه في مكان ، وجيء لهم  
بالطعام ، بعد أن يطعم أميرهم ، لا يتقدمون إلى طعامهم حتى يعطيهم صاحب المكان  
مالاً قبل أن يأكلوا .

يقول الجبرتي إن الشيخ عبد الرحمن السلموني مباشر وقف السلطان الفوري ،  
أقام حفلاً لزواج بنته ودعا بعض الأمراء وكبار الجنود ، فلما أكلوا ، ومد السماط  
لأنساعهم . أبوا أن يأكلوا حتى يأخذ كل منهم عوائده من كراء الأستان .

فلم يسمع الشيخ السلموني إلا أن أعطى كل واحد منهم ريالاً ، وكانوا  
خمسة وأربعين

وكانت لهم عادة أخرى اسمها « الجمعية » .

فقد كان من عادة المختصين بخدمة الوالي ، وناثه أن يجزحوا في كل يوم من

(١) دينش بالتركزية أستان . وكراسي . أي كراء ، أو أجر .

أيام الجمع ، وقد لبسوا أحسن ثيابهم ، فينتشرون في أنحاء القاهرة يطوفون على بيوت الأعيان والسراة ، وكبار القوم . ليطلبوا منهم « البقشيش » . ويسمون ذلك « الجمعة » .

وكان من عادة الناس أن يجلسوا في مكان ظاهر من بيوتهم في ذلك اليوم . وعند ذلك يمرون بهم ثم يقفون ، وفي أيديهم العصي المفضضة ، فيعطيهـم صاحب البيت ما يرجون . وقد يمر غيرهم ، وغيرهم ، فيعطيهـم لأنهم كانوا يرون ذلك فرضا واجبا . ويقول الجبرتي إن هذه « الجمعة » ثقلت على الناس حتى كان بعضهم يطل داخل منزله في ذلك اليوم ، أو يتركه . بسببها . فأبطل محمد علي هذه العادة . وكف خاصته ورجاله عنها .

وكانوا يفعلون بأهل الريف الأفاعيل . يذهبون إليهم بأوراق مكتوبة باللغة التركية ، فيوهمهم أنها تتضمن تخفيفاً عنهم في الضرائب ، أو المال . ويطلبون لذلك « حق الطريق » مالا عظيما . يأخذونه . ثم لا يكفيهم ذلك . بل يسلبونهم مواشيهم . وقد يحسسون كبارهم وشيوخهم حتى يدفعوا فوق ذلك ما يطلبون . ثم يظهر آخر الامر أن هذه الأوراق من مخترعاتهم وصنع أيديهم . وكانت القاهرة كثيراً ما تمتلئ بهؤلاء الفلاحين الذين هاجروا من قراهم وبلادهم فرارا من ظلم هؤلاء الجند .

وكانوا يسلبون من ينفردون به من الناس ، في أطراف القاهرة . ويقتلونه . ويستأجرون الخيل من أصحابها ليركبوها إلى خارج المدينة . ثم يقتلون المسكاري ويذهبون بحماره إلى السوق فيبيعوه .

ويقول الجبرتي إن هذه التباثخ والشاعات زادت من « العسكر » العثماني بعد دخولهم القاهرة وحروج الفرنسيين « حتى نمت أكثر الناس ، وخصوصا الفلاحين ، أحكام فرنساوية » .

وكانت فرق العسكر المختلفة يقاتل بعضها بعضاً ، في داخل القاهرة . ويقع منهم القتل والجريح . ويحد الناس وأصحاب التاجر من ذلك بلاء شديدا وشقاء مألفا . وكثيرا ما كانوا يقتلون غريمهم ، ويلقون جثته في طرقات القاهرة زمنا

قد يصل إلى ثلاثة أيام ، مظل فيها نطوؤها أقدام الناس ولا تدفن .

وفي وصف الجبرتي لجبر الخليج من سنة ١٢١٩ دلائل محزنة على ما بلشه ظلم الحد وعسهم واستهناهم بجميع القيم الدينية والأخلاقية والإنسانية . وتلخيص هذا الوصف أن الوالي — أحمد باشا خورشيد — نزل لكسر البحر ، ومعه القاضي ومحمد علي وكبار العسكر . ولم يحضره أحد من المصريين فلما جرى الماء في الخليج ركبوا فيه روارقهم تسير بهم على الماء ، وهم يطلقون الرصاص من بنادقهم . فقتل من رصاصهم عدد من الناس ، رجالا ونساء ، ثم نزل كبار العسكر من روارقهم فدخلوا بيوتهم على الخليج ، ومعهم نساء ، من سيئات السيرة .

وجاء جماعة من المصريين ليأخذوا قتيلا لهم ليدفنوه . فمنعهم كبار الجند ، الذين قتلوه ، من أحده ، حتى يدفعوا لهم ثلاثة آلاف درهم قصة . ولم يستطع أهل القتل أخذ جثته حتى دفعوا لقاتليه ألفاً وحسبائة درهم . وكذلك فعلوا بمن جاء بعدهم لبواري حث قتلوه . وكانت امرأة تطل من نافذة لترى ذلك ، فصوب كبير من العسكر رصاصة إلى رأسها فصرعتها .

وفي شعبان من نفس السنة تهدم حمام على من فيه ، ومات تحت أنقاضه ثلاث عشرة من النساء والأطفال والبنات . وخرجت الباقيات عرايا ينفضن التراب عن جسومهن . نساء كبار العسكر ليجنوا أحجاب القتلى من ثقل قتلاهم ، حتى يدفعوا دراهم ، وليأخذوا ثياب النساء من تحت الأنقاض

وقد بانفت أخلاق السادة من الناس ، حتى القضاة ، حذا جعل شاعرا يقول ، في قاضي القضاة ، هذا الشعر : —

في مصر ، من القضاة ، قاض ، وله في أكل موارث اليتامى ، وله  
إن رمت عدالة قتل ، مجتهداً من عدله درهما ، عدله  
ومن الطبيعي أن يكون لذلك كله أثره في حياة الناس . ورغبتهم وأنهم  
وحاسة إذ لم يف ما، النيل ، أو حل الناس وباء . ونحن عند ذلك نجد هـ  
الصورة التي رسمها الجبرتي عن حياة أهل القاهرة ، في شعبان سنة ١٢٢٥

« في هذا الشهر حرج المشايخ والناس إلى جامع عمرو ، وأرسلوا جماء وبال أطفال من مصر وبولاق ، وخطبوا وصلوا ببرع الله البلاء عن الناس ، ولينزيد ماء النيل . ولم يجد المجتمعون ماياً كلوه ، وأضر بهم الجوع » .

وهذه الصورة عن حبة المصريين كلهم في سنة ١١٩٨ [ ١٧٨٣ ، ١٧٨٤ ] م فهو يقول في ختامها إنها « انقصت ، كالتى قبلها ، في الشدة والفناء ، وقصور النيل ، والفن المستمرة ، وتواتر المظالم والمصادرات ، وانتشار الجباة في كل النواحي لجمع المال حتى هلك الفلاحون وضاق درعهم واشتد كربهم ورحلوا عن بلادهم أما مساتير الناس ، فقد باعوا دورهم ومتاعهم ومواسيهم . ومن ظن عنده شيء من المال أخذ وحس وطول بأشغال ما يقدر عليه . وتوالى طلب السعة من التجار عن الضرائب المقبلة . فزادوها على أثمان بضائعهم ، ثم مدوا أيديهم إلى الموارث ، فإذا مات أحد أخذوا ماله وكل ماعنده سواء ترك وارثاً أم لم يترك . وصار بيت المال من جملة المناصب التى يتولاها شرار الناس في نظير مال يدفعونه في كل شهر فلا يعارضهم معارض فيما يفعلون .

وحل بالناس ما لا يوصف من أنواع البلاء . وفستت النيات ، وتغيرت القلوب . وقرت الطباع . وكثر الحسد والحقد في الناس بعضهم لبعض . فيتبع الشخص عورات أخيه ويدلى بها إلى الظالم . حتى خربت الأقاليم ، وانقطعت الطرق ، وعربت أولاد الحرام ، وفقد الأمن ، وسقط السبل ، إلا بالحراسة والمحافظة . وترك العلاحون بلادهم من الفقر والظلم ، وانتشروا في القاهرة ، بنسائهم وأولادهم ، يصيحون من الجوع ، ويأكلون ما يتساقط في الطرقات من قشور الطيخ وغيره فلا يجد السكتاس شيئاً يكسه . واشتد الحال حتى أكل الناس الميت من الحيل والجلال والحير . فإذا خرج حمار ميت زاحوا عليه وقطعوه وأخذوه ، ومنهم من يأكله نياً من شدة الجوع . ومات كثير من الفقراء من الجوع » .

وكذلك نجد هذه الصورة عن حياتهم في سنة ١٢٠٣ .

وجهوا إلى الناس في الأرياء قساة المحصلين لأخذ الأموال قبل أوامها .

فكان المحصولون يدهمون الفلاحين في بيوتهم ، ومعهم العدد الكثير من المسكر بينادقهم وأسلحتهم . فيشأغلونهم ، ويلاطفونهم بالإكرام ، فلايزيدهم ذلك إلا قوة وغلظة . ويطلب منهم الفلاحون تأخير المال فيسمعونهم فحش القول . والشطط في فرض « حق الطريق » . وقد يدخلون الدار وليس فيها سوى النساء . فيقع منهم الشر الكثير . حتى تفر النساء من الحيطان والنوافذ .

وكانوا يوففون كل سفينة تسير في النيل . فيخرجون ما فيها . وقد ينهبونه كله ، أو يفرضون على أصحابها ما يشاؤون من المال . وكان زعيمهم في ذلك ، مصطفي كاشف ، يجلس في قلعة طرا فيحيثه أصحاب هذه السفن ، وأصحاب البصائع التي تحملها فيدهمون له ما يشاء من مال . حتى لا ينهب رجاله سفنهم وأموالهم . ويقول الجبرتي إن أبناء هذه الامتياحة للبلاد ، ذاعت في الأقطار التي بعد منها الجند والماليك . فكثر في ذلك الوقت قدومهم إلى مصر . وبسط تجار الرقيق لتسهيل رعتهم في الحضور للقاهرة . والالتحاق بخدمة رجال الدولة فيها ، ليشاركوهم في نهب هذا المال المستباح .

ويقول أيضاً أن القرى كانت ، في بعض السنين ، تكاد تغفر من أهلها . وأن بعض القرى كان أهلها يدفعون عن الفدان الواحد ، من المصاريف ، والأموال والمغارم ، أربعة آلاف نصف . مع أن الخراج المفروض عليها لا يريد عن مئة وعشرين . ونجد في فصول أخرى من الكتاب ، وفيما سجلناه من عصر محمد علي خاصة ، مظاهر أخرى ، مما كان يقع بالناس من ظلم وعسف وقسوة .

ومن طريف ما سجله الجبرتي ، في حوادث شعبان ١٢١٦ ، أنه بينما كان حشد الدولة ، وكبارها يفعلون ذلك بأهل مصر ، أرسل السلطان « فرمانا » شريفا إلى عرب البحيرة ، يثبتهم فيه على بلادهم ، ويقرر لهم فيها مزايا ، ثم يشترط عليهم في مقابل ذلك هذه الشروط : « أن يوفوا بعدم التمرد وإيصال الرزية والمضرة ولو بمقدار ذرة ، إلى الرعايا . وديعة خالق البرايا ، فإن وقع منهم أقل ظلم للعباد ، أخرجوا من ديارهم . بعد أن تسلب أموالهم . ويتلاشى حلهم حتى يصيروا لاعين

ولا أثر . ولا خبر ولا خبر . ولا معالم ولا معاهد . ولا مشاريع ولا موارد .  
تأخذه صاعقة المذاب المون . ويحل بهم من البلاء ما لا يطيقون !... »  
وقد سجل الجبرتي هذا الفرمان الشريف بنصه ، رغم طوله . ونقلنا منه هذه  
السطور بنصها أيضاً .

وليس من الأمانة ، ولا مما يتفق مع واقع التاريخ ، أن نقول إن مقارفة هذه  
الذائل ، أو بعضها ، كانت مقصورة على الجند والقواد والأمرء ، أو الولاة .  
فالقول بذلك مما يخافى الحق . ويجب ماسحله الجبرتي عن أخلاق الناس  
وآدابهم في ذلك الزمن .

وكذلك لم يكن هذا المستوى من الأخلاق والفضائل ، قاصراً على أهل القاهرة  
وحدهم . بل نجد أشياء من ذلك في غيرها من المدن .

فقد انتقلت عدوى هذا الظلم والاستهتار من العثمانيين ، والعسكر ، إلى العرب .  
ففي رمضان من سنة ١٢٠٢ ، وكان مراد وإبراهيم يتأزمان إسماعيل بك الحكم ،  
خرج العرب على قافلة التجار والحجاج القادمة من السويس . فتهبوا ما فيها من  
اللال ، وكان شيئاً كثيراً ، منه ستة آلاف حمل محملة بالبضائع . وسلبوا متاع  
الحجاج وملابسهم . وأخذوا نساءهم فمروهن عن ثيابهن ، ثم باعوهن  
لأصحابهم هرايا .

أما ما نبجده عند غير الجند ، والقواد ، والأمرء ، والولاة ، والأعراب ، من  
مثل ذلك ، أو ما هو منه قريب ، فسكتي فيه ، إلى جانب ما ذكرنا ، بدكر حدث  
رواه الجبرتي في حوادث سنة ١١٩١ وسماه « حادثة الشيخ صادومة » .

### الشيخ صادومة

كان الشيخ أحمد صادومة رجلاً شبيخاً . له شبة وهيبة ، وأصله من  
مدينة سمود . وكانت له شهرة عظيمة في الروحانيات ، وتحريك الجمادات ، ومخاطبة  
الجن ، وإظهارهم لمن يريد أن يراهم ، وللناس في شأنه اختلاف . وكان الشيخ حسن  
الكفراوي . العالم الكبير صاحب المؤلفات ، ومفتي الشامية ، وشيخ مسجد  
أبو الذهب ، صديقاً حميماً للشيخ صادومة ، كبير الاعتقاد فيه . دائم الذكر له والثناء  
( م ٩ - المحرقي )

عليه ، عند الأمراء ، وخاصة عند صديقه محمد بك أبو الذهب . حتى قرب هذا الأمير وأحبه . واتفق أن اختل أبو الذهب بمحظية له ، فرأى على سواها كتابة . فسألها عن ذلك ، وأخافها بالقتل ، فأخبرته أن امرأة ذهبت بها إلى الشيخ صادومة ، حيث كتب لها ذلك ، ليحبها سيدها . فأرسل أبو الذهب جنده إلى الشيخ حيث جاءوا به ، فقتله ، وألقاه في النيل .

وأخرج ما في بيته من أشياء ، فسكنت منها تماثيل . وفيها تمثال من قطيفة ، على هيئة عضو الرجل . فكان أبو الذهب يضع هذه التماثيل إلى جابه إذا جلس إلى الناس . يأخذ منها هذا التمثال من القطيفة ، فيرفعه إلى أعين الجالسين ، وهم يتعجبون ، ويضحكون . وهو يقول لهم : انظروا أفاعيل المشايخ ! ثم عزل الشيخ السكراوى عن إفتاء الشافعية وعن مشيخة مسجده ، بسبب صداقته الحميمة للشيخ صادومة وثنائه عليه

### شيخ مدينة بنها

وأما في غير القاهرة ، فندكر قصة هذا الرجل ، الذى ظهر في مدينة بنها سنة ١٢٢٢ .

كان اسمه الشيخ سليمان ، بدأ أمره بأن أقام زمناً في عشة بناها في المزارع . فاعتقد فيه الناس الصلاح والولاية . والحذب . واجتمع إليه كثير من أهل القرى ، وكان أكثرهم من الأحداث . ونصبوا له مرادفاً كبيراً ، كانوا يملأونه بالنذور ، والمهدايا ، يرسلون بها إليه . وصار هو يكتب إلى الناس في البلاد المجاورة ، يطلب منهم القمح والدقيق . فيبادرون بإرسال ما يطلب . ثم انتقل الشيخ بعد ذلك بدعوته إلى ناحية أخرى . وصبنها بصبغة عامة . فأطلق رجاله يقولون للناس إن المهالك ، والحسك . قوم ظالمون . فلا تعظوم شيئاً ، ولا تطيعوا لهم أمراً . ولا تدفعوا لهم ضرائب . ومن جاءكم من رجالتهم فاقتلوه . فإنه لا ظلم اليوم . وسمع الناس دعوة الشيخ وأطاعوها . فكلما جاءهم الجند ، أو رجال الدولة لال ، أولئى . زجروهم ، وطردوهم . وإن عاندوا قتلوهم . حتى تقل أمره على حكام ذلك الإقليم .



ولكن الشيخ ، انحرف واشتط . عندما رأى نجاح دعوته . وقوة أمره .  
 وظهر منه ما كان خافياً . فقد بدأ يتطلع إلى الأحداث من الغلمان . ويستجلبهم ،  
 ويطلب قدومهم إليه . حتى اجتمع لديه مئة وستون . أسكنهم سرادقاته . وكان  
 كثير منهم أبناء مشايخ البلاد وأعيانها . وكان إذا علم أن في بلد غلاماً وسياً ،  
 أرسل يطلبه ، فيحضره إليه في الحال . ولو كان أبوه عظيم البلدة . حتى صاروا  
 يجيئون إليه من عبر طلب . واجتمع إليه ، عداؤه لاء المئة والستون من الغلمان ،  
 كثيرون من ذوى الألقاب . ووضع هذا الشيخ عقوداً من الخمر الملون ، في أعناق  
 الغلمان ، وأقرأها في آذانهم . كما يفعل الناس بالفتيات والبنات .

وعامت في ذلك الوقت مشكلة بين شيخ من شيوخ الأزهر ، اسمه الشيخ عبدالله  
 رفروق النهاوى ، وبين حكام القليوبية بسبب نزاع على أرض يدعيها الشيخ .  
 ووطن الشيخ ، كما يقول الجرجى ، أنه سيال مايريد « يقال المصنف ، إكراما لعلمه . »  
 ولكنه لم ينزل ما يدعيه . وشكا أمره إلى محمد على ، وإلى نائبه ، ولكن العلماء  
 الذين طلب إليهم محمد على أن يبحثوا شكواه ، لم يجدوه على حق . فقدم هذا الشيخ  
 إلى بنها ، واتصل بالشيخ أحمد . وزين إليه أن يهبط القاهرة ، وأن يلتقى بعلمائها  
 وأهلها . فهم لا بد أن ينصروه . وقد بلغتهم دعوته ، وسمعوا بكراماته ، وله في  
 نفوسهم منزلة عظيمة . ورأى الشيخ أن يفعل ما أشار به صاحبه . فجمع رجاله ،  
 وعلمائه ، ومعهم طبول ، وكاسات . وسار حيث دخل القاهرة على حين غفلة .  
 وكان رجاله يحمون في أيديهم « الفرقلات » يفرقون بها وهم يسيرون في شوارع  
 القاهرة ، ولهم صياح وضجيج . ومن خلفهم الغلمان . وشيوخهم في وسطهم .  
 وسار هذا الجمع حتى دخل المسجد الحسينى . ودخل بعض منهم منزل السيد عمر  
 مكرم . وهو يفرق « بالفرقة » . وبقى حلقم على ذلك إلى المصر . وكان رجل  
 من كبار الجند ، اسمه إسماعيل كاشف أبومناخير ، يعرف الشيخ ، ويمتد في ولايته .  
 فذهب به وبمن معه إلى بيته ، حيث أطعمهم واستضافهم . وفي الصباح ركب الشيخ  
 مئة الكاشف وذهب بطائفته إلى ضريح الإمام الشافعى حيث جلسوا يدكرون .

وعند ذلك وصل خبره إلى نائب محمد علي ، فأرسل إلى السيد عمر مكرم رجوه أن يرسل إليه الشيخ ، ليُبْرَكَ به . وعرف السيد عمر أن السكتخدا يضمّر للشيخ السوء . فأرسل إليه من يحذره . وقدم السكتخدا وكبير من رجاله إلى بيت السيد عمر ، فقال لهما إنه أرسل إلى الشيخ من يحضره فلم يلحق به . وأراد كبير من الجند أن يمسك بالشيخ ورجاله وغلمانه ، في مسجد الامام الشافعي ، قبل أن يخرج منه . ولكنه خشي مغبة اقتحامه .

وانتهى الأمر بالشيخ إلى الهرب . وتفرق عنه المتتبعون من رجاله . أما النلمان فيقول الجبرتي إن الجند قبضوا عليهم ، وأخذوهم إلى دورهم . ولم ينج منهم إلا من كان هرب . ولا وصل خبر هذا الذي جرى على الشيخ وجماعته ، إلى الشيخ زقزوق ، تبرأ منه . وذهب إلى نائب محمد علي نائباً .

وكانت نهاية الشيخ أحمد البنهاوي أن جاء به نائب محمد علي ، وأمر طائفة من الجند فأخذوه ، وأربعة بقوامه من أتباعه ، وذهبوا بهم إلى بولاق ، فقتلوا الشيخ ، وألقوه في النيل . وألقوا رفقاءه الأربعة فيه أيضاً . ولكن واحداً منهم . استطاع أن يسبح إلى البر وينجو .

وقد حفظ لنا الجبرتي كثيراً من هذه الصور ، ومثلها ، وسجل بها حياء الناس ، كما هي ، وأخلاقهم ، وآدابهم . وكان ، وهو يدون ذلك ، يسجل ، إلى جانبه سخطه وغضبه ، وكان يبلغ به السخط ، مما يرى ويسمع ، حداً كبيراً . حتى قال مرة إن الإسلام نفسه ، منتفٍ عن كثير من أهل ذلك العصر والإسلام ، عنده ، حين يقول ذلك ، فرين الفضائل والآداب والخلق الكريم ولا سبب غيره لوجودها في نفوس الناس .

### الموارد

(وسوقنا الحديث عن الشيخ أحمد البنهاوي ، وقد كان يدعى التصوف والولاية ، إلى ذكر ما سجله الجبرتي ، مما كان يفعله أمثال هذا الشيخ ، في الموارد .

كان القاهريون، وغيرهم، يحتفلون، كما يحتفلون الآن، بمولد الحسين، والسيدة زينب، والإمام الشافعي، والسيدة نقيسه. وكثير غيرهم من الأولياء والصالحين. كما يحتفلون جميعاً بمولد السيد البدوي في طنطا، والسيد إبراهيم الدسوقي في دسوق. ولتتخذ مولد الحسين مثلاً لما كان يجري في غيره من الموالد.

فالحرق يتحدث في الجزء الرابع من كتابه عن نشأة الاحفال بهذا المولد. ويقول إن هذا المولد ابتدعه مباشر لوقف المسجد الحسيني كان يسمى السيد بدوي ابن فتيج. أصابه مرض. فنذر: إن شفاه الله، أن يقيم هذا المولد. وكان المولد، أول الأمر، هواية المسجد، وقبته، بالقناديل، والشموع. وترتيب فقهاء بقروون القرآن نهاراً، وبتدارسونه. وآخرون يقرأون، ليلاً، دلائل الحيرات. ثم تغير الحال، وانضم إلى الفقهاء كثير من الجهلة، وأهل البدعة. فقام من يقيم حلقات الذكر، ويردد اسم الله، بحرقاً. وينشد له المشدون القصائد والموالات. ومنهم من يقول أبياتاً من بركة البوصيري، في مدح النبي عليه السلام، ويحاربهم آخرون مقابلون لهم بصيغة الصلاة على النبي. ومنهم جماعة، من المناربة، يجلسون صفين متقابلين، وينطقون، بأنفسهم، كلاماً معوجاً سمى خاص، وطريقة جروا عليها. وبين أيديهم طبول ودفوف يضربون عليها، على قدر النغم، ضرباً شديداً. مع ارتفاع أصواتهم.

وتقف جماعة أخرى مقابلة لصفوف الدفوف واضعين أكتافهم في أكتاف مض، لا يخرج واحد عن الآخر، يتلوون ويستصبون. ويرتفمون ويخفضون. ويضربون الأرض بأرجلهم. كل ذلك مع الحركة العنيفة، والشدة الزائدة، بحيث لا يستطيع ذلك إلا كل من عرف بالأيد والقوة. وهذه الإقامات، والحركات، تجري على نمط الضرب بالدفوف. فيقع بالمسجد من هذا كله، ضجيج كبير، ودوي عظيم. وإلى جانب هؤلاء كثير من الفقهاء، والمشددين، كل له طريقته، ونشيدته. ثم يقول: - « هذا مع من ينضم إلى ذلك من جمع العوام، وتحلقهم بالمسجد، للحديث والهديان. وكثرة اللفظ والحكايات، والأصاحيك. والتلفت إلى حسان الغلمان، الذين يحضرون للتفرج. والسمي خلفهم، والافتتان بهم.

ورمى قشور اللب ، والكسرات ، والمأكولات في المسجد . وطواف الباعة بالمأكولات على الناس فيه ، وسقاة الماء . فيصير المسجد ، بما اجتمع فيه من هذه القادورات ، والنفوش ، ملتجئاً بالأسواق الممتنة . ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم .

وكان يجتمع إلى هذه الموالد ، العامة ، والسوق ، وأهل الحرف الساقلة . ومن لا يجد ما يأكله . يحملون القناديل ، والشموع ، والطبول ، والزمر . وينطقون بكلام محرف يظنون أنه ذكر ، وتوسلات بثابون عليها . وإذا اعترضهم معترض . أوتصدى لهم لائم ، رموه بالاعتزال والخروج والزندقة . ثم يحضون ليلتهم ساهرين فإذا أصبح الصبح ، عجز كل عن أداء عمله .

ويقول الجبرتي إن هذا المولد ، استمر الاحتفال به عشر سنين . وبادره . السيد بدوي فتج ، لم يزد إلا مرصاً ومقتاً . ثم طلت إقامته عندما دخل الفرنسيون القاهرة . ولكنهم ، بعد ذلك ، أمروا بإقامته . « لأن ذلك يوافق هوى العامة . لأن أكثرهم مطبوع على الجون والحلاعة . وتلك هي طبيعة الفرنسيات » . ومن الذين ترجم لهم الجبرتي من أصحاب الأضرحة والموالد ، الشيخ على البكري . ويعرفه سكان القاهرة ، كما يعرفون مولده ومسجده بالقرب من جامع الرومي . وكان السيد على البكري ، كما يصفه الجبرتي ، رجلاً أمله ، عثى عربانياً في الطريق ، مكشوف الرأس والسوءتين ، غالياً ، وكان له أخ صاحب دهاء وحيلة . وكان دائم المنازعة والخصومة لأخيه الشيخ . ثم بدا له فيه أمر . فقد وجد الناس ، على عادة أهل مصر ، يمتقدون في أحبه الولاية والكرامة ، ويتمسكون منه البركة . فحجر عليه ، ومنعه من مفادرة البيت ، وألبسه ثياباً . وأظهر للناس أنه قد أدن للشيخ لبس الثياب لأنه تولى قطبا . وتكاثر الناس ، وخاصة النساء ، يسعون إلى بيت الشيخ والتبرك به ، والإسقاء إلى أنفاظه وتخليطاته ، وتأويلها بما يلائم رغبة نفوسهم . وتكاثرت مع هؤلاء المريدين والزائرين ، الهدايا والتدور والأموال . وكان أخوه ، صاحب الدماء والحيلة ، يذبح في الناس من كرامات الشيخ ومعرفته أسرار النفوس ما يشاء .

وامتلاأت الشيخ وأخيه بالأموال والخيرات. وراد جسم الشيخ ، كما يقول الجبرتي ، ضخامة ، من كثرة الأكل والفراغ والراحة ، حتى صار «مثل البوم العظيم» ! وظل هذا حال الأخوين حتى مات الشيخ سنة ١٢٠٧ فأقام له أخوه ضرباً ومقاماً ، وزاد في ذكر كراماته وفيوضاته ، وخصص له المقرنين والنشدين والمداحين ، يشيدون بولايته وقطبانيته ، ويذكرون أوصافه في قصائدهم ، وهم « يتواجدون ويتصارحون ، ويمرغون وجوههم على شياكه وأعتابه ؛ وينرفون بأيديهم من الهواء المحيط به ، ويضعونه في جيوبهم وعيهم » وهذا الشيخ البكري هو الذي قال فيه البدرى الحجازي قصيدته التي ذكرناها من قبل ، والتي يقول فيها : -

ليتنا لم نعش إلى أن رأينا كل ذي جنة ، لدى الناس ، قطبا  
ولم يكن الشيخ من أسرة البكري . بل حادته هذه النسبة لأنه كان يسكن في سوقة البكري .

### الشيخة أمونة

وعند ما كان الشيخ على البكري يعيش في الطرافات عرياناً ، قبل أن يحجبه أخوه ، تعلقت به امرأة تسمى الشيخة أمونة . وصارت تسير خلفه أينما سار ، وهي تلبس إزاراً . وأخذت هي الأخرى تحلط في ألفاظها عندما تدخل معه إلى بيوت الناس . واعتقد الناس أيضاً في ولاية الشيخة أمونة ، وأمرعوا إلى مهاداتها بالمال والملابس ، وقالوا إن الشيخ لحطها وجذبها فصارت من الأولياء ، وزاد ذلك من نظرها ، فزعت ثياب النساء ولبست ملابس الرجال . وصارت ظلالاً للشيخ . لا تفارقه أبداً وكلما سارا تبعهما الأطفال والعموم ، ومنهم من اقتدى بهما فنزع ثيابه «وتحجج» في مشيته وكل من فعل ذلك قال الناس إن بركة الشيخ مسته فجدبته . وزاد الحال ، وفشى أمر الشيخ والشيخة حتى كان يسير خلفهما جمع كبير من أوباش الناس والصغار . وصاروا ، عندما يمرّون بالأسواق ، يخطفون ما يملأون لهم من شيء . ولهم في سيرهم ضجة عظيمة . فإذا جلس الشيخ في مكان ، اجتمع حوله خلق عظيم ، ووقفت أمونة على درج دكان ، أو مرتفع من الأرض ، تتكلم بفاحش القول ، بالعربي ، والتركي . والناس يصغون ، يقبلون يدها ويتبركون بها .

ومر هذا الموكب أمام بيت رجل من المالِك ، يسمى جعفر كاشف . فناظره وهاله ، فقبض على الشيخ والشيخة ومن حولهما من المجاذِب . أما الشيخ فقد أدخله بيته فأطعمه ، ونحى الناس عنه ثم أطلق سراحه . وأما المجاذِب فقد حبسهم وضربهم ضرباً شديداً ، حتى تابوا ، واستغاثوا ؛ ولبسوا ثيابهم ، وعادت لهم عقولهم . وأخرج الشيخة من حبسها إلى المارستان ، فبقيت فيه زمناً طويلاً . ويقول الجبرتي إنها خرجت بعد ذلك « سنين » فصارت شيخاً على أفرادها ويمتدحها الناس والنساء . وجمعت عليها الجمعيات والموائد .

وهذا الذي كتبه الجبرتي عن إقامة الموائد ، وما كان يقع فيها من المنكرات . هو من المواقف القليلة التي خرج فيها عن مجرد السرد والتدوين ، وتسجيل الحوادث ، إلى إبداء الرأي والتعليق بالقد أو الأستحسان . وهو ، في بقده هذا ، يدل على أنه عالم لا يحصى لهوى العامة ؛ ولا يسكت على بدعة .

ثم يسوقنا الحديث عن مدعى التصوف والولاية ، مرة أخرى ؛ إلى ذكر هذه القصة الطريفة عن عز الدين عبد اللطيف . وفيها نجد صورة من مستوى أفهام الناس في ذلك العصر ، وأخلاق بعض المنتسبين إلى الدين . كما نجد صورة من صور الحاكم الجبري ، الحازم . وهذه هي القصة :

### الشيخ والعز

يذكر الجبرتي من حوادث سنة ١١٧٣ أن خدم مسجد السيدة نفيسة بالقاهرة ، اختلَعوا فيما بينهم في أمر العز .

ذلك أن هؤلاء الخدم ، وكبيرهم الشيخ عبد اللطيف ، أظهروا للناس عزاً صغيرة ، وألفوا حولها قصة ، خلاصتها أن جماعة من المسلمين الذين يحاربون في بلاد الكفار ، وقموا أسرى في أيديهم ، فنذروا لله إن أخرجهم من الأسر ، أن يذبحوا عزاً يوزعون لها صدقة . بعد أن يجتمعوا حولها ليلة يذكرون الله ويدعون ويتوسلون . وجاؤوا بهذه العز الصغيرة ليبيتوا ليلتهم حولها يذكرون ، وتوسلوا بالسيدة نفيسة لينجوا من أسرهم ، فسمي « الكافر » الذي أسرهم بما عزموا عليه ، فزجرهم

وسبهم ، ومنعهم من ذبح العنز ، فلما بات ليلته تلك ، رأى في نومه رؤيا مزججة هائلة . فلما أصبح الصباح أعتق أسراه وأعطاهم دراهم ، وصرفهم مكرمين ، فركبوا مركباً وقدموا مصر ، ومعهم العنز ، وقصدوا مسجد السيدة نفيسة ونسج الشيخ عبد اللطيف ، ومن معه من حدم المسجد ، هالة عظيمة من المجد حول تلك العنز ، وسوا إليها السكرامات ، فقالوا إنها تصعد وحدها إلى منارة المسجد ، وتدخل مقام السيدة ، تفعل ذلك وهم يدخلونها حجرة مقفلة ليلاً ، فإذا أسحوا وجدوها حيث نشاء ، فوق المنارة ، أو داخل المقام ، وقلوا إنها ، العنز ، تكلم ، وأنهم سمعوا بأذانهم ، وأن السيدة نفيسة تكلمت وأوصت بها ، بالعنز ، خيراً . وأن الشيخ عبد اللطيف سمع كلامها من داخل القبر .

وأخذ الشيخ عبد اللطيف هذا ، شيخ المسجد النفيسى ، يبرز العنز للناس ، ويجلسها بحاجبه ، ويقول للناس فيها ما يقول ، حتى صارت حديث القاهرة كلها ، وأقبل النساء والرجال من كل فج لزيارة تلك العنز . يأتون إليها بالنذور والهدايا . فقال لهم الشيخ إن هذه العنز المباركة ، لا تأكل إلا قلب اللوز والفستق ، وتشرب ماء الورد ، والسكر السكر ، فأتوه من ذلك بالقناطر ، وعمل النساء للعنز قلائد الذهب ، والأطواق والخلى يسارعن بها إلى الشيخ . واقتن الناس بها فتوناً شديداً ، وشاع أمرها في بيوت الأمراء وأكابر النساء ، فأرسلن ، على قدر مقامهن ، النذور والهدايا ، وذهبن لزيارتها ومشاهدتها ، وازدجن عليها . ومن لا يسمح لها مقامها بالهدايا لها ، أرسلت للشيخ الهدايا العظيمة متممة زيارة العنز لها .

فما وصل ذلك كله إلى سمع عبد الرحمن كتنخدا . كبير الأمراء المصريين في ذلك العهد ، أرسل إلى الشيخ عبد اللطيف يلتمس منه أن يحضر ومعه عنزه المبارك ، ليتبرك بها هو وأهل بيته ، فركب الشيخ بقلته ، وعنزه في حجرة ، ومعه طبول وزمور وبيارق ومشايخ ، وحوله كثير من الناس ، ودخل بطبولة ومشايخه وعنزه بيت الأمير عبد الرحمن ، وصعد بالعنز إلى مجلسه ، وكان عنده كثير من الأمراء والوجوه . فجلس العنز متبركاً بها ، ثم أمر فأدخلت إلى الحريم ليتبركن بها . وكان الأمير عبد الرحمن قد أوصى كبير طباحيه ، قبل حضور الشيخ ، بأن يذبح العنز

ويطبخها . فلما أتمت العز زيارة الحرم أدخلوها إلى المطبخ فذبحت وطبخت . وقسم للأمير ، وللشيخ وجلوسها ، الغداء ، ومنه العز ، وكان الشيخ يأكل منها ، وكلما تركها إلى غيرها من الطعام قال له الأمير عبد الرحمن : - كل يا شيخ عبد اللطيف من هذه العز السمينة ، فياً كل منها ويقول : - والله إنها طعام طيب ، ومستو ، ونفيس ، والأمير وجلساؤه يتفامزون . فلما فرغوا من الأكل ، وشربوا القهوة ، طلب الشيخ العز ، فعرّفه الأمير أنها هي التي كانت بين يديه في الصحن ، وأكلها ، فبغت ! « فَبَكَتْهُ الأمير ووبّخه . وأمره بالانصراف ، وأن يوضع جلد العز على عمامته ، ويُذهب به كما جاء بجمعيته ، وبين يديه الطبول والأشيار ، ووكّل به من أوصله محله على تلك الصورة »

وفي قصة العز هذه يقول الشيخ عبد الله الأذكاوي هذا الشعر : -

بنّت رسول الله ، طيّبة الثنا	نفيسة ، لله ، تظفر بما شئت من عز
ورم ، من جدائها ، كل خير ، فإنها	لطلّابها ، يا صاح ، أفع من كنز
ومن أعجب الأشياء ، تيس أراد أن	يُضِل الورى ، في جهنم ، منه ، بالعز
فما لجها من نور الله قلبه	نذخ ، وأضحى التيس ، من أجلها مخزى

وهكذا اتى هذا الشيخ جزاءه . جزاء من يقش الجاهالة ، ويدعو إلى الصلاة ، ويتاجر بالدين ، ويكذب على الله والناس ، يتقى عرض الحياة الدنيا وهو الذي يسمى الناس إليه ليهديهم . وليجدوا عنده المثل والقودة ، في الصدق ، والعفة والأمانة ، والفضيلة ، وتقوى الله .

ويقول الجبرتي ، عند حديثه عن تعبير مراد بك مسجد الفسطاط ، جامع عمرو بن العاص ، إن هذا الجامع كان بعيداً عن الناس والعمران ، وبقي رمزاً متخرباً . وأنه أدرك الناس وهم يصلون فيه الجمعة اليتيمة ثم يقول ، في وصف صلاة الناس لهذه الجمعة فيه ، إن الناس كانوا يجتمعون في الجامع ، لتسليمة ، من القاهرة ، وبولاق ، ويحضر بعض الأمراء والأعيان . ويجتمع في صحته أرباب الملاهي ، من الحواة ، وملاعب القرد ، وأهل الملاعب ، والنساء الرافصات ، المروقات بالغوازي .



## قامت القيامة

ومما سجله الجبرتي ، عن مستوى التفكير عند أهل هذا العصر ، أنه في يوم الأربعاء ، الرابع والعشرين من ذى الحجة سنة ١١٤٠ ، أشيع في الناس أن القيامة ستقوم يوم الجمعة السادس والعشرين منه [ ٢ أغسطس سنة ١٧٢٨ م ] ، وشنا هذا الكلام بين أهل مصر ، في القاهرة ، والقرى . فودع الناس بعضهم بعضاً وهم يقولون : - بقي من عمرنا يومان . وحرص الكثير من الناس إلى التترهات وهم يقولون : فلنمتنع نفوسنا بالدنيا ، قبل أن تقوم القيامة . وخرج أهل الجيزة نساءً وأرجالاً يقتلون في النيل . وبعض الناس علاه الحزن ، واستولى عليه الحوف والوهم . ومنهم من أخذ يتوب ، ويعمل ، ويدعو ، ويتوسل . ومن بدا عليه الشك في صدق هذا الذي شاع في الناس ، لا يلتفتون إليه . ويقولون : القيامة فأتية يوم الجمعة ، ما في ذلك شك . فقد قال ذلك فلان وفلان ، من اليهود والنصارى المارفين . وقالوا إن بعض هؤلاء المارفين ، عرض على بعض الأمراء أن يسجنه حتى يجيء يوم الجمعة هذا . فإذا لم تتم القيامة ، فله أن يقتله . وكثر في الناس المهرج والمرج ، حتى جاء اليوم الموعود ، وأصبح الناس يوم السبت . فانتقلوا يقولون : إن فلاناً العالم ، أخبر بأن سيدي أحمد البدوي ، والدسوقي والشافعي ، تشفعوا في ذلك فلم تقم القيامة . اللهم اغفنا بهم ، فإننا لم نشبع من الدنيا

## مجمع أهل السيادة

هذه صورة أعتقد أنها كافية ، لتمثيل أخلاق الناس وآدابهم ، ومستوى تفكيرهم وإيمانهم . وتأثرهم بالخرافات والبدع . وهذا حكم على المجموع طبعاً . لا على الجميع . وقد رأينا في هذه الصورة نماذج من أخلاق الجند ، والأمراء ، والولاة . وطبقة الناس وأوساطهم . أما أهل السيادة ، في مجتمع القاهرة . فكانت آدابهم وأخلاقهم ، بعيدة إلى حد كبير عن هذه الرذائل ، والخرافات . وما يشبهها . وكان لأهل هذه السيادة ، من ثروتهم ، وبيشهم ، ومعارفهم ، وسعة آفاقهم الذهنية والاجتماعية ، ما يجعلهم أقرب إلى التسون . وما يجعل حياتهم مزيجاً من هذا التسون ، الذي تفرضه عليهم فضائلهم وآدابهم ومعارفهم ، أو تدينهم ، ومن هذه الساحة التي تمتلئها ثروتهم ، وسيادتهم ، وأذواقهم ، وسعة فراغهم .

ونحن نذكر مثلاً لهذه الساحة ، في مجتمع أهل السيادة في القاهرة ،  
أورده الجبرتي .

فهو يقول عن صديقه الحميم ، الشيخ اسماعيل الخشاب ، إنه تعلق بشاب  
فرسى من شباب الحملة ، كان جميل الصورة ، لطيف الطبع ، وكانت بينهما مودة  
وتصافير ، حتى لا يجد أحدهما صبراً على فراق صاحبه .

وقد أورد الجبرتي ، كما أورد على باشا مبارك في خطه أيضاً ، قصيدة من  
الشعر ، قالها الشيخ اسماعيل الخشاب في هذا الشاب الفرنسي ، وصفها الجبرتي أنها  
« من الشعر الرائق ، ونظم الغزل الفائق » <sup>(١)</sup> وهي : —

علمته ، لؤلؤى الشعر ، باسمه	فيه خلعت عذارى ، بل حلانسكى
ملكته الروح ، طوعاً ، ثم قلت له :	متى ازدبارك لى ؟ أهديك من ملك
فقال لى ، وحمياً الراح قد عقلت	لسانه ، وهويثنى الجبد ، من ضحك
إداغز الفجر حيش الليل ، وأنهرمت	منه عساكر ذاك الأسود الحلك
خافنى ، وجبين الصبح مشرقة	عليه ، من شغف ، آثار معترك
فى حلة من أديم الليل رصعها	بمثل أنجمه ، فى قبة الفلك
نخلت بدرا به حفت نجوم دجاً	فى أسود ، من ظلام الليل ، عشتك
وافى ، وولى بعقل غير مختبل ،	من الشراب ، وستر غير منتهك

وقد كان الشيخ اسماعيل الخشاب سكرتيراً للديوان الذى أنشأه الفرنسيون  
في القاهرة ، يكتب له الأوامر والقرارات . ويسجل ما يدور فيه من قول  
ورأى . واحتاره الخيال منو رئيساً لتحرير جريدة أراد أن يصدرها في القاهرة  
باسم « التنبيه »

ولست أدري ، أهو من الساحة ، أم من شيء آخر ، هذا الذى روى عن  
السيد خليل البكرى .

(١) الخشاب ديوان طبعه مطبعة الحوائث في القمططية سنة ١٣٠٠ هـ

كان هذا الشيخ قسيساً على السادة البكرية ، وكثير هذا البيت العريق . وكانت له مع الفرنسيين سلات ومواقف ، تحمدها فيما كتبناه عنهم . ولما تزح الفرنسيون وزالت عنه حمايتهم ، أقيمت عليه دعوى من تاجر للرقيق ، ملخصها أنه أخذ غلاماً مملوكاً من هذا التاجر ، بثمن بخس ، واستعان عليه في ذلك بالفرنسيين ورفع الأمر في هذه القضية إلى القاضي . وانتهى النزاع بأن تزح الغلام من السيد البكرى ، وأعيد للتاجر . وكأن هذا الغلام كان ذا منزلة عظيمة في نفس الشيخ . فإن الجبرقى يقول : إنه عند ما زرع منه « تيجرج فراقه » .

ويقول بقولا الترك ، عن السيد خليل البكرى ، إن نابليون خلع عليه نقابة الأشراف ، بدلا من الزعيم السيد عمر مكرم ، لأن السيد خليل « كان محباً للجمهور الفرنساوية فلاجل ذلك بغضته الإسلام المصرية » .

ويقول عنه بقولا أيضاً « كان في أكثر الأوقات ، شرب ، في منزله ، مع الفرنسيات ، المنكرات »

وقولا ، كما نعرف ، كان شديد اللصوق بالفرنسيين . ودائم الاتصال بهم ، يستطيع أن يعرف وأن يرى من شؤونهم ، وشؤون من يتصل بهم ، الشيء الكثير . وسنجد في موضع آت من هذا الفصل حديثاً آخر عن الشيخ البكرى وعن بيت له .

وقد رأينا في تراجم العلماء ، وشيوخ الأزهر ، وكانوا سادة في مجتمع أهل القاهرة ، أمثلة أخرى لهذه السباحة ، التي يراها التصون ، والعفة .

ومما حفظه لنا الجبرقى عن حياة الناس ، في ذلك العصر ، ويتصل بأخلاقهم وآدابهم . أنه كانت في القاهرة ، وفي غيرها من المدن أيضاً ، مواقف . تقف فيها النساء المحترفات للبناء . وكانوا يسموهم « الخواطي » . ودكر مدينة جرجا . عرضاً ، ضمن البلاد التي كانت فيها هذه المواقف . ويفهم مما ذكره أن الحكام كانوا يفرضون عليهن ضريبة . وكذلك كانت ، في القاهرة وغيرها ، أماكن لشرب الخمر والبوطة . كانت تفرض عليها الضرائب أيضاً .

وكان بعض الولاة يمنع ذلك كله . كعبد الله باشا الكبورلى ، فى القاهرة .  
وسليمان بك القاسمى ، فى جرجا .

وكان نظام الطبقات ، هو النظام السائد فى ذلك الوقت . وكانت سيادته صارمة حيث يعلو الحكام من الأتراك خاصة ، على المصريين علواً كبيراً . وكان الناس يقبلون ذلك راضين ، أو ساخطين ، أو غير مدركين .

عند ما سئل سليمان الحلبي ، قاتل الجنرال كليبر ، هل يعرف الوزير الأعظم ..؟  
أى الوالى التركى ، قال إن مثله لا يعرف الوزير « لأنه ابن عرب » .

وهناك ما هو أكثر من ذلك ، وأشد إثارة للعجب . لما فيه من الدلالة على فوارق المجتمع وحدوده . حتى بين العلماء ورجال الدين أنفسهم . فعند ما سئل سليمان هذا هل زار الشيخ الشرقاوى ، وهل يعرفه ..؟ قال إنه لم يره ولم يعرفه « لأنه ليس من ملتة — يقصد مذهبه — فالشيخ الشرقاوى شافعى . وسليمان حنفى » .

### فضائل الناس

وكانت فضائل الناس ، من الأمانة ، والمروءة ، والكرم ، والتعاطف . تبرر واضحة قوية ، عند ما تكون حياتهم هادئة مستقيمة سهلة . لا يكدرها عليهم وباء ، أو حرب أهلية ، أو فسطح ، أو غلاء . ولم يكن الناس ، فى ذلك الوقت يعرفون اشتراكية الدولة . ولا الضمان الاجتماعى ، ولا تنسيق الثروة وتوزيعها . بل كان فيهم ، حتى فى هذه الأيام الهادئة ، المستقيمة ، السهلة . الفقر المدقع ، والكسح الكادح فى سبيل كسرة الخبز . ولكنهم ، مع ذلك ، كانوا أهل أمانة ، ومروءة ، وكرم ، وتعاطف . وكان الأغنياء يعرفون حق الفقير عليهم ، ويؤدونه . دون أن يلزمهم به قانون .

كانت بلاق مقرأ لجرك القاهرة . وكانت تكسدها فيها اللال الوافرة ، على الساحل ، دون أن توضع فى مخازن . ودون أن يحرمها أحد . وقد وصعها مسيو جومار ، أحد مهندسى الحملة الفرنسية . ولم يفتنه مغزى ذلك . بل قال « إن الثقة

بين الناس في مصر ، كانت على أتم ما يكون . بحيث لم يكن ثمة خوف من أن تمتد يد إلى تلك الفلال (١) .

وكان في كل بيت من بيوت الأعيان مطبخان ، أحدهما للرجال ، في أسفل البيت ، والثاني في مكان الحرم . فيمد صاحب البيت السباط ، في وقت الغداء ، والعشاء ، مستطيلا في مكان بارز من البيت ، يراه الناس جميعا . ثم يجلس إلى هذا السباط ، وحوله الضيف من كل قاصد . ودون سيد البيت ، مماليسكه ، وأنباعه . ويقف الخدم في وسط السباط ، يفرقون الطعام على الآكلين ، ويقربون إليهم ما بعد عنهم من القلي ، والمحمر . ولا يمنع أحد من الدخول ، وقت الطعام ، أبدا . ويرون ذلك من أكبر العيوب . حتى كان بعض ذوى الحاجات ، إذا حجب من الدخول على أمير ، أو كبير ، اقتظر وقت الطعام . فلا يمنعه أحد ، فيدخل ، ويأكل ويصل إلى غرضه من ملاقة الأمير ، ومخاطبته فيما يشاء . وكان من عادة الأمراء وأهل السيادة ، إذا رأوا على مائدتهم رجلا لم يروه من قبل ، ولم يصرف بعد الطعام . عرفوا أن له حاجة . فلا يخرجونه بأن يبدأ بها ، أو يتحدث إليهم فيها . بل يطلبه سيد البيت فيسأله عن حاجته فيقضيها له . وإن كان محتاجا ، به ، وأعطاه . وهذا من أسمى ما تعمل إليه رقة العاطفة ، والتلطف في قضاء حاجة المحتاج . مع ستر مروئته وحياءه .

وكانت للناس مواسم للخير . يبرون فيها الفقراء ، ويدكرونهم بالصدقات . منها أيام أول رجب ، وليلة الإمراء والمعراج ، ونصف شعبان ، وليالي رمضان ، والأعياد ، وعاشوراء ، ومولد النبي . وفي هذه الأيام يطبخون الرز بالبن ، والزردة ، ويمتثلون منها قصاصا كثيرة ، يفرقونها على من يعرفونه من المحتاجين . ويجتمع في كل بيت ، من بيوت الأعيان ، الفقراء ، والمحتاجون ، فيفرق عليهم الخير . ويأكلون حتى يشبعوا من ذلك الرز بالبن ، والزردة . ويعطونهم ، بعد ذلك ، مالا . ولهم ، غير ذلك ، صلات وصدقات ، على من يعرفون من الفقراء . في غير هذه المواسم والأيام .

وكذلك كان حال المرأة من أهل الريف . وسنذكر ذلك في موضعه .

(١) ص ٥٩ جزء ١ من كتاب تاريخ الحركة القومية لجد الرحمن الرافعي

## المحتسب والتعير الجبرى

وكان الناس ، فى القاهرة خاصة ، يعرفون نظام التسمير الجبرى ، والمعقوبة على من يبيع بأزيد من الثمن الذى فرضته الدولة . أو يطّقف الكيل والميزان .

(كانت من الوظائف الهامة ، فى ذلك الوقت ، وظيفة المحتسب ، أى أمين الاحتساب . وهى وظيفة قديمة فى الدول الإسلامية المختلفة ، أنشأها عمر بن الخطاب ، وكانت من الوظائف القضائية . لا يتولاها إلا كل من له قدم راسخة فى المعارف ، والعلوم ، والقوانين الشرعية . وكان لصاحبها سلطات واسعة . كان من سلطة المحتسب أن يختار الأطباء والجراحين ، والبياطرة ، ومعلمى الأطفال ، فى الكتاتيب ، ومعلمى السباحة فى الماء ، قبل أن يزاول كل منهم عمله ، وله كذلك أن يستمع لمن يريد تدريس العلوم ، ويناقشه قبل أن يأذن له بالتدريس . وكانت له مراقبة المراكب المسافرة ، والدواب المعدة للحمل ، وروايا الماء ، التى تحمل ليستقى الناس منها .

وكان من شأنه فرض التسمير الذى يراه محققاً ليسر الفقير ، ومجزيا لربح التاجر والبائع . وإلزام الناس بالعمل به . وعقوبة الخارجين عليه . وكانت لبعض المحتسبين فى ذلك صرامة قاسية . وعقوبات شاذة ، عجبية . ومنهم من كان على غير ذلك .

فمن أهل الصرامة القاسية ، والمعقوبات الشاذة العجيبة . المحتسب محمد أغا أباطة . كان إذا أنقص الجزار فى وزنه شيئاً من اللحم ، قطع من جسده قطعة وفى بها هذا النقص ، فى الوزن . ومصطفى كاشف كرد ، وعثمان أغا الوردانى . كانا كذلك أشد المحتسبين قسوة . كان بعضهم يأمر بأن يربط مخالف التسميرة بالجبال عارى الرأس . ثم يصلب على مفترق الطرق . ويأخذ رجال المحتسب الأشداء فى ضربه بالنبوت ، أو جلده بالسوط ، حتى يأمرهم بتركه . وكان بعضهم يأمر بقطع شحمة الأذن بالسكين ، عقوبة على المخالفة . ويأمر بحزم الأنف ، وتعليق اللحم أو الجبز الذى باعه صاحبه بأكثر من سعره ، فى فتحة الأنف ، ويسير

به الجند ، على هذه الصورة ، في شوارع القاهرة . وكانوا يسمون هذه العقوبة « التجريس »

وباع رجل مرة « كنفافة » بأزيد من سعرها . فأجلسه المحتسب فوق صنبة الكنفافة ، وهي على النار .

وجرّ سوارجلًا بأن أركبوه حماراً ، ووجهه إلى خلف ، وهو قانض بيده على دب الحمار ، ووضعوا على رأسه عمامة هي مزارين حيوان مذبوح . وعلى كتفه أمعاء هذا الحيوان . وحلقوا نصف ذقنه ، ونصف شاربه . وساروا به في مسالك القاهرة ، على هذا الحال . وكان الأمر بهذه العقوبة هو ، لآل محمد ، كتحضداً محمد علي ، سنة ١٢٢٩ هـ .

وكانوا في بعض الأوقات ، يساقبون على شرب الدخان وكثيراً ما كانوا يشربونه في « الجوزة » . فأمر المحتسب — في ولاية محمد باشا اليدكشي سنة ١١٥٦ — من يشرب الدخان . بأن يأكل حجر « الجوزة » بما فيه من الدخان ، والمار .

وعاقب محتسب محمد علي ، مصطفى أغا كرد ، من يطبل السهر ، بقطع أذنه ، أو أنفه

وكانوا يفرضون سمرّاً لكل ما يحتاجه الناس ، من الخبز ، واللحم ، والقمح ، والماء ، والجن ، والثريد ، والسمن ، والمعطور ، والخضار . وكان يوزن بالرطل ، — حتى الفجل ، والليمون — والقمح ، والبقول ، والعدس ، والصابون ، والبن والسكر ، والشمع

وقد وصف الجبرتي موكب المحتسب ، الأمير علي أغا مستحفظان ، وصفاً يبعث الرعب في النفوس . فقد كان يضع على رأسه العمامة الديوانية ، المعروفة بالبيرشاة . وأمامه أصناف الجند ، من القابجية ، والملازمين ، وأمرأه الأبواب ، مع طوائفهم . وخلفه الجوايشية ونائب القاضي ، وقوأس يحمل كيساً مملوءاً بالعكاكيز ، أو النبايت ، ثم يقف على رأس كل شارع ، وحارة ، فينادي مناديه

بالأسماء ويقول الجبرتي إنه أمر في يوم واحد ، هو ثالث أيام عيد الفطر ، بأن يضرب ، بالمكايكز ، ستة من مخالفي التسمية . فأتوا جميعاً من الضرب .

وكان على أغا هذا يسير بموكبه يوما ، فالتقى به كبير من المالك ، هو إسماعيل بك البقتر دار . فلما أحس إسماعيل بك بقدومه ، من بعيد ، أخلى له الطريق . حتى مر . فلما عوتب في ذلك ، قال إني فعلت ذلك لأننا كتبناه على أنفسنا ، وحتى نكون مثلاً لغيرنا من الناس ، في احترام المحتسب ، وطاعته .

وقد مات على أغا مستحفظان ، في سنة ١١٢٣ هـ ، وهو ساجد في صلاة الجمعة ، في اليوم الثاني من أيام عيد الفطر . ورثاه الشيخ حسن البدرى الحجازى بقصيدة يقول فيها : —

أحلّ البلايا ، والرايا وما دهي	وما كان قنّاء ، بمن دأبه الظلم
من السوق الأشرار ، الأنجاس <sup>(١)</sup> من لهم	من البخس والخسران ، عزم له عزم
فأرجح ميزانا ، وأوفى مكايلا ،	وأخمد نيرانا ، وقام به سلم
وليس له من مبغض ، غير مفرص	عن الحق ، أومن في عقيدته سقم
وظن بليد الطبع سوء ماله	فقدت له : أكفف ، فأنك العلم والفهم

### الحياة في الريف

عندما يكتب الجبرتي عن ريف مصر ، وفراء . يذكر الفلاحين ، والعرب . وهؤلاء هم سكان الريف وأهله . وقد تناول الجبرتي حياة الفلاح ، وخلقهم ، في الجزء الرابع من الكتاب . بما يمكن أن يجعله صورة كاملة له . ومنها نرى أنها صورة لم ينلها كثير من التنوير ، كما نعلم ، ولكما زحوا أن يالها ، تنوير شامل . في وقت قريب أو بعيد .

في شهر جمادى الأولى من سنة ١٢٢٩ أطلق محمد علي رجاله من الكتبة ، والأقباط ، والروماجي . إلى جريدة شلقان لتحرير دفاتر الأتليان ، وقياسها على الطبيعة ، وفرض الضرائب .

(١) لصحة الوزن تحذف الألف الأولى من هذه الكلمة ، ولا تطق الهزمة .



ويتخذ الخبرتي هذه المناسبة سبيلا للحديث عن الفلاحين ، وما يلقونه من ظلم ، وعنت ، ومذلة ، وهوان . وأنهم ، عندما رأوا رجال الدولة هؤلاء ، جفلوا ، وتركوا أوطانهم ووروعهم . وباعوا مواشيهم ، ودفموا أثمانها فيما زاد عليهم من الضرائب . ثم يقول إنهم ، بعد فرارهم ، « سيمودون مثل السكلاب ، ويمتادون سائح الأهاب » وأنهم كانوا أذل من العبد الذي يشتري بالمال ، فربما هرب العبد من سيده ، إذا كلفه فوق طافته ، أو أهانه . أما الفلاح فلا يستطيع ، ولا يسهل عليه أن يترك وطنه وأهله . ولو أنه استطاع ، وفعل ، فسيجىء به الظالمون مرة أخرى ، قهراً ، ليزيدوه نكالا وإدلالاً . ثم يتحدث عن « المونة » و « السخرة » فيقول إنهم كانوا ينادون على الفلاحين ليلا للتبكير في صباح اليوم التالي للعمل في خدمة « المذرم » . فمن تخلف ، حتى بعذر ، أحضره الحفير ، أو الشد ، يحجره من شبيه ، ويشتبهه شتماً وضرباً . وقد اعتاد الملاحون ذلك حتى صاروا يرونه واجباً .! وكانوا يلاقون من المعاملة في الضرائب والأموال المفروضة عليهم أشياء كثيرة . فقد يدفعون هذه الضرائب أكثر من مرة ، لأنهم لا يستطيعون مراعاة المحاصيل ، ولا طلب « الورد » منهم ، حتى يكون حصة في بدهم على السداد . ويستعمل الحرقى كلمة « الورد » بمعناها الذي يعرفه مالكو الأراضي الآن في مصر . وقد يدفعون قدرأ من المال يوازي الضريبة نفسها « هدية » للمحصلين . أو تفرض ضرائب أخرى من المحصيلين يأخذونها لأنفسهم ، وهي « حق الطريق » الذي أثمرنا إليه من قبل . وإذا ادعى مدع على آخر مالا ، وكتب بذلك إلى الحاكم . أمر هذا رجاله بالذهاب إلى المدعى عليه ليدفع ما ادعاه عليه المدعى ، ولو لم تكن معه وثيقة ولا سند ، ثم يدفع بعد ذلك حق الطريق لرجال الحاكم . فإذا تأخر أرسل إليه آخرين . وفرض لهم حق طريق آخر للاستعجال . فإذا لم يدفع حبس وصرب حتى يدفع هذا كله .

وقد أفسد هذا الظلم نفوس الفلاحين ، وأخلاقهم . حتى أنهم ، كما يقول الحرقى ، كانوا إذا ولى أمرهم رجل عادل رحيم ، اردوه في أعينهم ، واستهانوا به ورجاله ، وماطلوه في دفع ما عليهم . بل كانوا يسمونه بأسماء النساء ..! استهانة به

واستخفافاً بأمره. وتغنوا زواله، حتى يولى عليهم جبار لا يرحمهم كأفسد هذا الظلم بقومهم بإيقاع بعضهم الشر ببعض، وأكلهم ما قد يكون تحت يدهم من مال الوقف حتى تخربت مساجد كثيرة، وأسبلة، لأن المتنظرين عليها من الفلاحين، وأعيان الريف، كانوا يأكلون ربع ما وقف عليها، معها كان كثيراً.

كما كان يقع بينهم كثيرين من الخصام، وكثير من القتل أيضاً.

وقد ألف الشيخ حسن البدرى الحجازى أبياتاً أربعة، فى وصف حال الفلاحين إذ ذاك، وما كان ينزل بهم من بلاء، فقال: —

وسبحة بالغلج قد أزلت      لى حووه من قبيح الفعل  
شيوخهم، أستاذهم<sup>(١)</sup>، والمشد،      والقتل، فيما بينهم، والقتال  
مع النصارى، كاشف الناحية      ورد عليها كدهم فى اشتغال  
وعقرهم ما بين عيبيهم      مع اسوداد الوجه. هذا النكال

وهذا الذى كتبه الجبرئى عن الفلاحين، كان هو الحال الغالب الأعم فى كل هذه السنين التى دون تاريخها. كما أن هذه الصفات التى أشار إلى بعضها، وهذه النوارل التى عد الشيخ الحجازى سبعاً منها، كانت هى صفاتهم المألوفة ونوارلهم أيضاً فى هذه السنين، وفى تاريخهم الطويل وهى، كما أشرنا، نتيجة طبيعية لظروف الاجتماعية التى سادتهم، ونوع الحكم الذى كانوا يحكمون به. فهم محمية للظلم والفساد، والإقطاع والاستبداد.

وكان أسوء ما يتلى به الفلاحون، فوق ما يقع عليهم من ظلم وسخرة، القحط، بنقص فيضان النيل، والفرق، بزيادة الفيضان. والأدبثة<sup>(٢)</sup>. فنقص النيل كان يلزمه، بظيعة الحال بوار الأراضى، تلف الزرع، وموت البهائم، والناس أيضاً فى أحيان كثيرة، من العطش والجوع. وكانت الزيادة توقع التلف بالزروع.

(١) الأستاذ هو المقدم، الذى يأخذ الضرائب.

(٢) احتاحت الأوبئة مصر فى هذه الفترة، فى سنوات ١٠٥٢ و ١١٠٨ و ١١٤٧ و ١٢٠٥ هـ. وهى تقابل سنوات ١٦٥٢، ١٦٩٦، ١٧٣٤، ١٧٩٠، ١٧٩١ م

وتمنع الإفادة من الأراضى فى بعض الأحيان . وكثيراً ما كان يحجى الفرق ،  
والنوباء معاً ، متعاقبين كما حدث فى سنة ١٢١٥ « ١٨٠٠ » م وقد جاء فيضان  
النيل فيها عالياً . ثم أعقبه الطاعون . فكان الناس لا عمل لهم إلا دفن الموتى . وقد  
أرسل الشيخ حسن العطار ، وكان قد ترك القاهرة إلى أسيوط فراراً من الوباء ،  
إلى سديقه الجبرتى ، كتاباً يقول فيه إن عدد الذين يموتون فيها بسبب الطاعون ، كان  
يقرب من ستمائة ، كل يوم . وكان هذا الوباء ومثله ، يستتبع ، بطبيعة الحال ،  
محنة ، بسبب هجرة كثير من الفلاحين من بلادهم . وموت الكثيرين منهم ،  
وانشغال الآخرين بموتهم . وقد ذكر مسيوجومار ، أحد مهندسى الحملة الفرنسية ،  
أنه مات بهذا الطاعون ، فى شهر واحد ، عشرة آلاف ، من سكان القاهرة .  
وقدر الدكتور لارى ، كبير جراحى الحملة ، من ماتوا بهذا الوباء ، بمئة وخمسين ألفاً .  
فى القاهرة ، والوجه القبلى .

### حبیب وھمام :

أما حياة العرب ، فى ريف مصر ، فستتخذ مثلاً لها ، من ترجمة أمره حبیب ،  
وسيرة شيخ العرب ھمام . وكانت الأولى صاحبة السطوة فى إقليم الوجه البحرى ،  
وكان الثانى زعيماً على الهوارة . وصاحب السطوة والجاه ، فى الصعيد . وكان سويلم  
وھمام متعاصرين . وماتا فى سنة واحدة .

يصف الحرقى سويلم بن حبیب ، بأنه المقدم الشهير ، والضرغام النجيب ، من  
أكبر عظماء مشايخ العرب بالقليوبية . وكانت مساكنه ، ووراله ، فى دجوة على  
شاطئ النيل . أما أبوه حبیب فأصله من قرية بجوار أسيوط اسمها شطب فلما  
مات حبیب تولى الرئاسة ابنه الأكبر سالم ، وكان فارساً شجاعاً . حتى جعله الناس  
وفرسه ، مقوّمان ، فى الحرب ، بأنف فارس . فطار صيته وكثرت جنوده وفرسانه  
وحيوه . ودخل فى طاعته العرب كلهم . لا يفعلون شيئاً إلا بأمره . واتسع  
سلطانه ، وعظم أمره وبطشه . وحملت له حراسة البرين على النيل ، من بولاق  
إلى رشيد ودمياط . وكانت بين سالم وأبيه وبين الأمير الكبير إسماعيل بن إيواظ

خصومة وحرب ، فتسلل سالم إلى حيل كانت لابن إيواظ فقطع معارفها وأذناها وتركها . فنضب ابن إيواظ من ذلك ، غصباً شديداً ، وأمرها له . ثم ساط عليهما رجلاً شجاعاً من أمرائه . اسمه حسن أبو دحية . فخارب أولاد حبيب . وسلط عليهم المدافع . ولم تسكن عندهم مثلها . فخاربوه بخيولهم ، وبادقهم . واستطاع سالم أن يهزم أبا دحية . وأن يلقى مدافعه في النيل . فقام ابن إيواظ بنفسه لحربه . حتى هزمه ، وحرق بيوته كلها في دجوة . وسلبه ما فيها من خيول ، وأبقار ، وأشياء كثيرة .

ولم ير حبيب بداً من العزاز إلى غزة ، حيث مات فيها . فعاد سالم إلى مصر . واحتال حتى دخر ، مع صديق لوالده ، على ابن إيواظ . فلما عرفه قال له : — أتيت بيتي ولم تخف . ؟ فقال له سالم نعم ، أتيت وكفني ممي . إما أن تنتقم فتقتلني . وإما أن تغفر . فرحب به ابن إيواظ . وطلب إليه أن يحضر أهله وكتب له أماناً وأنعم عليه بكسوة . وأذن له في أن يقيم حيث كان أموه . وأوصاه أن يتقى الله . ثم ذهب حيث أقام عند كبير آل الشواربي حتى أقام بيوته ، وبيوت أهله وأنصاره فأنشأ له ولهم دوراً عظيمة ، وحدائق ، وسواق ، ومعاصر ، ومساجد ثم تولى ، بعد ذلك ، حراسة البرين ، من بولاق إلى رشيد ودسياط . وأصبح صاحب الكلمة النافذة في بلاد الوجه البحري كله . وسارت كل السفن التي تشق النيل في هذه البلاد ، تحت حكمه . يفرض عليها الضرائب ، الشهرية والسنوية . فزاد في سعة حدائقه . وأنشأ على النيل بستاناً عظيماً غرس فيه أنواع النخيل وأشجار الفاكهة المختلفة . حتى كانت فاكهته لا تنقطع صيفاً ولا شتاء . وأحصى له الستائين من رشيد والشام . ثم اشترك في حروب قامت بين كبار المماليك مال فيها نصراً ومعداً وأموالاً عظيمة . فاشترى الجوارى البيض . وبقي على حاله ، من السطوة والثروة حتى مات في سنة ١١٥١ . وتولى أخوه سويلم حراسة البرين بعده ، فزادت سطوته وثروته . حتى كان رجاله يقعون في طريق السفن التي تسير في النيل وينادون رجالها . فإذا أطاعوهم قرضوا عليهم ما أحبوا من ضريبة . وأخذوا ما شاءوا من بضاعة . وأن عصوا عليهم قطعوا طريقهم ، وجاءوا بهم صاعرين ، وأخذوا

منهم أضعاف ما يأخذون عادةً . وأنشأ سويلم لنفسه حرساً من العبيد السود ، يركبون  
الفرسان . ويلازمونه حيث سار . وكان لا يبيت في داره . بل يجيء في الثلث  
الأخير من الليل ، فيدخل إلى بعض حريمه . ثم يخرج عند الفجر إلى ديوانه فيحضر  
إليه الكتبة ، يعرضون أوراقهم ، ويتلقون ما يأمرهم به ، ويكتبون ما يريد أن  
يرسل من كتب ورسائل إلى القاهرة ، أو البلاد التي تخضع لحكمه . ويحضر إلى  
ديوانه أيضاً أرباب الحاجات ومشايخ البلاد ، والحد ، والمثرون ، والفلاحون ،  
والعرب . وكلهم واقف بين يديه . ولا يستطيع ملتمز ، ولا حاكم ، ولا شيخ ، في  
القبليوية والشرقية خاصة ، أن يرم أمراً إلا بما وافقته . وراد سويلم في بناء مساكن أهله  
في دجوة ، فأنشأوا دواراً عظيماً ، له مقاعد شاهقة الارتفاع ، تحمل على عروشها  
أعمدة عليها بوائك مقصورة يراها الناس من مسافة بعيدة في البر والبحر . وفيها  
يجالس عدة ، وغداع ، ولواوين ، وفسحات علوية وسفلية . وبني بداخله مسجداً  
ومكاناً فسيحاً ، للضيوف من كل جنس وطارق . وحمل أمامه على شاطئ النيل  
طريقاً فسيحاً ، ومساطب جلوسه . كما بدأ بتحصين ، وبناء في ركوبه ولباسه .  
حتى كان الناس ينسبون إليه ما يتدع في ذلك : فيقولون هذا سرج حبابي  
— أي منسوب لابن حبيب — وشال حبابي ، ومركوب حبابي ، وكان ، إلى  
شدة مراسه ، وقوة بأسه — كريماً — يحب المعاء وأرباب الفضائل ويأس بهم .  
ويستطيع أن يشاركهم حديثهم ويرسل إليهم الهدايا .

وفي سويلم ، وأسرة حبيب حتى تولى على بك الكبير حكم مصر حاربهم  
حتى قتل سويلم ، وحمة وأربعين من كبارهم . ثم قضى على من بقي منهم بعد  
ذلك . ومما كان لهم من سطوة وهيبة . وكان ذلك في سنة ١١٨٣ هـ

وأما شيخ العرب همّام ، فيصفه الخبر في بأنه الجناب الأجل ، والكهف  
الأطل ، الجليل المعظم ، والملاذ الأضخم ، منبجاً الفقراء والأمراء ، وعط رحل  
الفضلاء والكبراء . الأمير شرف الدولة همّام بن يوسف بن أحمد ، الهواري .  
عظيم بلاد الصعيد . ثم يظن في ذكر ما يتصف به من الكرم . فمن ذلك أنه كان  
إذا زلت بساحته الوفود من الصيفان ، تنفاهم خدمه ؟ وأزولهم في أما كن مدة

وأحضروا لهم ما يحتاجونه من الخواثج . ونقدم لهم ، مهما طالت إقامتهم ، الأطلعمة الفاخرة في الغذاء ، والعشاء ، والإفطار . ويجدون ، في كل وقت ، السكر ، والحلوى ، والمربات ، وشمع المسل ، والآية النظيفة ، السكرية ، لطعامهم وشرابهم . وكان بعض الناس يقيم في ضيافته شهوراً ، وهو لا يعرفه . وطعامه لا ينقص ، وكذلك خدمته وإكرامه . فإذا انتهت ضيافة الضيفان . ورأى فيهم محتاجاً ، أكرمه ، وأعطاه أكثر مما كان يرجو . وينظر . ومن الناس من كان يقصده ، في كل سنة ، فينال من بره ما يكفيه السنة كلها . أما من يقدم عليه من كبار الناس أو من أهل الفضائل ، فإنه كان يزيد في إكرامهم . ويهدي إليهم الجوارى ، والعبيد ، وقناطير السكر ، والفلال ، والسمن ، والعسل . وكان هذا حاله على الدوام ، في كل أيام السنة . فكان الخدم يهيئون الفطور للضيوف من طلوع الفجر ، فلا يفرغون من ذلك إلا في الضحى . ثم يشرعون في تهيئة الغذاء ، فلا يفرغون منه إلا قريباً من العصر ، ثم يشرعون في تهيئة العشاء إلى وقت من الليل . وكان رجلاً بشوشاً ، قوى الذّاكرة . إذا رأى إنساناً ، مرة واحدة ، ثم غاب عنه سنين ، ورآه بعد ذلك ، عرفه وأقبل عليه . وإذا جلس إلى كتابه وحاسب أمواله . أخذ يستمع إليهم ، ويأمرهم ، وعلى عليهم كتباً ، ومراسيم . لا يفرب عن فكره كبير أو صغير . وكان يفعل ذلك في الليل ، ثم ينام ساعة قليلة ، يقوم بعدها إلى الصلاة . وعندما يجلس إلى الناس يضع إلى جانبه فنجاناً فيه قطعة من القطن ، وماء الورد ، فإذا قرب منه مصهم ، مسح بتلك القطنة — بعد انصرافهم — عينيه ، وشمها .

وكان همام كثير الأكرام للعلماء . رآه السيد مرتضى الزبيدي ، صاحب تاج العروس ، فأكرمه إكراماً عظيماً . وأهدى له الفلال ، والسكر ، والعبيد ، والجوارى . وكان هذا شأنه مع أهل العلم والفضل .

أما ثروته فكانت عظيمة جداً . من ذلك أن عدد الثيران ، التي كانت محصنة لرعاية القصب وحدها ، كان إثني عشر ألفاً . وعنده غيرها ، من الثيران المعدة للحراث ، ودرس الفلال ، والطواحين ، والسواقى ، وغيرها من الجواميس والأبقار .

أما محازن الفلال ، وحواسل السكر ، والتمر ، بأنواعه المختلفة ، والمعجوة .  
 فشيء لا يمكن حصره وكان من يرى مخارن الفلال ، من بعيد ، يظنها مزارع ، لطول  
 مكث الفلال فيها وكثرتها . فينزل عليها الطير . وتحتلظ بالتراب . فتنبث وتصير  
 خضراء ، كأنها مزروعة . وكان عنده من الجند ، والقواصة ، من المالك ، عدد  
 وافر . أقاموا عنده ، وتروحووا . ونخفقوا بأخلاق الهوارة ، وتعلموا لغتهم وله  
 دواوين وكتاب عديدون من الأقباط ، وعحاسبون ، وعحصلون . لا يقف عملهم ليلا  
 أو نهارا . وعنده من الخواري ، والسراري ، والعبيد ، شيء كثير جدا . أمرد لهم  
 سجلا خاصا . وفي ختام كل سنة يطلب من كاتب هذا السجل عدد من مات منهم .  
 وقد يكون أربعائة ، أو خمسمائة . في سنة واحدة .

ووقعت حروب بين علي بك الكبير ، وبين خصوم له من المالك . كانوا من  
 أصدقاء هم ، وكان يعينهم . فلما تغلب عليهم على بك ، عرف هم أنه لن يتركه .  
 وعذره ، بعد ذلك ، بمصر أهله ، وأحازوا إلى علي بك . فترك هم فرسوط ،  
 حيث كانت منازلهم وبيوتهم . ورحل إلى إسنا ، فمات بها في شعبان من سنة ١١٨٣ ،  
 وهي نفس السنة التي مات فيها سويلم بن حبيب .

ورث أولاداً ثلاثة : درويش ، وشاهين ، وعبد الكريم . واستطاع أولهم  
 أن يترضى على بك ، فأعاده إلى فرسوط ، وإلى مكان أبيه . ولكنه كان قاسيا  
 سيء السيرة . أخذ يقبض على خدم أبيه ، ويسلب أموالهم . فأخذ من خادم يسمى  
 زعيتر ، كان وكيل البصل للرتب لطابخ همام ، أموالا عظيمة . منها أربعمائة ألفا من  
 الذهب البندقى ، دفعة واحدة . وكذلك أخذ من العامل المخصص لصناعة الأبراد  
 لكسوة الجوارى السود والعبيد . ومن وكلاء الفلال ، والسكر ، والسمن ،  
 والمسل ، والتمر ، والشمع ، والزيت ، والبن . وشركاء المزارع . فلما علم على بك  
 بما فعل بهؤلاء . وما جمع من أموالهم . أخذها منه . ثم سادده محمد بك أبو الذهب ،  
 بعد ذلك ، في كل ماله . حتى أخرج ما في بيوتهم من الناع ، والآية ، والنحاس .  
 فكانت قناطر مقطرة . وجاء درويش هذا بعد ذلك إلى القاهرة ، فمات فيها ،  
 كما يموت أى فرد من الناس .

وكان بعض أبناء همام ، كما كان بعض أفراد أسرة حبيب ، من أصدقاء الجبرتي

### المسلمون والنصارى

كان وجدان الناس ، في هذا العصر الذي نؤرخه ، وجداناً دينياً . ولم تكن الماطفة الوطنية قد وجدت عند المصريين . وهذه فترة من الزمن ، مر بها كل أمة . فالماطفة الوطنية عاطفة طارئة على شعور الناس جميعاً ، وإحساس محدث نت ، ونفى ، عند أهل الأوطان كلهم ، بعد أطوار سابقة عليه . مرت بها مصر كميرها من الأمم . وما كانت الحروب الصليبية إلا تنقيساً عن هذا الوجدان الدينى . أخذ طريقه إلى الخصام والدم . بدلا من المحبة والرفق . وقد عاش العالم كله دهوراً طويلة لا يجد أهله لهم عاطفة عامة ، ولا وحدانا ، إلا هذا الوجدان الدينى .

ثم طهر بعد ذلك الشعور بالوطن ، ووجدان الوطنية .

كان وجدان الناس في مصر إذن ، دينياً . وكانت عاطفة الدين ، والمشاركة في العقيدة ، هي الشعور الذي يجمع الناس بعضهم إلى بعض . ولذلك يقول الجبرتي : قام المسلمون ، وفعل المسلمون . وهو يقصد المصريين . ونجد في الوثيقة التي سجل بها الفرنسيون مقتل الجبرال كلير ، أنهم قبضوا على « المسلم » سليمان الحلبي . ولكن العلاقات والصلات ، بين المسلمين وأصحاب الأديان الأخرى ، وخاصة المسيحيين ، كانت — في عمومها — علاقات مودة وأخوة . بقدر ما تسمح به ظروف الأحوال وملابستها . وقد كانت العلاقات والصلات بين المسلمين أنفسهم ، لا تخلو كذلك من شرور ، ومن خصام وعنف . وحرب أيضاً . فكثيراً ما نرى الحرب قائمة ، في هذا العصر ، بين الجند ، والمصريين ، وكلهم مسلمون أو بين المماليك والدولة ، أو بين المماليك وبعضهم وبعض . أو بين المصريين ولوهابيين . وكل هؤلاء المتحاربين مسلمون .

كان المسلمون يعاملون غير المسلمين ، عادة ، بروح التسامح ، والرفق . التي أوصاهم بها القرآن الكريم . وكان غير المسلمين ، عادة ، يقابلون هذا التسامح



والرفق ، بما يوجبهم من الولاء ، والمحبة ، والإخلاص . وكان المسلمون وغيرهم يقعون تحت نير واحد من الظلم ، والجبروت . فهو كفيل بشوحيد عواطفهم ، أو تقريبها . إلى جانب الأسباب الأخرى للتوحيد والتقريب . وهى المشاركة فى العمل ، والجوار . والخلطة . والتقارب العنصرى والثقاتى .

هذا الولاء ، وهذه المحبة والإخلاص . وجدده غير المسلمين ، فى الجملة ، فى مصر . وقد كان العالم كله ، إذ ذاك ، أقرب إلى التعصب الضيق ، منه إلى الساحة الكريمة الرحبة . وكان الناس فريمين إلى قبايا الحروب الصليبية . ما تزال باقية ، فى آدق أوطانهم ، أصداء تلك النواقيس التى دعا إلى دقها بطرس الراهب . وما يزال آباؤهم وأجدادهم يتحدثون إليهم عن وقائع هذه الحروب ، فى دمياط ، وغيرها من الثغور . وما يزال « فرسان ماطة » يترصدون بالسفن فى البحر الأبيض ، ويغيرون عليها ، متأثرين بهذه الحمى ، التى ملأت رؤوسهم بها نواقيس بطرس الراهب .

فى هذه الأيام نفسها ، وتحت تأثير هذه المشاعر التى توحى بالانحراف والتطرف ، لم يجد غير المسلمين ، فى مصر ، إلا الأخوة ، والعزة ، والكرامة . ما داموا يعرفون حق وطنهم ، وحق إخوانهم ، عليهم .

وكان النظام الاجتماعى ، ونظام الحكم ، يفرسان على المنصارى دفع الخزية . ويقول الجبرقى إن المعلم على ، كبير القبط فى عصره ، أنتم بأن يدعها إلى محمد على خمسة وثمانين كيساً<sup>(١)</sup> . ولم تكن قدرأ ثانياً ، معروفاً . بل كان يفرضها الوالى ، أو شيخ البلد ، كبير المالك ، كيفما شاء . وكان بعض الحكام أيضاً يظهر من صلب الأفق شيئاً كثيراً فيوقع نير المسلمين ظلمه ، كما فعل إسماعيل بك الصغير المعروف بالفزاوى . وقد ملت فى سنة ١١٩١ .

ولكن هذا النظام الاجتماعى نفسه ، ونظام الحكم ، كانا يجعلانا للمنصارى واليهود سلطاناً عظيماً فى الدولة ، وعلى الشعب . فقد كان هؤلاء ، إلى جانب اشتغالهم بالتجارة ، والصناعة ، والزراعة ، يختصون بالشؤون المالية فى الدولة . كان

(١) يقول أميب باشا ساسى ، فى الجزء الثانى من تقويم النيل ، إن الكيس كان حسيانة قرش . ويقره الأستاذ محمد فريد أبو حديد ، فى كتابه عن السيد عمر مكرم ، نحو أربعة جبينها . بالعملة الحالية .

منهم جباة الضرائب . وهم الذين يقدرونها على الأراضى ، والمحاصيل . وفى أيديهم سجلاتها ، وأورادها ، وحساباتها . وما يسجل فيها من الأراضى البور ، فتمنى من الضريبة . ومن المزرع ، فيقرضون عليه القدر الذى يريدون . وسلطتهم فى ذلك مطلقة ، وكلتهم نافذة . وما يكتبونه فى سجلاتهم ، لا معقب عليه بعدهم . وكان كبار المهالك يختارون لإدارة أموالهم الخاصة ، القبط ، واليهود . ويولونهم فى ذلك الثقة كلها . وكان الكتبة ، والمحصلون ، ورؤسائهم من المباشرين ، كلهم من القبط غالباً ، ومن اليهود أحياناً . سواء فى أموال الدولة ، أم فى أموال الأمراء . والسراة .

ويقول الجبرتى إن محمداً عبياً وضع لسجلات هذه الضرائب نظاماً ، كان يقضى بأن تكتب باللغة العربية <sup>(١)</sup> لأن فرقة من كتابها كانوا من اليهود .

وكان رئيس المشرفين على هؤلاء الجباة يسمى « كبير المباشرين » وقد بلغ بعض هؤلاء من الثروة والمجد مبلغاً عظيماً . مثل المعلم رزق ، والمعلم إبراهيم الجوهري ، وأخيه جرجس . والمعلم عالى . فالمعلم رزق كان بمثابة وزير مالية الدولة فى عهد على بك الكبير . وكان أيضاً أمين سره وكبير مستشاريه فى شؤون الدولة .

ويقول الجبرتى إن « المعلم رزق » ، « بلغ من العظمة ما لم يلمسه قبلى ، فيما رأينا » .

أما إبراهيم الجوهري فقد تولى ، عند محمد بك أبو الذهب ، حديفة على بك الكبير ، ما كان يتولاه المعلم رزق عند على بك . من أمور المال والحراج والضرائب .

ويقول فى ترجمته إنه أدرك بمصر من العظمة ، ونعاد الكلمة ، وعظم الصيت والشهرة ، مع طول المدة ، ما لم يسبق مثله . وبعد وفاة محمد أبو الذهب ، نال عند خلفه ، إبراهيم بك مكاناً أعظم . حيث « قلده جميع الأمور ، فكان هو المشار إليه فى الكليات والجزئيات . حتى دفتر الرزامة ، والميرى وجميع الإيراد

(١) ص ١٨٢ من الجزء الرابع .

والمصرف . وجميع السكتبة والصيارف من تحت يده وإشارته . وكان من دهاتين العالم ودهاتهم ، لا يغرب عن ذهنه شيء من دقائق الأمور ، ويدارى كل إنسان بما يليق به من المدارة ، وبحاجي ويهادى ويواسى . ويفعل ما يوجب انجذاب القلوب والحببة . ويهادى ويبيعت الهدايا العظيمة والشموع إلى الأمراء . وعند دخول رمضان ، يرسل إلى غالب أرباب المظاهر ، ومن دونهم ، الشموع والهدايا والأرز ، والسكر ، والكساوى .

ثم يقول إنه في أيامه ، عمرت الكنائس والأديرة ، ووفقت عليها الأوقاف الجليلة والأراضي . ورتبت لها المرتبات العظيمة والأرزاق ، والغلال . ولما مات حزن عليه إبراهيم بك كثيراً . وخرج إلى قصر العيني ليشاهد حنازته . وفي ذلك من روح التسامح ، والحببة ما فيه .

وتوفى المعلم إبراهيم الجوهري سنة ١٢٠٩ [ ١٧٩٥ م ] .

وتولى حرجس الجوهري مكان أخيه إبراهيم . ونال ، مثله ، مكانة عظيمة . وبقي ، مدة احتلال الفرنسيين مصر ، محتفظاً بهذه المكانة . ومتمتعاً بالجاه والسلطة والرعاية . وافر الحرمة ، وعند ما عاد المماليك ، بعد الفرنسيين ، نال عندهم الحظوة والسلطان .

يقول الجبرتي ، إنه رآه يجلس إلى جنب محمد باشا حسرو ، والدفتر دار شريف افندي ، ويشرب في حضرتهم الدخان ، وينادونه « جرجس أفندي » ويرعون جانبه . ويشاورونه في الأمور .

وكان جرجس الجوهري عظيم النفس ، كريماً . يفرق على جميع الأعيان في رمضان ، الهدايا الغالية . كما كان يفعل أخوه إبراهيم . وكانت له ثروة عظيمة ، وقصور تقف على بابها الخدم ، والحجباب .

كما كان خيراً لا يوافق على إرهاب الناس بالضرائب والمطام . يطلب منه محمد حتى أن يجمع له قدراً كبيراً من المال ، فيقول له : هذا لا يتيسر ، ويأبى .

فلما ظهر المعلم على تقرب إلى محمد على ، وزين له ما شاء من إرهاب للناس ،

وفرض ما يريد عليهم . وإذا أبى جرجس الجوهري أمراً يطلبه محمد على ، تقدم إليه غالى وقال له أنا أجمع لك هذا المال . وأنفذ لك هذا الأمر . وانتهت سياسة العلم غالى بتغير محمد على ، على جرجس . حتى خاف على نفسه منه فهرب إلى الصعيد . ثم حضر بأمان من محمد على . ولكنه لم يباشر أمراً ، حتى مات فى شعبان من سنة ١٢١٥ .

وأصبح العلم غالى ، بعد ذلك كبير المباشرين . ووُسر لمحمد على أن يجمع من الأموال ما يشاء . كما جمع لنفسه مالا عظيماً . ولكن محمد على صادره بعد ذلك فى كثير منه . فى حوادث شهر رمضان من سنة ١٢٢٥ — فى السابع عشر منه — طلب محمد على العلم غالى ، وحجسه ، كما طلب العلم فلتىوس ، والعلم جرجس الطويل ، والعلم فرنسيس ، أحا العلم غالى ، وباقى الأعيان من مباشرى القبط . ففى بمضهم إلى دباط . وحس الآخرين فى القلعة . وختموا على دورهم . ثم انتهى الأمر بالعمو عن غالى ، على أن يدفع قدراً من المال يشك الإنسان فى تصوره . ولكن الجبرتي يذكره ويحده ، بأربعة وعشرين ألف كيس .

ومن مظاهر المودة والإخلاص ، ما رواه الجبرتي من أن كاشف البحيرة ، من قبل محمد على ، قبض على السيد حسين نقيب الأشراف فى دمنهور ، وألزمه بأن يدفع ألفى ريال ، وإلا قتله بعد أربع وعشرين ساعة . فلما عجز عنها ، رجا من النصارى المباشرين أن يدفعوها عنه ، فدفعوها ، ونحاً ، أو كما يقول الجبرتي بأسلوبه الظريف « تخلص بالحياة » .

ومن طريف ما ذكره الجبرتي ، وهو مظهر من أقوى المظاهر ، التى تدل على الشعور والماطفة بين المسلمين والأقباط . أنه ، فى سنة ١٢٢٣ جاء النيل ناقصاً . وانتظر الناس وفاته . فلم يَف . فضجوا وانزعجوا ، ولم يجدوا غللاً . ثم رأى العلماء أن يقيموا صلاة الاستسقاء ، فى جامع عمرو ، فذهب كبارهم ، ومعهم السيد عمر مكر . وأهل الأزهر ، وكثير من الأطفال ، يدعون الله فى صلاتهم أن يوفى لهم النيل .

وأقيمت صلاة الاستسقاء في صبح يوم زاد فيه النيل زيادة قليلة . فلما أنموا صلاتهم ، ورجع كثير منهم إلى القاهرة ، عاد النيل فنقص ما راد من ماء قليل . وبعد يومين عاد العلماء والناس إلى جامع عمرو ، يتوجهون إلى الله في صلاة الاستسقاء ، مرة أخرى ، أن يوفى لهم النيل . وأشار بعضهم بأن يترك الأقباط في الصلاة ، فاشتركوا . وجاء المعلم غالى ، كبيرهم ، ومعه كثير منهم ، جلسوا في ناحية من المسجد ، حتى أتم المصلون صلاتهم ودعاهم . ولم تفض ليلة واحدة ، حتى أوفى النيل . وراد ماؤه ، حتى عطى على المقياس . وبعد ذلك بيوم واحد . نودى في القاهرة بوفاء النيل . وأطلقت المدافع ، وأقيم الاحتفال الممتد . ثم يقول الجبرتي إن بعض الأقباط فرح فرحاً شديداً بذلك ، وكان يقول إن الزيادة لم تحصل إلا بخروجهم للصلاة .

ومن الذين ذكرهم الجبرتي من القبط ، ولم يوفه حقه ، المعلم يعقوب ، أو الجنرال يعقوب . ونحن نلخص حياته من الجبرتي ومن مصادر أخرى مختلفة ، في هذه السطور .

ولد يعقوب في مايو حوالى سنة ١١٥٨ ( ١٧٤٥م ) ثم دخل في خدمة كبير الانكشارية سليمان أغا أيام حكم على بك الكبير . وكان يتولى إدارة الشؤون المالية لسليمان أغا هذا ، فجمع من عمله وسميه ثروة كبيرة . فلما جاءت الحملة الفرنسية إلى مصر ، أعانها يعقوب وبحار إليها وقدم لها مساعدات ذات قيمة . فقد التحق بجيش الجنرال ديزيه قائد الفرنسيين في الصعيد . وشارك هذا القائد في مطاردة مراد بك ، وكان يدبر لهذه الحملة ما تحتاجه من مؤن ، وبحارب سيفه أيضاً معها . فلما عادت الحملة إلى القاهرة ، وكل إليه الجنرال كبير تنظيم مالية البلاد ، واستخلاص الضرائب والتأزم التي يفرضها الفرنسيون على مصر . وعلى الثارين من أهلها خاصة . ويقول الجبرتي أن الفرنسيين أطلقوا له في ذلك حرية واسعة ، وجعلوا له نفوذاً كبيراً بعد ثورة القاهرة الأولى عليهم ، فكان يفعل بأهلها ما يشاء . حتى جمع للفرنسيين ما فرضوا من منازم ثقيلة .

وألّف يعقوب من أساء طائفته عرفة لمساعدة الفرنسيين ، فجمع منهم في الصعيد

نحو ألفين<sup>(١)</sup> ، واستسلمهم إلى القاهرة « وحلق لحاهم ورياهم بزي مشاهه لمسكر  
الفرنساوية ، يميزن عنهم بقبَّع يلبسونه على رؤوسهم ، مشاهه لشكل البريطة ، عليها  
قطعة هروء سوداء » .

ثم هدم يعقوب الأماكن المجاورة لمسكنه في حارة النصارى ، خلف الجامع الآخر .  
وبنى له قلعة سورها بسور عظيم ، ووضع فيها الأبراج وأقام فيها المدافع . وكذلك  
عمل بما يحيط بحارة النصارى كلها . وأقام على ذلك كله حراساً مسلحين ، على  
النظام الفرنسى .

ولما جاءت الجيوش العثمانية والإنجليزية لإخراج الفرنسيين من مصر ، كان  
يعقوب يعمل قائداً مساعداً للجنرال بليار يدافع معه عن القاهرة حتى لا تدحليها  
هذه الجيوش .

وقد كافأه الفرنسيون على إخلاصه لهم ، فأمنوا عليه بسيف ، وجنوده  
مستشاراً لهم ومديراً للشئون المالية والضرائب . ثم أمنوا عليه بلقب جنرال .  
وأظهر هو محبة صادقة لهم في مدى السنوات التي أقاموها في مصر ، وبعد خروجهم  
منها . فقد عرض ترعه بثلاث النفقات ، مهما بلغ مقدارها ، لإقامة تمثال لصديقه  
الجنرال ديزيه ، عند ما علم بموته . وعند ما حضره الموت كان إلى جواره الجنرال  
بليار ، فقال له يعقوب وهو يحتضر ، أرجو أن أدفن إلى جوار ديزيه . وكان في  
أثناء حملة ديزيه على الصعيد ، يقيم له ولعصابه الولائم الفاخرة .

ولما خرجت الحملة الفرنسية من مصر ، كان من شروط تسليمها أن يسمح لمن  
يشاء من الدين عملوا معها ، ولو لم يكن فرنسياً . أن يصحبها . فخرج يعقوب معها ،  
وركب البارية الإنجليزية للباس ، مع الجنرال بليار . وكانت آخر البوارج التي غادرت  
ميناء الإسكندرية . وبعد يومين من سفرها أصيب الجنرال يعقوب بمرض ، ثم  
مات في صباح يوم ١٦ أغسطس ١٨٠١ ، ولم تلق جثته في البحر ، بل حملت حيث  
دفن في مرسيليا بمقبرة القديس بطرس . بعد أن شيع جثته في احتمال  
عسكرى مهيب .

(١) في رواية نقولا الترك ، أن عدد هذه الفرقة ، كان ثمانمائة .

وقد نشرت الجمعية الجغرافية الملكية في القاهرة سنة ١٩٢٤ وثائق<sup>(١)</sup> محفوظة في وزارة الخارجية البريطانية تتضمن مشروعاً كان المعلم يعقوب قد تحدث به إلى رجال البارجة ، وهي طريقها من الاسكندرية إلى مرسيليا . ويتضمن المشروع سوداً وعروضاً لاستقلال مصر بضمان الدول الأوروبية عامة ، وإنجلترا خاصة . ويصح تكوين جيش أعني في مصر ، وعلى نفقتها ، لرد العدوان عن هذا الاستقلال . حتى يتكون جيش مصري ، وطني .

( وقد اختلف المؤرخون في الحسم على المعلم الخيال يعقوب حنا . بعضهم يرى أنه كان زعيماً وطنياً آثر أن يعين الفرنسيين حتى يخلص وطنه من حكم الأتراك والماليك . فلما فشل في ذلك بالحرب . حاوله بالسياسة . وتحدث في ذلك إلى رجال البارجة الإنجليزية ، تمهيداً للحديث فيه مع كبار الساسة منهم .

وبعضهم يقول : إنه كان رجلاً طائفاً أراد أن يكسب لقومه مغانم وجاهاً ، فسلط ذلك السبيل الوعر ، وحارب أهل وطنه .

وقيل أن تترك الحديث عن المسلمين والنصارى ، وما كان بينهم من مودة وعبة ، نلخص قصة رواها الجبرتي عن الشيخ عبد الله الشبراوي ، شيخ الأزهر ، وهي تدلنا على ما كان عنده من تسامح وفهم لروح الدين . كما نجد فيما كتتناه عن كفاح الشعب<sup>(٢)</sup> ، عند مقاومة المصريين لنابليون وحملته ، أمثلة رائعة لوحدة عنصرى الأمة ، وما قام بينهما من تضامن وأنسداد ، إزاء الخطر المشترك ، الذى ألم بوطניהما . ونجد فيما كتتناه عن الأزهر والعلماء ، في الجزء الثانى ، شيئاً كثيراً من مظاهر الود بين أصحاب الديانات المختلفة ، في مصر ، إزاء ذلك . وهذه هي قصة الشيخ الشبراوي : —

(١) نشرت نصوص هذه الوثائق أيضاً في مجلة مصر الحديثة للصورة ، عدد منتصف

سنة ١٩٢٨ .

(٢) في الجزء الثالث من الكتاب

## الشيخ الشبراوي ونوروز

في سنة ١١٦٦ كان الشيخ عبد الله الشبراوي شيخاً للأزهر ، وكان كبير الأقباط في مصر رجل اسمه نوروز ، وكان نوروز هذا في الوقت نفسه ، كاتباً لرضوان كتخد . كما كان صديقاً للشيخ الشبراوي . وأراد بعض كبار الأقباط أن يستفيد من هذه الصداقة ، فطلبوا أن يؤذن للحجاج بيت المقدس منهم ، في أن يخرجوا من مصر إليه مجتمعين ، فتحدث نوروز في ذلك إلى صديقه شيخ الأزهر ، فكتب الشيخ له فتوى خلاصتها : أن أهل الدمة لا يمنعون من أداء شعائرهم الدينية . وزيارة أما كنهم المقدسة .

ويقول الجبرتي : إن كبير القبط هذا قدم للشيخ هدية وألف دينار ، حتى كتب فتواه ، ولعل سخط الجبرتي على هذه الفتوى ، أو على سوء استغلالها ، كما سيجيء بعد ، هو الذي حمله على رمي الشيخ الشبراوي بهذه الهمة . فإن فتوى الشبراوي هي الرأي الشرعي المطابق لقواعد الإسلام .

فرح نوروز وأقباط مصر بهذه الفتوى فرحاً أخرجهم عن واجب الاثران والحكمة ومراعاة الظروف وتجنب الزلل ، فعندما حصل كبيرهم على الفتوى أسرعوا في التجمع ، وتهيئوا للخروج من القاهرة إلى بيت المقدس ، ولكنهم عند خروجهم حملوا طبولاً كثيرة « وخرجوا في هيشة وأبهة ، وأحمال ، ومواهي ، وتحتروانات فيها ساوهم وأولادهم ، ومعهم طبول وزمور ، وأحضرُوا المربان ليسيروا في خفارتهم ، وأعطوهم أموالاً ، وخلعاً ، وكساوي وإنعامات » .

ومن الطبيعي ، في مثل ذلك الوقت على الأقل ، أن تثير كل هذه المظاهر شعور الناس وأن تسخطهم ، وتحرك غضبهم ، وقد سخطوا فعلاً وغضبوا ، واستنكروا هذا الذي رأوا .

وكان الشيخ الشبراوي بعد ذلك في زيارة الشيخ الإسكندراني في مرض ،



قال النكرى للشيخ : — ما هذا الذى أمرت به يا شيخ الإسلام . . ؟ وهل رأيت ما فعل القوم ، سبب هذه الفتوى . . ؟ أما تخشى أن تصير لهم سنة وحقاً يطالبون به فى كل عام ، ويخرجون فى العام القادم بأكثر مما خرجوا هذا العام ، ويصنعون لهم محملاً ، ويقال : حج النصارى وحج المسلمين . . ؟

وخرج الشيخ الشراوى من بيت البكرى ، وكأنه قد ندم على فتواه ، وكان الناس ألحوا عليه وأتقلوا ، كما فعل البكرى . نفضع لمواطف الجمهور ، وأذن للعامة ، كما يقول الحرقى ، فى الخروج عليهم ، ونهب ما معهم « فاجتمعوا عليهم ، ورجعهم وضربهم بالعصى والساق ، ونهبوا ما معهم » .

وقد كان الشيخ الشراوى ، فى موقفه الأخير هذا ، حاضماً لمورة العامة ، مساقاً مع رغبتهم ، مستسلماً لزواتهم ، بل مبهجاً لها . وكان يستطيع أن يشعل صديقه نورو ، وهو كبير القبط ، ليمتهم من إثارة شعور الناس . عند خروجهم لبيت المقدس ، بدلاً من إذنه للعامة بنهب حجاج النصارى . ولكنه آثر السلامة ، وحشى على نفسه ثورة العامة ، ففعل ما فعل ، ليوجه به عصيهم وجهة أخرى .

### البرهان والثقة بالنفس :

ومن المظاهر التى تستحق التأمل ، فى حياة المجتمع المصرى الذى تؤرج له ، ماهرة صعب الثقة بالنفس . فقد كان المصريون ، حتى كبارهم وقادتهم ، لا يثقون بأنفسهم ، ولا بكفائتهم فى ولاية الأمور العامة .

فقد أظهر أهل هذا الجيل قدراً كبيراً من العناد والصلابة ، فى الحرص على حقوقهم العامة ، ورفع الظلم عن أنفسهم ووطنهم ، ودفع العدوان الذى أرادته الإنجليز احتلال مصر . ومقاومة الحملة الفرنسية مقاومة بأسلة حتى لم تحد بداً من الزحيل .

وقد فصلنا ، فى الجزئين التالين ، بعض مظاهر هذه الصلابة العجيبة النادرة فى حرب الفرنسيين عند غزوهم مصر ، وفى حرب الولاة العثمانيين الذين كانوا يمتدون على شرف الوطن قبل ذلك ، وفى رد الحملة الإنجليزية على رشيد .

وقد كانت هذه الحرب تدو — للتباين البعيد بين قدرة الشعب ، وقوة  
الفرقة — أشبه بالانتحار ، ولكن ذلك لم يضعف من عزمه ، ولم يشنه عن  
الصمود ، ولم يقلل من عناده وصبره وحلده ، حتى كيان له الفتل والنصر  
في نهاية الأمر .

وكان الجبرتي ، المصرى الأمين للذين ، يصف المجاهدين من أهل القاهرة الذين  
يقاتلون جند نابليون ، بالحجارة ، وقطع الأحشاب والحديد ، وقليل من البنادق ،  
كان يصفهم « بالحرافيش » و « الزعر » ، لأنه ما كان يصدق ، أو يتوهم ، أن هذه  
الحجارة والأخشاب أو أيديهم ستغنى ، أفر عناء ، في مقاومة المدافع والقنايل في يد  
الحند القوى المدرب ، ولكن الإيمان الذى كان يغمر القلوب ، جعل هؤلاء الزعر  
والحرافيش ، يحياون حياة هذا الجند إلى جحيم ومحنة متصلة ، حتى أخرجوهم  
من وطننا . فالإيمان القوى ، لا يعرف المستحيل ، وقد يحمل من الجنون حكمة .

ومع ذلك ، كان شعبنا ، في هذه الفترة ، على ما فيه من صلابة وجلد ، ضعيف  
الثقة بنفسه ، ولا أريد أن أسترسل في ذكر الأسباب والعوامل . بل أذكر بعض  
الشواهد ، التى تبرز هذه الظاهرة وتوضحها .

أراد نابليون ، بعد دخوله القاهرة ، في ٢٤ يوليو سنة ١٧٩٨ ، أن يختار  
بعض المصريين للوظائف الكبيرة ، وكان قد وعدهم في مشوراته من قبل أن يفعل  
ذلك ، فلما تم اختيار « أعضاء الديوان » الذين يسند إليهم التصرف في شئون  
الحكم المدنية ، طلب إليهم الفرنسيون ترشيح بعض المصريين لنداسب  
الكبرى ، كحافظ القاهرة ، ورئيس الشرطة فيها . — الحكمदार — وأمين  
الاحتساب — أى المسئول الأول عن التموين والأسعار ، وكانت هذه الوظائف  
وأمثالها في يد المالك والأراك . ولكن أعضاء الديوان لم يقبلوا وكانوا تسعة  
من كبار المصريين ، هم المشايخ : عبد الله الشرفاوى ، وخليل البكرى ، ومصطفى  
الصاوى ، وسليمان الفيومى ، وموسى السرسى ، ومصطفى الدمنهورى ، وأحمد  
الريشى ، ويوسف الشبراخيتى ، ومحمد الدواخلى .

لم يرض هؤلاء السكبار المصريون ، ترشيح مصرى لهذه الوظائف . وقالوا : إنه لا يصلح لها سوى الأتراك والماليك . واختار أعضاء الديوان هؤلاء بمض الأتراك والماليك لهذه الوظائف . فأسندوها إليهم الفرنسيون .

وخرج القاضى التركى ، إبراهيم أدم افندى ، عن طاعة نابليون . مع أمير الحج المصرى مصطفى بك . فاختار الجزائر دوجا ، فى عيبة نابليون إلى الشام ، ابنه ملازاده ليكون قاضياً بدله . فلما عاد نابليون إلى القاهرة ، لم يرض ما فعله دوجا . فحس ملازاده فى القلعة . وطلب إلى العلماء وأعضاء الديوان أن يختاروا قاضياً « مصرياً » تكون له السلطة العليا على فضاة مصر وأحكامها . بدلا من ذلك القاضى التركى الذى كانت ترسله لهم الدولة . وكان نابليون قد علم بخروج حبوشها مع الجيوش الانجليزية ، لحربه فى مصر . فأراد أن يحارب بفوذها الدينى فيها بحرماتها من احتيار القاضى وتعيينه . وهو بذلك يترضى عواطف المصريين أيضاً .

ولكن هذا الإجراء لم يكن مرغباً للعلماء ليختاروا عالماً « مصرياً » للقضاء . بل تمسكوا بملازاده ، ليبقى قاضياً . وهو فى صغير ، غير دى خبرة ولا قدرة . ونشعوا عند نابليون ليطلق سراحه . وبقية حيثما اختاره دوجا ، ولكن نابليون رفض رجاء العلماء . وحتم عليهم أن يختاروا ، بالاقتراع ، مصرياً ليكون قاضياً للقضاء . وكانت نتيجة الاقتراع ، بعد ذلك ، بعيدة عن أن تجيى بمصرى . فقد اختير الشيخ أحمد العريشى . وكان سورياً من خان يونس ، قدم إلى القاهرة والتحق بالأرهر .

وأخرج المصريون حبش نابليون من وطهم . ثم أخرجوا خورشيد باشا ، والى التركى الذى رفض أن يقبل عزلهم له ، وقال إنى وليت بأمر السلطان فلا أخرج بأمر « الفلاحين » . واختاروا « سرشمة » محمداً علياً والياً على مصر . وأراد هذا ، فى أول حكمه ، أن يختار زعيم مصر عمر مكرم نائباً له . ولكن السيد عمر لم يقبل . وكان يستطيع فى ذلك الوقت أن يكون نائباً لمحمد على . وأن ينزعه من الولاية بعد ذلك عند ما يشاء . بقوة هذا الشعب الذى اختاره ، وولاه ، ونصره .

## حياة المرأة

كانت الحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية ، في هذا العصر ، يمتدورها — كما رأينا — كثير من القلق والاضطراب والبعدين الاستقرار . وكانت الحياة الفكرية والأدبية — في مجملها — على ما رأينا من التخلف والخضوع لطائفة من التقاليد الضارة والأوهام والجهالات . ويجب ألا ننسى أيضا عامل البيئة وما كان فيها من حصر على المرأة . ولكن هذا كله ، لم يمنع ظهور طائفة من النساء نالت من السكينة الاجتماعية حظا عظيما . وكان بعضهن له أثر ، قليل أو كثير ، في محرى الأمور العامة .

وقد عاشت في مصر ، في النصف الثاني من القرن الثامن عشر ، سيدة من أعظم السيدات في تاريخها هذا الذي نسجله . بل لعلها ، في شجاعتها ، وقوة شخصيتها ، ونفسها الكبيرة ، أعظم من كثير من الرجال . واسكن الخاتمة المحزنة ، التي حتمت بها حياة قومها من الماليك ، الذين غدرهم محمد علي وحك بهم في مذبح القلعة ، وبعدها ، هذه الخاتمة وتلك النهاية ، أسدلتنا على اسمها وتاريخها سحبا كثيفة من النسبان والحجب . كما أظلت ختام حياتها سحب كثيفة من المحن والآلام تحملتها صابرة عزيزة كريمة ، حتى ماتت . وهذه السيدة العظيمة هي نفيسة المرادية .

## نفيسة المرادية

كانت السيدة نفيسة المرادية ، زوجة مراد بك<sup>(١)</sup> ، جركسية الأصل من بلاد الكرج . وبدأ ظهور أمرها عندما دخلت في حريم علي بك الكبير كإحدى مراربه ، فأحبها وأعجب بها وبني لها داراً تطل على بركة الأرنكية ، في درب عبد الحق . فلما انتهت حياة سيدها علي بك ، تلك النهاية التي رآها في ترجمته ، زوجها مملوكه الخائن محمد أبو الذهب إلى مراد بك . وفي حياة زوجها هذا ، نالت ، في المجتمع

(١) يذكر الخرنقي في المعاصير وفي معطر القديس زوجا أخرى لمراد ، اسمها فاضلة .

المصرى ، مكانة عظيمة . وتعرضت بسبب إخلاصها له ، وبسبب قوة شخصيتها أيضاً ، لحن كثيرة . وكانت تعرف القراءة والكتابة . ولها من الحيرات ، الصبريح الذى بنته داخل باب زويله ، وخاناً . وكان لهذه السيدة مكان الاحترام والتقدير والإجلال عند العلماء ، والأمراء ، وعند الشعب أيضاً . ولما دخل نابليون القاهرة كانت لها عنده منزلة عظيمة كما كان قواده ، ورحاله كلهم ، يعرون جانبها ويجمعون لها فى تقديرهم حساباً كبيراً ، وإن كانت الأحداث الحربية والسياسية جعلتهم ، فى أوقات كثيرة ، يصادرونها ، ويفرضون عليها المغارم ، ويمقتلون بها . لما كانت تسديه من نشاط لا يرضون عنه .

وكانت السيدة نفيسة تعارض زوجها مراد بك ، وهو مطلق السلطان على مصر ، فى مصادرة التجار الأوربيين وإرهاقهم بالضرائب والمغارم . وكانت تبلى من الخلل حداً فائقاً ، حتى يقول بعض المؤرخين أن مراد بك اشترط على محمد بك أبو الذهب أن يزوجها له نظير خيائته لسيدة على بك . ويبدو أنها لم تكن بعيدة عن ممارسة الشؤون العامة أيضاً .

فقد نقل لاكروا ، عن المذكرات التى أملاها نابليون فى سانت هيلين . أن مراد بك لما عاد من البحيرة إلى الجزيرة منهزماً ، سجد إلى قبة الهرم الأكبر ، وأخذ يتبادل الاشارات مع زوجته نفيسة ، وهى فوق سطح منزلها . وتناقل الناس ذلك فى القاهرة حتى صممت به ، فخشيت على نفسها من المرسيين . فذهبت إلى منزل نابليون وطلبت مقابلته ، فلقاها بكل احترام . وأكد لها أنه لا يحفل بهذه التهمة التى وجهت إليها . وأنها لو أرادت الاجتماع بزوجها لما تردد فى مهادته يوماً وليلة حتى يلتقيا .

ولم نابليون أراد بهذه المجاملة ، أن يتخذ من السيدة نفيسة وسيلة للتأثير على زوجها ليقبل الصلح .

ومما يدل على مكانة هذه السيدة ، أن الحكومة الفرنسية أهدت إليها ، قبل حملة نابليون ، ساعة ذهبية مرصعة بالاس اعترافاً بأعمالها الجليلة ، وتقديرها . وأن

دمجنت كبير أطباء الجلة الفرنسية ، عندما ألف كتابه باللغة العربية ، عن مرض الجدرى في مصر ، أهدى إليها خمسين نسخة منه .

ولما دخل الفرنسيون القاهرة وفر زوجها مراد بك إلى الصعيد . لم يهرب معه ، وقيت في قصرها ، وبسطت حمايتها على كثير من نساء المالك المنكوبين ، وواست كثيرين من الفقراء ، ومن الدين سكبوا في حرب الفرنسيين من أهل القاهرة . ودفعت كثيراً من المنارم التي فرضها الفرنسيون على المصريين ، فلم يستطع كثيرون منهم دفعها . وبالت بذلك احترام المصريين والأجانب .

وفرض الفرنسيون على ساء البكوات ، وساء أتباعهم ، نصف مليون فرنك ، فقدمت السيدة نفيسة الساعة التي أهدتها لها الحكومة الفرنسية من حصتها في الترممة . فقدرت بأربعة وعشرين ألف فرنك ، وقدمها إلى نابليون أحد رجاله ، فأهداها إلى صديقه بولين فوريس .

وكانت للسيدة نفيسة ثروة عظيمة ، كما رأينا أول هذا الفصل . أقامت يوماً لبعض رجال نابليون مأدبة في دارها . وعند انصرافهم ، بعث معهم بحاتم ثمين مرمع بالجواهر الغالية ، هدية إلى أوجين بوهاريه « ابن جورفين زوجة نابليون » . وكانت قيمة هذا الحاتم كبيرة إلى درجة أغرت الفرنسيين على أن يفرضوا عليها ضريبة قاذحة . بدل أن يحمّدوا لها مجاملتها وهديتها . فلما شكت إليهم ذلك ، قالوا إن من عنده مثل هذا الحاتم ، يستطيع أن يدفع أكثر مما فرض عليك . وقيمة نفيسة المرادية تمثل هذه المأدبة ، تدل على أنها كانت سيدة مجتمع ، بالعنى الذي يفرقه الناس في عصرنا هذا .

وقد بقي نابليون ، بعد خروجه من مصر ، وبعد أن أصبح امبراطوراً ، يذكر هذه السيدة . حتى إنه بعث ، وهو في قمة مجده ، أمراً إلى قنصل فرنسا في مصر ، بأن يبدل كل جهده لحمايتها ، ورعاية أمرها . وكان ذلك في عهد محمد علي .

وعندما قبل مراد أن يمرضه نابليون حاكماً على الصعيد ، تحت الراية الفرنسية ، رتب للسيدة نفيسة ، في كل شهر مائة ألف فضة . وبقيت تنال هذا المرتب من الفرنسيين ، حتى مات زوجها .

وقد لقيت السيدة نفيسة محناً كثيرة . وتعرضت لمخاطر جمة ، بعد هزيمة زوجها وفراره ، في سبيل حماية زوجات الماليك ، الذين كانوا يحاربون معه . ولعلها بذلك كانت تثير فيهم روح العناد والمقاومة . وتبقى على إخلاصهم لزوجها ، ومعونتهم له . يقول الحرقى ؛ في حوادث شهر ربيع الثانى من سنة ١٢١٣ . إن الخنزالدبوى قائمقام بابلون ، أرسل يطلب إليها أن تحضر روحه عثمان بك الطنجرى — من كبار الماليك أنصار زوجها . وقد احتاره امرتسيون كبارا على الأمراء المرادية بعد وفاة مراد بك — وكان السبب الذى جعل دبوى يطلب إليها ذلك . أنهم صبطوا ثامنا لها يقوم بالسفرة بينها وبين زوجها ، وأنها طلست إلى ثامنها هذا أن يحمل إلى زوجها ثيابا ، وأموالا . فلما سمعت السيدة نفيسة ما طلبه دبوى . أرسلت إلى العلماء تستجدهم فحضر إليهم منهم الشيخان محمد المهدي ، وموسى السرمى . ولكهما لم يستطيعا معها من تلبية ما أمر به القائد . فذهبا معها إلى دبوى ، ليحضرا سؤالها . فلما انتهى النهار طلب إليه الشيخان أن يأذن لها بالذهاب إلى بيتها على أن تعود في الغد ، فلم يأذن . فقالا له : — دعها تذهب ونحن بيت بدلا منها ، فرفض . فلما عجزوا ، تركوها فباتت عند الفرنسيين . ومعها جماعة من النساء المسلمات ، والإفريقيات . وفي اليوم التالى ، ذهب العلماء إلى القاضى ، وكتفخدا الناشا ، وذهب الجميع إلى بابلون لحدثوه في شأنها . فأمر بإحصارها ، وأطلق سراحها ، فخرجت مع القاضى وذهبت إلى منزلها . ولم يستطع دبوى أن يثبت عليها دعواه . ولكهم فرضوا عليها ثلاثة آلاف ريال

وبعد ذلك نادى الفرنسيون على روحات الأمراء ، بأن يظهرن محبتات أزواجهن ، أو بصالحهن على أنفسهن . فصالحت السيدة نفيسة ، على نفسها ، وعلى نساء الأمراء من أتباعها ، بمائة وعشرين ألف ريال . وتشير بعض وثائق الحملة الفرنسية إلى أن ما فرض على السيدة نفيسة ، من الغرامات ، بلغ ستمائة ألف فرنك .

ومات مراد ، ثم خرج الفرنسيون من مصر . وبدأت الأيام تميل بهذه السيدة العطيمة . حيث عاد الأتراك إلى السيطرة على القاهرة ، ونفوسهم مملوءة بالحقده والوجدة على الماليك . فنالها من ذلك الحقده شر عظيم . وكلما رأى الأتراك منزلها

ماقية في نفوس العلماء والناس ، ومحبتهم لها لم تتأثر بفقد زوجها وتغير الأيام عليها ، كلا أمتعوا في الأساءة إليها وامتهانها .

وكان أحمد باشا خورشيد ، أشد هؤلاء الولاة من الأتراك قسوة عليها ، وغفلة معها . ولكنها عرفت كيف تحف أمامه شاحمة مرقوعة الرأس . بل عرفت كيف تخزيه وهو صاحب الحكم والسلطة المطلقة ، وهي سيدة هزم روحها ومات ، وتركها مهبطة الجناح . ليس لها قوة ، إلا قوة نفسها ، وعظمة شخصيتها .

يقول الجبرتي ، في حوادث اليوم الحادي عشر من شهر رجب سنة ١٢١٩ ، إن خورشيد باشا أرسل الوالي والمختص إلى بيت السيدة نفيسة وطلبها إليه . فذهبت معها ، ومعهما امرأتان ، فأصعدهن إلى القلعة . فلما دخلت السيدة نفيسة على الباشا قام إجلالا لها ، وأجلسها . ثم تحدث إليها لائعا . ومنهما . فقال إن جارية لها ، اسمها منور ، كانت تتحدث إلى بعض أصحاب المفوذ ليسي في خلاص الماليك ، ومعونتهم ، وكانت تعده وتغنيه بالأموال ليقبل رجاءها . فقالت له نفيسة ، إن ثبت أن جاريتي فعلت ذلك ، فأنا المأخوذة به ، دونها ، فأخرج الباشا من جيبه ورقة يشير بها إليها . كأنها يريد أن يفهمها أنها دليل التهمة . فقالت له أربها حتى أقرأها . فإني أستطيع أن أقرأ ، فأدخلها في جيبه .

فقالت له السيدة : لقد عشت في مصر هذا الدهر الطويل ولي من المنزلة والمساكنة ، ما يعرفه الكبير والصغير . « والسلطان ، وعطاء الدولة رجالا ونساء ، يعرفوني ، ويرفون قدرتي . حتى الفرنسيون ، أعدائي وأعدائك ، لم أر منهم إلا التكريم والاحترام . أما أنت فلم يوافق فملك فعل أهل دولتك ولا غيرهم . ثم قالت له : — لأى سبب تخرجني من بيتي وترسلني إلى الوالي لأحضر إليك ؟ » فأخذ خورشيد باشا يتلطف معها فيقول : إن الوالي هو أكبر رجالى ، وقد أرسلته إليك من باب التكريم والتمظيم : ثم اعتذر إليها وطلب منها الذهاب إلى بيت الشيخ السحيمي بالقلعة ، فذهبت وبقيت عنده في حراسة من الحقد . فلما عرف الناس ذلك حزنوا ، وانزعجوا . وركب القاضي ، والسيد عمر مكرم ، والشيخ السادات ، والشيخ الأمير ، وغيرهم ، يقصدون خورشيد باشا . فلما تحدثوا إليه في أمرها ، قال لهم إني أرتها بيت



الشيخ السحيمى ، مكرمة ، حسباً للفتنة . ثم ذكر لهم ما تحدث إليها فيه من أمر جارتها ، منور . فحاجوه في ذلك ، ثم اختلا بها الشيخان الغبوى والمهدى يسألانها ، فأنكرت ، وقالت إنه يريد أن يصادرنى فى مالى ، ولم يبق لى مال . ثم عادوا إلى خورشيد باشا ، وخطبه الشيخ الأمير خطاباً شديداً . وفر من مجلسه مضياً ، فاستبقاه خورشيد ، وانتهى الأمر على أن يأذن لها فى البقاء فى منزل الشيخ السادات .

ولم يفته الشهر نفسه ، حتى أدرغها خورشيد على دفع ما يريد من المال . كما أرفع نساء المالك أيضاً على مثل ذلك . حتى باع أكثرهن متاع بيوتهن .

ولقيت السيدة نفيسة ، بعد ذلك ، أشد الحزن والكوارث ، على يد محمد على . بعد أن توطد حكمه . فقد صادر ما بقى عندها من مال وعقار . وعاشت بقية أيامها فى فقر وجهد . ولكنها بقيت ذلك كله ، بصبر دونه صر الرجال . ولم تعارفها مروءتها ، ولا شتم نفسها ، ولا إباؤها .

ومما يدل على أنها بقيت شامخة النفس ، حتى بعد هذه الحزن والكوارث ، ما رواه الجبرتى عن موقفها من زوجة محمد على ، عندما جاء بها زوجها إلى مصر ، أول مرة .

فى صبح يوم الأربعاء السادس عشر من ربيع الثانى سنة ١٢٢٤ ، وصلت زوجة محمد على ، ومعها ابنتها إسماعيل وكثير من أهلها وأهل زوجها . وكان أنها إبراهيم قد ذهب للاقاتها فى الإسكندرية . وعند وصولها إلى القاهرة ، خرج محمد على للاقاتها فى ساحل بولاق . وأمر نساء المالك بالنزول للاقاتها أيضاً . فذهبت منهن نحو خمسمائة ، بركن الحبر ، واعتذرت نفيسة المرادية من الذهاب للاقاة زوجة محمد على ، مشغولة بالمرض .

وقد يفهم من سياق ما ذكره الجبرتى بعد ذلك ، أن محمداً علياً لم يقبل عذرهما ، وأرغما على النزول للاقاة زوجته .

وماتت نفيسة المرادية عجوزاً ، فقيرة ، عزيزة ، بعد أن كانت ملكة على مصر ، يوم الخميس ، العشرين من شهر جمادى الأولى سنة ١٢٣١ [ آخر أبريل ١٨١٦م ]

في بيتها الذي بناه لها على بك . وبعد موتها استولى محمد على على هذا البيت ، وأسكن فيه بعض أكابر دولته .

وقد طلت هذه السيدة العظيمة ، حتى في أيام محنتها ، ترى عمروفها وبرها ، أسراً كثيرة أعينها الدهر بعد يسر .

ومن المواقف الكريمة ، التي يسجلها الجرحى لنساء ذلك العصر ، ما فعلته زوج إبراهيم بك ، بعد موته . فقد أتت عليها وفاقها أن تتركه ، بعد موته ، تدفن في غير قبره الذي أعدته له . فاستأذنت محمداً علياً في أن ترسل إحدى نساءها إلى دفنة ، حيث مات ، فتحضر جنازه ، فلما أدن محمد علي لها في ذلك ، سافرت المرأة فحضرت به في تابوت ، بعد موته بستة أشهر . وأقام له زوجها ، عند حضوره ، جنازة . وكفارة ، ودفنته إلى جوار ابنه وابنها مرزوق .

وبقول الجرحى إنه سمع أن محمداً علياً أعان روحه إبراهيم هذه ، على إحصار جنازه . فأمر حكام الأقاليم بمونة من اختارتها لإحضاره . وأعطاه ، عند سفرها قدراً من المال .

كما ذكر أن نساء العرب كن ، في الوقائع والحروب ، يذهبن إلى ساحتها ، فيجمعن قتلاهن من الرجال ويمدن بهن إلى أهلهن .

ومن النساء اللواتي ذكر اسمهن في تاريخ هذه الفترة ، السيدة زبيدة ، التي تزوجها الجنرال حاك منو ، بعد أن أسلم وصي نفسه عبد الله . وزبيدة هذه كان أبوها السيد محمد البواب ، من أهليان رشيد وكان منو حاكماً عليها .

ويقول الجرحى إنها كانت قبل زواجها منه ، زوجاً لرجل اسمه سليم أغا نعمة الله ، ثم طلقها . وقد تم زواجها من الجنرال منو يوم ٢٥ رمضان سنة ١٢١٣ « ٢ مارس ١٧٩٩ م » .

وبقية قصتها ، التي لم يذكرها الجرحى ، أنها وقعت في أسر الإنجليز عند دخولهم القاهرة مع جيش الدولة العثمانية . فطلبت من الجنرال هتشسون ، قائد هذا الجيش ، أن يبعث بها وبولدها من منو — وكان اسمه سليمان — إلى زوجها في الإسكندرية ،

فبعث بها إليه . وأرسلها زوجها منو من الأسكندرية إلى فرنسا على إحدى السفن العائدة إليها . ثم التقى بها بعد ذلك . ولم تطب حياتها معه بعد ذلك أبداً . فقد هجرها وأساء عشرتها ، وتركها في مدينة تورينو ، بإيطاليا ، واتخذ بعض الراقصات خليات له . وبقى ما كدها ويسى إليها حتى ماتت . وقد راد الجبرتي ، في مظهر التقديس ، أن زواج منو من السيدة زبيدة كان « عسبا من أهدها » .

أما حياة المرأة عامة . فقد كان من الطبيعي ، في مثل هذه الحياة القلقة الى كانت تعيش فيها مصر معظم هذه الفترة التي أرحها الجبرتي ، كان من الطبيعي أن يقع ظل من القلق على حياة المرأة عامة .

وكان مألوفاً ، في كثير من الأوقات ، أن يستولى الغاب من المالك ، أو الجند ، أو الرؤساء ، على زوجات المغلوبين وسرايرهم . سواء رضين أم كرهن . ورمى ، في بعض الأوقات أمنهن - وهن حرائر - ببيع الإماء ، أو يهدن إلى أصحاب النفوذ . وأحيانا كان الأفاقون من الجند يستولون على زوجات الأمراء ، بعد هزيمتهم . كما يستولون على بيوتهم ، بالقهر والغلبة .

وكان نساء القاهرة يرغبن رغبة قوية ، في الزواج من المالك . وبأيين ، إباءاً شديداً ، الزواج من الأتراك العثمانيين . مهما يكن لهم من ثروة وعبود .

يقول الجبرتي إنه لما بدا من محمد على ميل إلى صلح الآلى ، وبدأ مماليكه يظهرن أنفسهم ، بعد التخلي ، ظهرت كذلك كثيرات من نساء الممالك ، يتنافسن في الزواج من الألفية . وكن يقدمن لهم الكساوى ، ويؤثن لهم البيوت ، وينفقن المبالغ الكثيرة ليجسرن لهم الزواج منهم . وكان ذلك يثير الغيظ في نفوس الأتراك . « فإن العظيم منهم كان إذا خطب أدنى امرأة ، ليتزوج بها ، فلا ترضى به ، وتعافه ، وتأنف قر به . وإن ألح عليها استجارت بمن يحميها منه ، وإلا هربت من بيتها واحتفت شهوراً . وذلك بخلاف ما إذا خطبها أسفل شخص من حسن المالك أجابته في الحال » .

وكانت لبعض نساء الماليك شخصية كبيرة وبفوذ غالب . من ذلك أن زوجة الأمير علي بك قطامش ، تزوجت بعد موته مملوكا لها ، بعد أن أعتقته ، ثم واثقه صنفقا . فكان يسمى « صنفق سته » . وكان لهذه السيدة من زوجها قطامش بك أمير اسمه عمر بك .

وكانت المرأة ، في ذلك العصر ، تعرف التظاهر ، والتجمل ، والتعجب ، والتعجب على الاضراب . بل استعمال العنف مع الرجال ، في سبيل الدفاع عن مصالحها .

ففي الخامس من شهر ربيع الأول سنة ١٢٢٩ ، قدم إلى الجامع الأزهر جمع كبير من النسوة اللاتي لم يراض بالالتزام عند محمد علي . فلما دخلن الجامع صرحن في وجوه العلماء ، وأبطلن دروسهم . ومزقن أوراقهم ومحافظهم ، وبددن كتبهم « وملأهم » . فتفرق العلماء وذهبوا إلى بيوتهم . وعند ذلك ابصرت النساء ، وهن يقفن : سنجى كل يوم وبطل الدروس ، ونمزق الكتب . حتى تنال حقوقا . وكان من أثر مطاهرة النساء ، واعتدائهن على العلماء ، أن طلب نائب محمد علي بعض الشايخ ليعرف منه ماذا أعضب النسوة حتى فعلن ذلك . ونجد ، في حوادث دى القعدة من سنة ١٢١٧ ، مطاهرة أخرى للنساء في الأزهر ، أبطلن فيها دروس العلماء .

ورى للنساء أيضاً ، غير هذه المطاهرة ، بعض أنواع من المشاكة في الأمور العامة ، نحتها في صفحات أخرى من الكتاب .

وفي المحرم سنة ١٢٠٠ ، صدر أمر بمنع النساء من الجلوس أمام حوانيت الصاغة والأسواق ، إلا بقدر الحاجة . ولم يقل الجبرتي هل كانت النسوة اللواتي يجلسن ، يمارسن التجارة ، أم كن مشتريات يطلن الجلوس .

ونجد لبعض النساء ذكرا في فعل الخير . فلأميرة الحاجة صائفة ، زوج الأمير أحمد كتحدا عزبان ، أنشأت صهريجا في حارة الشبراوى ببولاك . قريبا من مسجد أبي العلاء ، ووقفت عليه ، في سنة ١١٢٨ . قدرا من المال ، والنلال في كل عام

والأميرة آمنة خاتون ، بنت الأمير حسن جوريجي مستحفظان ، وقفت قسما من أملاكها ، في سنة ١١٤٢ هـ على جامع الكخبا ، الذي أنشأه زوجها الأمير عثمان كتنخدا القازد غلى .

وكان إهداء خاتم للفتاة عند خطبتها ، من العادات المألوفة في ذلك العصر . وقد تأثرت المرأة القاهرية ، إلى حد غير قليل ، من الناحية الخلقية ، بوجود الفرنسيين في مصر . وسنرى ذلك عند الكلام على أثر الحملة الفرنسية في الحياة الاجتماعية .

وكذلك نرى ، عند الكلام عن هذه الحملة ، أن ساء الأسكندرية والقاهرة والريف . حارب حند بابليون حربا عنيفة واشتركن ، بقسط غير قليل ، في شرف الدفاع عن أرض الوطن .

وفي صفحات متناثرة مما كتبه الجبرتي نعرف ، عن غير قصد منه ، بعض مظاهر الحياة الاجتماعية ، والاقتصادية الأخرى . نعرف مثلاً أن أطباء من الأوربيين كانت لهم عيادات يمارسون فيها العلاج في القاهرة . وكانت لهم فيه شهرة كبيرة . فهو يقول في حديثه عن يوسف باشا حاكم الشام المزمول ، الذي استجار بمحمد علي ، إنه في آخر عمره ، أصيب بداء الصدر . فقصده إلى الأطباء الأفرنج يطبّون له ، ويطالع في كتب الطب ، مع بعض الأهرمين الطلبة من المحاورين . ويقول أيضاً إنه في يوم الأحد العشرين من جمادى الثانية سنة ١٢٣٢ ، طاف في شوارع القاهرة منادياً أعمى ، يقوده آخر ، يقول في دوائه إن من كان مريضاً ، أو به رمد ، أو جراحة ، فليذهب إلى خان بالوسكي ، فيه أربعة من حكماء الأهرنج يداوونه ، من غير مقابل . فتمجّب الناس من ذلك وتناقلوه . وسموا إلى هؤلاء الحكماء . وقد ذكر الجبرتي كيفية الدحول إلى هذه العيادة الطبية ، والطريقة التي كان يسلكها الأطباء الأربعة في الكشف على المرضى ، وصرف الدواء لهم . وقال إن الناس استراحوا لهم ولطريقتهم . ولم يكونوا يأخذون من المريض إلا ثمن الدواء . وهو قليل ، بين قرش ، وخمسة . ثم تعرض لنبرم من الدين « يدعون التطيب » من الإفرنج أيضاً ، فقال إنه إذا دعى أحدهم

لعلاج مريض . فأول ما يبدؤه ، قبل نقل قدمه ، الدراهم ، بحسب ثروة المريض .  
وبعد الزيارة يطلب فدرأ من المال ، في نظير العلاج ، وربما هوّل على المريض  
مرضه ، ليزيد في أجره ، فإذا تم الاتفاق على أجر العلاج ، طلب الطبيب نصفه  
مقدماً . ثم يفرض لنفسه أحرأً على كل زيارة لمريضه . ثم يعالجه بعد ذلك  
بما استحدثت عند الأمرنج من الأدوية . يقدمها إليه بأسماء أفرنجية ، في قوارير  
الزجاج اللطيفة المنقار . فإن شئ الله المريض ، أخذ الطبيب بقية أجره . وإن مات ،  
طالب الورثة به ، فإن جادلوه ، قال لهم إني لا أضمن أجله ، وليس على الطبيب منع  
الموت ، ولا تطويل العمر . وكانت تعرف أيضاً التذكرة الطبية « الروشته »

ومن كبار الأطباء الذين كانوا في القاهرة ، قبل الحلة الفرنسية ، طبيب  
سويدي ، هو مسيو لمار ، الذي اختاره نابليون عصواً في الديوان الثاني . ضمن  
الأعضاء الأوروبيين .

ويذكر الجبرتي الشهور الإفرنجية ، بأسمائها المعروفة عند أهل الشام ، وبسماها  
الشهور الرومية ، فيقول شهر آيار ، عن شهر مايو . ونجد أهل القاهرة ، مثل أهل  
الريف ، يؤرخون ، في بعض الأحيان ، بالتاريخ القبطي .

وكان أهل القاهرة يأكلون ، في عيد العطر ، السمك المملح ، كما هي عادة  
كثيرين منهم إلى الآن . وكانت شوارعها تنكس ، وترش بالماء . حتى قبل قدوم  
نابليون وأمره الناس بذلك ، كما كانت تضاء فيها الفوانيس ليلاً . ولكن  
ظروب الناس ، في بعض الأحيان ، كانت تجمعهم لا يحرصون على ذلك ،  
ولا يلتزموه .

وكانت بعض الصناعات التي تتصل بالحرب ، ما تزال باقية في مصر . هو  
يترجم ، في الجزء الأول ، للأسطى إبراهيم السكاكيني ، ويقول إنه كان ذكياً ، متقناً  
متفهنًا . يصنع السيوف والسكاكين ، ويحيد سقيها ، وجلاءها ، ويصنع قراياتها ،

ويسقطها بالذهب والفضة . ويصنع القاشط الجيدة ، والبركات . وكان حانوته بجوار جامع المرداني في حي الدرب الأحمر . ومات في سنة ١١٧١ .

وكانت توجد مصانع للدخيرة ، تصنع في بعضها المدافع والقنابل . فهو يقول عن حروب محمد بك أبو الذهب في الشام ، إنه أخذها مراكب الدخيرة والجيشانة والمدافع والقنابر — القنابل — والمدفع الكبير المسمى « أبو مایله » الذي سبكه في العام الماضي . ولعل سبب هذه التسمية أنه كانت له « ماسورة » مائلة .

ونعرف مما ذكره الجبرتي ، عرضا ، أن المحلة الكبرى كانت مدينة صناعية في ذلك الوقت . وكانت مشهورة بالمسوجات القطنية ، كما هو شأنها الآن ، وكانت تنسج فيها أيضا مقاطع الحرير ، والأمتعة . وكانت المحلة هي عاصمة إقليم الغربية كما نجهده يسمى الميدان القى يعرف الآن « بالعتبة الخضراء » العتبة الزرقاء . وكانت توجد محكمة كبيرة في القاهرة ، ومحاكم أخرى يسميها « المحاكم الخارجة » في باب الخلق ، وباب سمادة ، وباب الشمرية ، وباب زويلة ، وميلون ، وباب الفتوح ، وقناطر السباع ، وبولاق ، ومصر القديمة .

## الآثر الاجتماعي للحملة الفرنسية

وهناك فترة قصيرة من هذا الزمن الذى أُرِخ له الجبرتي . كانت ذات أثر كبير فى حياة مصر الاجتماعية . بل فى جميع نواحي الحياة فيها . ولكننا تقتصر على موضوعنا فى الأثر الاجتماعى والفكرى . وهذه الفترة القصيرة ذات الأثر الكبير ، هى فترة الاحتلال الفرنسى لمصر .

وكما أتى لنا أذكر جميع نواحي الحياة التى تأثرت بدخول الفرنسيين مصر ، وإقامتهم فيها . كذلك لنا أذكر جميع الآمار الفكرية والاجتماعية لذلك . بل أذكر تلك التى أذكرها الجبرتي وسجلها . حتى لا أبعد عن موضوع الكتاب .

على أن الجبرتي سجل من آثار هذه الحملة الفرنسية ، فى حياة مصر الاجتماعية ، شيئاً غير قليل ، لا فى كنه ولا كيفه .

ذكر من هذه الآثار أشياء مدح بها الفرنسيين ، وشكرها لهم ، وأثنى عليهم فيها . وذكر لهم أشياء عابها عليهم ، أو عاب على أهل وطنه من المسلمين ، أو من المصريين ، أن يتأثروا بها ، وأن يقلدوهم فيها . وذكر أشياء لمجرد التسجيل والرواية . لم يمدح ولم يقدح ولم يبد رأياً .

### المرأة المصرية

( وكان أبرز هذه الآثار التى سجلها الجبرتي ، ما تأثرت به حياة المرأة المصرية أو القاهرية ، بوجود الفرنسيين . فلفرنسيين فى هذه الناحية تقاليد اجتماعية فيها كثير من التسامح والتلطف لم تعرفه الحياة المصرية ، فلما عرفته كان لها على النساء ، والرجال أيضاً ، إغراء شديد .

(عرفت القاهرة الخلطة العنية بين الرجل والمرأة . فقد أنشأ الفرنسيون منزهة ، فى غيط النوبى ، بالأركية ، وصفه الجبرتي بأنه « أبنية على هيئة مخصوصة منزهة ، يجتمع بها النساء والرجال للهو واللحلاعة ، فى أوقات مخصوصة . وجعلوا على كل من يدخل إليه قدراً محصوراً يدفعه . أو يكون مأذوناً ويبد



ورقة « أى تصريح بالدخول . وما لا شك فيه أن هذه الأماكن لم تكن قاصرة على الفرنسيين . بل كان ينشأها كذلك بعض المصريين . »  
وعرفت القاهرة ، لأول مرة ، المسرح والتثيل . وقد ذكر أن حفلاته كانت تقام في كل عشرة ليال مرة واحدة ، لمدة أربع ساعات . يتفرجون فيها « على ملاعب يلعبها جماعة منهم ، بقصد التسلل والملاهي » . وكان ذلك باللغة الفرنسية .

وفد لقيت هذه الحياة الاجتماعية المرحية قبولاً عند أهل القاهرة . حتى إن الحاكم العسكري الفرنسي لدى الشهيد الحسيني أباح لتابع له ، ولترجانه — وكان واحد منهما يهودياً ، والثاني من مدينة حلب ، كان أسيراً في جزيرة مالطة ففك\* نانليون أسره ، مع من كان فيها من أسرى المسلمين ، واستخدمهم في مصر واشتم — أباح الحاكم الفرنسي لتابعيه هذين أن يؤسسا « قهوة » في هذا الحي . كان الناس يجتمعون بها إلى وقت من الليل . وأباح لهم فيها « التسلل والخلاعات » حتى فتن بها أهل الشهيد الحسيني « ووافق ذلك هوى العامة . لأن أكثرهم مطبوع على النجون والخلاعة ، وتلك هي طبيعة الفرنسيات » . فصاروا يجتمعون عنده للسمر والحديث ، واللعب والمزحة . ويحضر معهم ذلك الحاكم ، ومعه زوجته ، وكانت مصرية من « أولاد البلد المختلوعين » ( وفي هذه القهوة عرف الحاكم الفرنسي أن المصريين يحتفلون في كل عام بمولد الحسين . وأنهم يخشون إقامته عام ذاك ، لوجود الفرنسيين . فأذن لهم في أن يقيموه ، بل ألح عليهم في ذلك ، فأقيم )

وفي حي الحليفة ، أنشأ تابع الحاكم الفرنسي قهوة أيضاً . وكان هذا التابع مولماً براقصه . فكان يحى بها ومثيلاتها إلى القهوة . ثم يجتمع مع كثيرين من أضرابه من المصريين « وترقص لهم تلك المرأة في القهوة ليلاً ونهاراً ، وتبيت معهم في البيت . ويصبحون على حالهم » . ولم يكن هذا الأمر قاصراً على عامة الناس والسوقة . فقد كان لبعض الأمراء زوج اسمها « هوى » فحضر الفرنسيون « خرجت عن طورها » كما يقول الجبرتي ، وتزوجت نقولا القبطان .

وكان صاحب حظوة كبيرة عندهم . فلما خرج الفرنسيون احتفت . ثم عاد زوجها فأظهر الغفوة عنها ، حتى ظهرت . ثم قتلها خنقاً .

( وكذلك تزوج كثير من الفرنسيين « بنات الأحيسان » . وكانوا يظهرون إسلامهم عند العقد . ثم لبس أرواجهن هؤلاء ملابس الفرنسيات ، وسلكن سلوكهن . ونهجن نهجن في الحياة والمعيشة . )

وقد تلخص الجبرتي هذا الأثر في حياة المرأة المصرية ، تلخيصاً واضحاً قوياً ، في هذه السطور : — « ومنها أى من حوادث سنة ١٣١٥ — تبرج النساء ، وخروج غالبن عن الحشمة والحياء . وهو أنه لما حضر الفرنسيين إلى مصر ، ومع البعض منهم سائهم . كانوا يعيشون في الشوارع ، مع نسائهم ، وهن طبرات الوجوه ، لانسات الفستانات والمتاعيل الحرير الملونة ، ويسدن على مناكبين الطرح الكشميري ، والمزركشات المصبوغة ، ويركن الخيول والحجر ، ويسوقونها سوقاً عنيقاً ، مع الضحك والقهقهة ، ومداعبة السكرية معهم ، وحرافيش العامة ، فالت إليهم نفوس أهل الأهواء ، من النساء الأسافل ، والفواحش . فتدخلن معهم ، تخضعنهم للنساء ، وبذل الأموال لهن . وكان ذلك التداخل ، أولاً ، مع بعض احتشام ، وخشية عار ، ومالفة في إخفائه . فلما وقعت الفتنة الأخيرة بمصر<sup>(١)</sup> ، وحاربت الفرنسيين بولاق وتسكرى أهلهما ، وعلموا أموالها ، وأخذوا ما استحسنوه من النساء والبنات ، صرن مأسورات عندهم ، فزيتن بزي نسائهم ، وأحروهن على طريقتن في كامل الأحوال . فخلع أكثرهن ثياب الحياء بالكلية . وتداخل مع أولئك المأسورات ، غيرهن من النساء الفواجر . ولما حل بأهل البلاد ، من اللذ والهوان ، وسلب الأموال ، واجتماع الحيرات في حورة الفرنسيين ، ومن والاهن ، وشدة رغبتهن في النساء ، وخضعنهم لهن ، وموافقة مرادهن ، وعدم مخالفة هواهن — ولو شتمته أو ضربته بتاسومتها<sup>(٢)</sup> — فطرحن الحشمة والوقار ، والمبالاة والاعتبار ، واستملن

(١) تجد تفصيل ذلك في الجزء الثالث من هذا الكتاب

(٢) حذائها

فطرائهن ، واختلسن عقولهن ، لبل النفوس إلى الشهوات ، وخصوصاً عقول القاصرات<sup>(١)</sup> .

ويشير نقولا الترك إلى ذلك أيضاً . فيقول إنه — بمقتضى شروط الصلح التي خرج بها الفرنسيون — أبيع لكل راغب في السفر معهم أن يسافر . وأوجب على السلطات التي حلت محل الفرنسيين في الحكم ، أن تمكنهم من ذلك . ويذكر كثيرين ممن خرجوا معهم . ثم يقول « وتباً معهم عدة أنفار من عامة الناس ، وساء كثيرات من الاسلام — أي من المسلمين . كن متروحات للفرنساوية ، واستعدوا للسفر معهم<sup>(٢)</sup> » بل يقول نقولا ما هو أصرح من ذلك وأفصح ، وهو بنصه : « وخرجت النساء خروجا شنيعاً مع فرنساوية : وبقيت مدينة مصر مثل باريس ، في شرب الخمر ، والمسكرات . والأشياء التي لا ترضى رب السماوات » . ولا يستطيع أن يسجل أثر الحملة الفرنسية على حياة المرأة القاهرية ، من غير أن نذكر قصة البكرى .

### زينة بنت البكرى

كان السيد خليل البكرى ، أبو هذه الفتاة ، واحداً من أفراد هذه الأسرة العريقة ، ذات المكانة العالية في المجتمع المصري . ومجد شيئاً من حديثه في موضع آخر من هذا الجزء . (فلما قدم الفرنسيون ، كان صديقاً لهم ، قريباً إليهم ، ملتصقاً بهم لصوقاً شديداً . عندما دخل نابليون القاهرة عائداً من غزوة الشام ، أهدى إليه خليل هذا جواداً عربياً أصيلاً ، له سرج معطر بالذهب والياقوت واللؤلؤ . وأهداه معه رستم المملوك ، الذي سافر مع نابليون وعاش معه في فرنسا . وكان له شأن عظيم بعد ذلك في حياة نابليون . كما أهدى البكرى لنابليون عدداً من الهجن القوية السريعة ، وعدداً من الجوارى البيض والسود ، والشيلان الكشميري ، والأسلحة الذهبية المحلاة بالجواهر الكريمة ، والأقشة الحريرية ، من صناعة الهند والصين ، وكثيراً من العطور النادرة ، والصندل والعود )

(١) ماقتبسه من الحرق ، نوره بنصه ، وبأخطائه أيضاً . وكذلك نقولا الترك .

(٢) ص ٢٢٢ من كتاب « ذكر دخول فرنساوية ، الدمار المصرية والأقطار الشامية طبع باريس سنة ١٨٣٩ »

وقد وصف مسيو بوسليج<sup>(١)</sup> السيد حليلا البكرى في رسالة منه إلى نابليون بأنه رجل هيب ، وجل . وقد أعفاه الفرنسيون من الضرائب والمغارم التي فرضوها على أهل القاهرة (وذكره نقولا الترك على أنه من أحسن أصدقاء الفرنسيين . وقد خلع من نقابة السادة البكرية عندما عادت السلطة إلى العثمانيين) وقال الوالى العثمانى فى تبرير ذلك : « إن الشيخ حليل لا يصلح لسجادة الصديق » .

(وكانت للشيخ بنت ، يقال إن اسمها زينب<sup>(٢)</sup> لا أجد فى وصفها كلمة أليق مما عبر به الجبرى . فقد قال إنها « ممن تخرج مع الفرنسيين . وخرحت عن طورها معهم » ، وقال مؤرخون آخرون أفصح وأوضح من هذا التعبير اللبق المهدب ، الذى وصعها به الجبرى . قالوا إنها كانت عشيقة نابليون . وإنها كانت تسقى الفرنسيين الخمر ، وكان أبوها يشرب معهم )

فلما خرج الفرنسيون من القاهرة . وعاد الحكم فيها إلى العثمانيين ، طلبها الوالى من بيت أمها . وأحضروا أباه أيضاً . « فسألوها عما كانت تفعل . فقالت إنى تبت من ذلك . فقالوا لأبيها : ما تقول أنت .. ؟ فقال : — أقول إنى برى منها . فكسروا رقبتها » . أى قتلوها .

وقد خلت سجادة البكرية ، بوفة أخيه أحمد . ولكنه لم يلبثها « لما فيه من الرعونة ، وارتكابه أموراً غير لائقة » . ولكن الفرنسيين ولوه نقابة جميع الأشراف ، بدلا من السيد عمر مكرم . وقد لقي حليل البكرى من قسوة التأثيرين عليه ، فى القاهرة ، شيئاً كثيراً ، نجد تفصيله فى الجزء الثالث من كتابنا .

ويدو أن أثر هذه الحياة الجديدة التى شهدتها أهل القاهرة عند الفرنسيين ، كان قويا بالعمق الشدة . فقد ذكر الجبرى ، وغيره ، أن محترفات البغاء فيها كثر عددهن ،

(١) المير المالى لعمالة الفرنسية

(٢) (يشكك على ناشا مارك فى خطاطه ، فى قصة زينب هذه . ولكنه لا يذكر سماً لهذا التلصكيك . ولعله الحرس على كرامة هذا البيت العريق).

حتى أصدر الديوان أمراً بمنع دخولهن القاهرة وضواحيها شهراً . وفرض عقوبة الإعدام على من تدخلها منهن ، أو من يدخلها . وكان سبب ذلك انتشار الطاعون .

وليس غريباً أن يكون ذلك . فقد غلبت مصر على أمرها أمام جيش نابليون . والحروب لها معقبات . وللجيوش غزوات وزوايا ، غير غزوات الحرب . وخاصة في بلد فيه من الفقر واضطراب الحياة ، ما يجعل كل أمر هيناً ، وكل عسير عزيز ، من العفة والشرف ، ميسوراً قريب النال .

وليس العفة وحدها هي التي هان أمرها عند كثير من الناس ، إذ ذاك . فقد خرج بعضهم من الإسلام إلى النصرانية « لما رآه من تقدم من يخدم الفرنسيين من النصارى واليهود » كما يقول الجبرتي .

وللشيخ حسن المطار بيت من الشعر ، يصف فيه حال الجنود الفرنسيين وبعض سلوكهم في القاهرة هو : —

إن الفرنسيين قد ضاعت ذراهمم في مصرنا ، بين حمار وخمار  
فقد كان لهم ولم شديد بر كوب الجبر ، حتى ليقضى بعضهم يومه كله على ظهرها .  
كما كان فيهم إسراف شديد أيضاً في شرب الخمر ، وكان بمصر المصريين أو القاهريين  
يتأثر بذلك ، من غير شك .

### في التنظيم والإدارة

وسجل الجبرتي شيئاً غير قليل ، من الأعمال ، أو التنظيمات ، التي كان لها أثر طيب في حياة أهل مصر . فمن ذلك عنايتهم بالصحة والنظافة . فقد أمروا ألا يدفن أحد من الموتى داخل القاهرة ، وخصصوا لذلك أماكن في خارجها . وأمروا بالتبليغ عن المرضى ، عند وجود وباء ، وعدم الانتقال من مكان موبوء . ومن يخالف هذين الأمرين يقتل ، ومنعوا الناس من دخول القاهرة مدة الوباء ، ومن دخل يقتل ، ولو كان فرنسياً . وحثّموا أن يكشف الطبيب على كل مريض ، وأقاموا حجراً حياً في بولاق . يتلقون فيه كل قادم للقاهرة حتى يكشف عليه ،

فإن كان مريضاً حجز . وينقل إليه كل مريض حتى يشفى أو يموت ، وحتماً كذلك نشر الثياب ، وتطهير المنازل . حتى لا ينتقل منها وإليها الوباء . ولا شك في أن من أكر الدوافع لهم على إصدار هذه القرارات ، المحافظة على سلامة جيوشهم ، ولكن هذا لا يفي أن المصريين رأوا ، لأول مرة ، هذه الحيلة والمناية بالصحة العامة .

وعرف المصريون ، تمهدة الميلاد ، فقد أمروا بقيد كل مولود . وكذلك أمروا بتسجيل المتلكات ، وإضافة الشوارع والأزقة . كل دار عليها قنديل . وكل ثلاثة دكاكين حديد . وكان أهل القاهرة يعملون ذلك من قبل . ولكنهم لم يكونوا حريصين عليه ولا مثابرين ، وقد كانت عناية الفرنسيين بالإضافة ، مما يعينهم على حفظ الأمن ، ويساعدهم في مراقبة الناس ، وتحجى حركاتهم .

وكذلك أنشأ الفرنسيون إدارة خاصة لجوازات السفر ، وخصصوا ضريبة ثابتة على الموارث . أثنى عليهم فيها الجبرتي . لأن هذه الضريبة كانت ، قبلهم ، يقدرها القاضى كما يشاء . وكان فيها من النبن والشطط والتعسف ، بل من السرقة أحياناً ، شيء غير قليل . حتى ذكر أن بعض القضاة كان يأخذ ضريبته الثقيلة . فإذا أخذها — ولا بد أن يأخذها أولاً — لم يبق للورثة شيء . وكذلك فرضوا رسماً ثابتاً على الأقضية ، وخصصوا وثائق لتسجيل عقود الزواج خاصة .

ومن طيب أعمالهم التي سجلها الجبرتي ، محاربتهم التسول والشموعة . فقد خصصوا داراً جمعوا فيه التسولين ، وفرضوا لهم مالاً بنفق عليهم من أموال الأوقاف . وكان بعض البلهاء ، ومدعى الولاية ، يسرون في شوارع القاهرة ، عرايا ، يصبحون ويصرخون . مع أنهم ، كما يقول الجبرتي ، لا يصومون ولا يصلون . فسأل الجنرال منو العلماء عن ذلك ، وهل هو من الدين ، فأنكروه . فأمر بالقبض عليهم جميعاً حيث أدخل المريض منهم السنشقي ، وأخرج السليم من القاهرة .

وأنشأوا في الديوان ما عرف بعد ذلك ، في الحكومات المنظمة ، «بالأرشف» . تحفظ فيه صور الشكاوى والظالمات ، وما يصدر عنه من الأحكام . وأدخلوا

كذلك شيئاً من التنظيم الحكوى لأمن الدولة . فقد أمرها كل صاحب فندق ، أو نخارة ، أو بيت ، بأن يكتب اسم من ينزل في محله ، أو يدخله . ويبلغ ذلك لحاكم البلد ، قبل مرور يومين ، مع بيان الحمة التى قدم منها النادل ، أو الزائر ، وسبب قدومه ، ومدة سفره ، والعمل الذى يزاوله<sup>(١)</sup> .

وتبدو واضحة ، مصلحة الفرنسيين فى ذلك .

وحارب الفرنسيون الرشوة أيضاً . فقد كثرت شكوى الناس من الضرائب وسوء تحصيلها ، وجعلها فى أيدى غير مصرية . فترك الفرنسيون أمر تحصيلها « لعقلاء المسلمين » مع ضمانهم لها . على شرط أن يعي منها النساء ، والعبيان ، والفقهاء ، والخدم ، والفقراء . وكانت الضرائب فى أيدي السابقين ، سبباً من أكبر أسباب الرشوة والظلم .

ويقول الجبرقى إنهم عندما أنشأوا الديوان للفصل فى المظالم ، فرضوا لأعضائه ، ومترجميه وكتبته ، مرتبات « تكفيهم ، وتغنيهم عن الرشوة » .

وكان من أثر الحملة الفرنسية ، فى نظم الدولة العامة ، إدخال النظم العسكرية الحديثة فى الجيش . فقد بدأ الجند ، بعد خروج الفرنسيين ، يتبعون نظمهم فى التدريب ، ولبسهم ثيابهم التى يصفها الجبرقى « بالصيقة المقطعة » . وسمى العثمانيون ذلك بالنظام الجديد . ثم سلك محمد على هذا السبيل أيضاً ، بعد ذلك . وراى على ذلك الاستفادة من علوم الفرنسيين واستخدامها . حيث يقول الجبرقى إن محمداً علياً ، وهو يشتغل بسد ترعة الفرعونية « كان يشق الجبل بالغمام البارود ، مثل عمل الإفرنج »

وكذلك كان لهم أثر فى المهارة وطرازها ، حيث يقول : إن أحسد رجال محمد على أنشأ له داراً عظيمة بخطة باب اللوق ، على نسق الأبنية الإفريقية والرومية . وأقاموا مصانع للأدوية ، وطواحين الهواء ، وفرضوا الحجر الصحي فى خارج القاهرة ، وفى الإسكندرية ، ثم فى رشيد ودمياط .

(١) عن مخطوط مظهر التدريس ، بذهاب دولة الفرنسيس .

## التكافل الاجتماعي والعاطفة الوطنية

وهناك أثر اجتماعي للحملة ، لم يقصد إليه نابليون ورجاله ، وإنما أوجدته الأحداث والظروف ، وهو ظهور التكافل الاجتماعي ، والشعور العام ، الذي يقرّب بين الناس ، ويجمع نفوسهم في إحساس واحد . ونرى من مظاهر هذا التكافل شيئاً غير قليل ، فيما كتبتاه عن مقاومة الفرنسيين في الجزء الثالث من الكتاب .

ولكننا نذكر هنا أمثلة أخرى لهذا التكافل ، فمن ذلك ما سجله الجبرتي ، عند ذكره شروط الصلح التي خرج بها الفرنسيون من مصر . فقد كان منها أن يدفع المصريون صفقات سفرهم ، وهي ثلاثة آلاف كيس . وتمهد السيد احمد المحروقي بجمعها . فكان الناس يبادرون ، مسرورين ، لدفع ما عرض عليهم . لعلمهم أنه سينفق في خروج الفرنسيين من وطنهم . أو كما يقول الجبرتي ، « كل من توجه عليه مقدار من ذلك ، اجتهد في تحصيله ، وأخرجه عن طيب قلب ، وانشراح خاطر ، وبادر بالدفع من غير تأخير . ويقول سنة مباركة ، ويوم سعيد » . وكذلك اشترك في دفع الضرائب التي فرضها نابليون ، المسلمون ، والنصارى ، واليهود ، والشوام ، والقبط ، والتجار الأجانب .

وكان نابليون ، عند عودته من الشام ، أحضر معه بعض الأسرى من المصريين ، ووجدهم يحاربون مع أحمد باشا الجزائر في غرة ، وإيّاها . فأمر بإطلاق سراحهم ، شرط أن يدفعوا قدرًا من المال ، عجز الأسرى عن دفعه ، فوفاه عنهم الناس ، وجمعوه من أموالهم .

وكذلك ظهرت عند أهل مصر العاطفة الوطنية ، وأخذت تراحم ، أو تدافع العاطفة الدينية . بل نجد أنها ، وقتاً ما ، تغلبت عليها وقهرتها . وما نجده من خروج أهل القاهرة على العلماء ، واعتدائهم عليهم ، عندما توسطوا في الصلح بينهم وبين الفرنسيين ، ما نجده من ذلك في الجزء الثالث من الكتاب ، فيه كفاية وغنية لإبراز ما نريد . وكذلك ما فعلوه بالسيد خليل البكري .

ولمّا جنب هذا التكافل الذي لم يقصده الفرنسيون ، وجد أثر مضادّ له ، قصدوه هم ، وأوجدوه . وهو التفريق العنصري ، أو الطائفي .



فقد ألف نابليون فرقة من المغاربة، حيث جمع له واحد منهم، اسمه عمر القلقجي، كثيراً من شبابهم. اختار منهم طائفة، درّبها على أصول الحرب. وجعل عمرا هذا قائدا لها. وضمها إلى جيشه. وقد حاربت فرقة المغاربة هذه، الماليك، وحاربت الثائرين من أهل مصر، مع الفرنسيين.

وكما فعل الفرنسيون بالمغاربة المسلمين، فعلوا بقبط مصر. جمعوا منهم فرقة، وأقاموا المعلم بمقبوب قائداً عليها.

وكذلك ألفوا فرقة من أبناء الأروام كان عددها — على رواية نقولا الترك — ثلاثمائة. وحاربت، بقيادة الجنرال نقولا، مع الفرنسيين، في موقعة الرحمانية، ضد الأنجليز. ولبس هؤلاء الأروام، والأقباط، والمماربة، ثياب الجنود الفرنسيين. وقد تحدثنا عن المعلم بمقبوب وفرقة فيما مضى من هذا الفصل.

وكان مما فعله الفرنسيون، مما يثير التفريق العنصري، أن جماعوا بعض النصارى، من القبط، والشوام، نظاراً على أوقف طلبية الكتاتيب، والمقرئين للقرآن. وكذلك جماعوا منهم، محصلين للضرائب والقرامات، أوقعوا بالناس، في القاهرة والريف، كثيراً من العنت والظلم.

وقد اجتاحت القاهرة، والأقاليم، موجة من المدوان على النصارى، واليهود، ومصادرتهم. كآثر من آثار استخدام الفرنسيين لهم. وكان ذلك المدوان بعد خروجهم من مصر.

### الأجانب

وأعتقد أن من أهم الآثار الاجتماعية، والسياسية والاقتصادية أيضاً، التي خلفتها الحملة الفرنسية. زيادة الأجانب في مصر، زيادة كبيرة. وقد نقل على باشا مبارك، عن مصادر فرنسية، أن عدد سكان القاهرة، سنة دخولهم [١٧٩٣] — ١٧٩٨ م. [كان مائتين وستين ألفاً. وكان عدد الأجانب فيها أربعمائة] أكثرهم دخلها مع الفرنسيين «أما الأروام، والشوام، والمارون، والأرمن، فكانوا نحو اثنين وعشرين ألفاً.

وليس هؤلاء الأربعمائة من الأجانب وحدهم، هم الذين دخل معظمهم

مع الفرنسيين . بل بقي كثير من جنودهم ، ورجالهم ، في مصر ، بعد صلاحهم وخروجهم منها . وبعض هؤلاء الجنود ، الذين بقوا في مصر من الفرنسيين ، انضم إلى جيوش المائليك ، وحارب معهم في الصعيد .

وقد ظهر أثر ذلك بعد زمن غير بعيد من خروج الفرنسيين . فإن اعتماد محمد علي على الأجانب ، وعلى الأرمن والفرنسيين خاصة ، أمر معروف . ونجد في حديث الجبرتي عن محمد علي كثيرا من السخط ، لأنه حمل الدولة ، ومناصبها الكبرى ، واختار خاصته ورجاله ، من الأجانب .

### ١٠ الديمقراطية

ومما سجله الجبرتي أيضاً من آثار الحملة الفرنسية في حياة الناس ، تعريفهم ، لأول مرة ، بالديمقراطية . فقد أنشأ نابليون ، وقواده من بعده ، ديواناً من المصريين والأحباب ، أو من العلماء وحدهم ، لحكم مصر عن طريقه . وكان مقر هذا الديوان بيت قائد أغا ، قرب الرومي في الأزبكية . وأنشأ ديوانين أخرى في كل مديرية أعضاء كل ديوان منها سبعة . وجعل اختيار أعضاء الديوان الكبير في القاهرة ، والديوانين الأخرى ، في الأقاليم ، بالانتخاب . وحُدِدت لها اختصاصات ، تتصل بالأمن ، ورعاية العدل بين الناس ، وبحث شكوى الشاكين ، ومظالمهم .

وقد أمر نابليون باستدعاء المشايخ . والوجافلية ، أي رؤساء الجند ، فانتخبوا أعضاء الديوان الكبير . وعقد بعد ذلك جمعية منه ومن أعضاء الديوانين الإقليمية ، ليستشيرهم جميعاً في النظم التي يرون أن يسير عليها حكم البلاد ، وفي قوانينها القضائية ، والإدارية ، والمالية . وكان انتخاب الشيخ الشرقاوي رئيساً للديوان الكبير ، بالاقتراع السري .

وقد قال الشيخ الشرقاوي إن هذا الديوان « كان فيه رحمة لأهل مصر » . فهذه أسس الحياة الديمقراطية ، والبرلمانية . عرفتها مصر من الحملة الفرنسية . ولأمر ما لم تُفد مصر منها ولم تبق فيها . بل لم يبق منها أثر في الحكم ، ولا في نفوس الناس وطبائعهم .

وقد سلب الفرنسيون ، عدد خروجه من مصر ، كثيراً من ذخائرها ، وترائبها الفكرى والثقافى . كما سلبوا أموال أهلها ، أو ما بقى من أموالهم مما كان له أثر ، أى أثر ، فى حياتهم الاجتماعية .

ومن ملاحظات الجبرتى على الفرنسيين ، فى مظهر التقديس ، أنهم لا يتحررون من كشف عوراتهم ، ومن قضاء حاجتهم الطبيعية أمام الناس ، وعدم التطهر ، بعدها ، بالماء . وعدم التصون فى العلاقات بين الرجل والمرأة . وحلق لحاهم ، وشواربهم ، وإزالة شعر رؤوسهم وأحسامهم . وعدم خلهم الأحذية فى أماكن الجلوس .

### عوام أهل القاهرة

ومما سجله الجبرتى على أهل القاهرة ، أيام الفرنسيين ، ولو أنه ليس أثرأ من آثارهم . أنهم ، بعد أن رجع نابليون من حملته على الشام ، « تجمع أمام داره بالأزبكية ، أرباب الملاحى ، والنساء « البطالات » وطوائف الممامة ، ورجال العالم من الحرافيش . وأكلة الحشيش ، وملاعبى الله ود ، والخواة ، والراقصات ، والحلايىص ، والمراجع ، وغيرهم . كتجمعهم فى أيام العيد والمواسم » ونرى جمعهم هذ ثلاثة أيام . والفرنسيون فى هذه الأيام أيضاً يطلقون المدافع ، ويوقدون السوارىخ والحرقافات . ثم ابصرفت جموع القاهريين بعد أن أعطاهم نابليون دراهم ، وبقاشيش .

فإذا ذكرنا ما كان بين القاهريين والفرنسيين من حصومات ، وما قام به الأوتون من ثورات حارفة ضد نابليون وجيشه ، مما فصلناه فى الجزء الثالث من الكتاب . إذا ذكرنا ذلك ، كان هذا الذى سجله الجبرتى ، فى المعجائب ومظهر التقديس ، أمراً عجيباً حقاً ، لا يخلو من دلالة .

### ثناء على الفرنسيين

وقد أثنى الجبرتى على الفرنسيين ، لإبطالهم السخرة ، حيث كانوا يفرضون للعمال الأجور ، ويوفونها لهم . بل كانوا يزيدونها عن الأجر المعتاد . وكانوا

يعدّونهم بالآلات التي تريحهم في العمل ، كآلات جر الأتقال ، ونقل الأتربة . ويريحونهم بعد الطهر . وكانت السخرة شيئاً مألوفاً جداً في ذلك الزمن . حتى كان العامل الذي يقع من الإعياء والجهد ، يهال عليه التراب ، ويدفن حياً . كما نرى من حديثنا عن محمد علي ، في الجزء الثالث .

ومدح الجبرتي الفرنسيين لقتلهم الكلاب الضالة . ودقّتهم في صرف العملة واستبدالها . حتى قال في ذلك هذه الجملة الصارخة : — « . لأن جميع معاملة الكفار سائلة من الغش والنقص ، بخلاف معاملات المسلمين » .

وأثنى عليهم لحبهم العلم . وأمانتهم في الإشتغال به . وقد ذكر أنه كان يزورهم ، مع الشيخ السادات ، في مساكنهم . ويرى نقوشهم ، وصنائعهم ، وتصاويرهم ، وغرائبهم ، فيعجب بهذا كله إعجاباً شديداً .

وتلك الصفحات التي سجل فيها وصفه لدار الكتب التي أقامها الفرنسيون ، في القاهرة ، وما كان فيها من المصنفات ، والكتب ، والآلات الدقيقة ، والصور ، والرسوم . والنظام الذي وضعوه لزيارتها ، والإفادة منها لمن شاء . ووصفه لتلك التجارب العلمية والكتبانية التي أجروها أمامه . وكيف وفّ أمانها حائفاً ، متمجّباً ، مبهوتا ، كالطفل هذه الصفحات وتلك ، من أجل ما تضمنه كتابه ، وأكثره طرافة وصدقاً . وقد ذكر فيها أن دار الكتب تلك ، كانت فيها صور مرسومة للنبي محمد ، عليه السلام ، وحوله كبار الصحابة ، وللخلفاء الراشدين . وللعراج .

وكذلك وصفه للطائرة « البائون » التي أطلقها الفرنسيون في سماء القاهرة .

### في التفاهة والعصر

وأعتقد أن الأثر الثقافي للحملة الفرنسية ، في مصر . لم يكن أثاراً ضعيفاً ولولا اللابسات التي كانت سائدة إذ ذاك ، والخصومات العنيفة ، المتلاحقة بينهم وبين المصريين . وقصر الفترة التي أقاموها في مصر ، واضطرابها ، ولولا الفارق الديني أيضاً ، لولا هذا وذلك ، لأفادت مصر ، من الفرنسيين ، فوائد كثيرة ، من الناحية الثقافية والعلمية .

ومع هذه الحوائل ، والمعوقات كلها نستطيع أن نقول ، إن طائفة غير قليلة من سادات أهل مصر ، وكبار علمائها ورجالها ، قد تركت إقامة الفرنسيين بينهم ، وخلطتهم بهم ، آراء غير يسير ، في ثقافتهم ، وفي نفوسهم . ولو أنهم كانوا يتحاشون أن يعرف ذلك عنهم . لأسباب من السهل إدراكها .

فقد عرفت مصر منهم ، لأول مرة ، المطبعة . حيث أحضر نابليون معه مطبعة تطبع باللغات الفرنسية ، واللاتينية ، واليونانية ، والسريانية ، والعربية<sup>(١)</sup> . وقرأ المصريون رسائل نابليون إليهم ، ومنشوراته ، وبياناته ، مطبوعة فيها .

وقد تأثرت ثقافة فريق من كبار القوم ، بهذه المعارف والعلوم الجديدة ، التي رأوها عند العلماء من رجال الحملة الفرنسية . والجبرتي نفسه كان ممن تأثروا بهذه المعارف والعلوم ، ولم يخف إعجابه بطائفة منها ، رغم حيلته في ذلك وحذره . ونجد في كتابه بعض ألفاظ فرنسية ، مثل « نو » و « مارش » ، وغيرها . وكذلك صديقه الشيخ حسن العطار ، الذي تولى مشيخة الأزهر فيما بعد . وقد كان أكثر صراحة من صديقه الجبرتي ، وأبين إفصاحاً عن تأثره بمعارف الفرنسيين وعلومهم . كما رأينا من ترجمته في هذا الفصل .

ونجد هذا الأثر ، أو نحسه ، فيما كتبه شيخ الأزهر عبد الله الشرقاوى ، فهو يكتب ، لأول مرة . ويقراء المصريون ، لأول مرة أيضاً ، كلمات الطبيعة ، والإباحية ، والكثلكة . ويعرف كلمات إنكار البعث ، والدار الآخرة ، ونبوة الأنبياء وتحكيم العقل ، والشرائع والأحكام الوهمية . يكتب الشيخ الشرقاوى ذلك فيما كتب عن « حقيقة حال الفرنساوية »<sup>(٢)</sup> ثم لا نجد عنده من ذلك شيئاً من الثورة أو الغضب . بل نكاد نحس ، فيما كتبه عنهم ، شيئاً قليلاً من الرضى والتقدير ، والتأثر بالخلطة والصداقة والمعرفة .

(١) عن قولنا الترك

(٢) ص ٧٦ من كتابه تحفة الناظرين

## تصويب

وقعت في هذا الجزء ، بعض أخطاء مطبعية ، نورد تصويبها فيما يلي : —

الخطأ	صفحة	سطر	الصواب	الخطأ	صفحة	سطر	الصواب
كتخذنا	٧	١٩	كتخذنا	فها	١١٧	٢٠	فيها
»	»	٢٠	»	عنن	١٢١	٢٤	يمنع
الأشربة	١٠	٦	الأشربة	ينفض	١٢٦	١٥	ينفضن
٤ وبلغ	»	٧	وبلغ	فيحضروه	١٣١	٥	فيحضرونه
إلى في أبيه	١٢	٨	إلى أبيه في	والستون	»	٦	والستين
على	١٣	١	على	واستغاثوا	١٣٦	٤	واستغاثوا
رعينا	٤٩	٦	راعينا	إذ	١٤٧	٢٤	إذا
أققرته	٥٣	١٠	أققرته	الر	١٥٠	١٥	البرين
غينه	٥٩	٤	غنية	الفجر	١٥١	٣	الفجر
مراد	»	١١	مرادا	التأثرين	١٥٩	٢٢	التأثرين
أ كفاهم	٦١	٨	أ كفاهم	أجنبي	١٦١	٥	أجنبي
ييته	٧٣	٢٠	ييته	أن	١٦٢	٦	إن
إخوانه	٧٦	١٠	إخوانه	الهمة	»	١٠	الهمة
المطار	١٠٠	١٢	المطار	شرشمة	١٦٥	٢٢	شرشمة
يبب	١٠١	٤	بيت	أن	١٦٧	١١	إن
يل	١٠١	١٥	بل	والت	١٦٨	٧	ونالت
بحارى	١١١	٢٤	بحارى	واحتفت	١٧٣	٢٢	واحتفت
نؤرخه	١١٣	١٩	نؤرخه	حند	١٧٥	٩	جند

# الفهرس

صفحة	الموضوع	صفحة	الموضوع
١١٩	أخلاق الخند والحكام		الفصل الأول
١٢٩	الشيخ صادق		أسرة الجبرتي
١٣٠	شيخ مدينة بها	٣	عبد الرحمن الجبرتي
١٣٢	المولد	١٢	عجائب الآثار
١٣٥	الشيخة أمونه	٢٤	التاريخ بلا عاصلة
١٣٦	الشيخ والعز	٢٨	تداول الكتاب وطبعه وترجمته
١٣٩	قامت القيامة	٣١	خطوطات التاريخ ومظاهر القديس
١٤٠	يجمع أهل السيادة	٣٣	الفصل الثاني
١٤٢	فضائل الناس		الحياة العسكرية
١٤٤	الغضب والتسميم الجبري		الشيخ حسن العطار
١٤٦	الحياة في الريف	٤٧	الشيخ عبد الله العرفاوي
١٤٩	حبيب وحلم	٤٨	حسن البدرى الحجازي
١٥٤	المسلمون والنصارى	٥٤	الإدكاوي
١٦٢	الشيخ الشراوى ونوروز	٥٧	الشاعر الطريف الحجازي
١٦٣	الآيمان والثقة بالنفس	٦٠	إسماعيل الظهوري
١٦٦	نقيسة المرادية	٦٥	عاصم الأنطولى
	الأثر الاجتماعى للحملة الفرنسية	٧٨	مصطفى القيسى الدمياطى
١٧٨	المرأة المصرية	٨٠	السيد مرتضى الزبيدى
١٨١	زيت بنت البكرى	٨٢	فاسم بن عطاه الله
١٨٣	في التنظيم والإدارة	٨٦	شعاع من النور
١٨٦	التكافل الاجتماعى والمحافظة الوطنية	٩٢	واعظ من الروم
١٨٧	الأجانب	٩٥	بيت الشرايى
١٨٨	الديمقراطية	٩٧	الثروة والنعيم
١٨٩	عوام أهل القاهرة	١٠٠	حياة الفن
١٩٠	ثناء على الفرنسيين	١٠٣	أيام أهل القاهرة
	في الثقافة والفكر	١٠٩	
		١١٣	

